روائع الفكر الإنساني

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

مقال عن المنهج

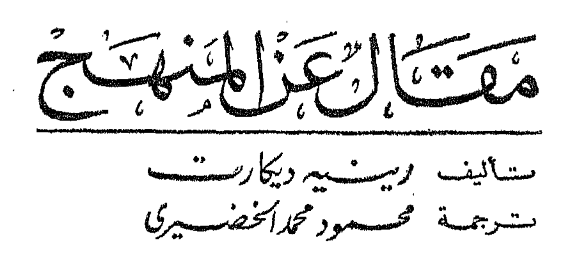
تأليف رينيه ديكارت
ترجمة محمود محمد الخضيري

الطبعة الثانية

راجعها وقدم لها الدكتور محمد مصطفى حلمي


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

روائع الفكر
الإنسانى



مراجعة : الدكتور محمد مصطفى حلمى

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

الطبعة الثانية

١٩٦٨

تقديم

بقلم: الدكتور محمد مصطفى حلمى

١ الفلسفة القديمة

يحدثنا تاريخ الحياة العقلية والروحية الانسانية ، بأن كثيرا من الامم القديمة ، سواء فى مصر والهند والصين وفارس ، وفى غيرها من الامم ذوات الحضارات فى الشرق القديم ، قد كانت لها فلسفاتها التى انطوت عليها دياناتها ، وبأن هذه الفلسفات انما كانت بمثابة المرآة التى تتجلى على صفحتها المعانى الفلسفية والروحية والخلقية التى كانت ما تزال بعيدة عن الفلسفة بمعناها الحقيقى ، وهو هذا المعنى الذى يعول فى فهمه على العقل أداة ، ويتخذ فيه من النظر العقلى منهجا يعين على كشف الحقيقة ، ومعرفة حقائق الاشياء ، وتفسير الوجود تفسيرا منهجيا يعلل وجودها ، ويحلل عللها ، ويبين طبيعة ما يحيط بها ، ويصدر عنها ، فهذه الفلسفات لم تكن اذن فلسفات بالمعنى الفلسفى الدقيق ، بقدر

ما كانت ألوانا من الحكمة ، وضروبا من المبادىء والقواعد ، مما كان يتصل من قريب أو من بعيد بالدين والعقائد ، ويرمى الى تصفية النفوس من الناحية الروحية ، والى تنقية القلوب من الناحية الخلقية ، أكثر مما يرمى الى ترقية العقول من الناحية النظرية ، واعمال هذه العقول اعمالا منهجيا منظما ، ومؤديا الى نتائج ان لم تكن يقينية كل اليقين ، فلا أقل من أن تكون قريبة من هذا اليقين ٠

ويحدثنا تاريخ الحياة العقلية والروحية الانسانية أيضا ، بأن الفلسفة بمعناها الحقيقى ، وبمنهجها الحسى حينا ، والعقلى النظرى حينا آخر ، والتجريبى العملى تارة ، والذى يؤلف بين الحس والعقل والتجربة تارة أخرى ، قد نبتت شجرتها فى أرض اليونان ، وما فتئت هذه الشجرة تتعهدها العقول والقلوب حتى نمت وأينعت ، وآتت أكلها مناهج وأنظارا عقلية ، وطرقا ووسائل حسية ، وأذواقا ومواجيد روحية ، ثم تفرعت أغصانها النامية ، وامتدت ظلالها الضافية ، واذا ثمارها ناضجة دانية، واذا الانسانية كلها تنعم بهذه الثمار ، وتستظل بتلك الظلال ، فتجد عندها غذاء العقل ، ونزهة القلب ، وبهجة الروح ، وهذا يعنى بعبارة أخرى ان فلاسفة اليونان هم الذين مهدوا للانسانية سبيل التفكير الدقيق ، والنظر العميق ، فى الكون ، وفيما يشتمل عليه الكون من ظواهر وأحداث ، وفيما لهذه الظواهر والاحداث من صلة بخالقها ومبدعها وبالانسان الذى يؤثر فيها ويتأثر بها ، وفى ذات الاله ، وذات الانسان ، وفيما هما عليه فى ذاتيهما ٠ فالانسانية من هذه النواحى كلها مدينة لليونان بفلسفتهم النظرية والعملية التى ليس من شك فى أنها كانت نتاجا عقليا خصبا ، وعملا روحيا جليلا للعبقرية اليونانية ٠ ذلك بان فلاسفة اليونان هم أول من فلسف على الحقيقة ، وهم أول من تأمل تأملا فلسفيا فى بحثه عن الحقيقة،

وهم أول من اصطنع العقل ونظر العقل فى تفسير حقائق الاشياء تفسيرا منهجيا يوغل فيما يظهر ويخفى ، باحثا عن علل الاشياء بصفة عامة ، وعن العلة الاولى التى تصدر عنها كل العلل ، وترد اليها كل الاشياء بصفة خاصة ٠

على أن اليونان حين تأملوا الكون ، وفسروا أحداثه وظواهره، كانوا ينظرون اليه على أنه «كل » قد اتحدت أجزاؤه ، واتسقت عناصره ولعل الذى جعلهم ينظرون الى الكون هـذه النظرة الكلية الشاملة ، هو اعتقادهم بأن الكون ليس طائفة من الأحداث ينفصل بعضها عن بعض ، ولا يتصل بعضها ببعض ، ولا يؤثر بعضها فى بعض ، وانما هو فى الواقع كل مؤتلف الابعاض ، قد ساد أجزاؤه النظام والانسجام والاتساق التام ، وعلى هذا النحو ينبغى أن تتكون عن الكون فكرة فى العقل ، أو فى الوجود العقلى ، مضاهية لصورته فى الواقع ، أو فى الوجود العينى ، بحيث لا يكون الكون ، سواء فى صـورته الحسية أو فى فكرته العقلية ، الا كلا متسـقا أخص خصائص هذه الوحدة التى لا كثرة فيها ، ولا تفرقة معها ٠

ولعل من العوامل التى أعانت على نهضة الفـكر الفلسفى اليونانى ، هو هذه القدرة التى تهيأت للعقل ، وهيأته لأن يخلص من القيـود المادية ، ومن الاغلال الحسية ، ومن شـواغل الحياة العملية ، بحيث أصبحت الفلسفة صناعة فريق من المشتغلين بها ، والمتخصصين فيها ، والمعلمين غيرهم منها ، كما أصبحت لدى فريق آخر أنبل وأشرف استغلال يمكن للانسان الراقى أن يستغل فيه وقت فراغه ، لا سيما أن فى هذا الاستغلال شعورا بالمتعة الفنية، وتذوقا للقيم الجمالية ، وذلك لما يثيره الجمال من لذة فى النفس ، وبهجة فى القلب ، فضـلا عما تؤدى اليه معرفة الحق من راحة العقل ، وما تنتهى اليه معرفة الخير وفعله من رضا الضمير : فقد كان لذلك الشعور بالجمال بصفة خاصة أثره الواضح الجلى فيما

صادر عن الفلاسفة من مذاهب وآراء ، ذلك بأن الحقيقة التى لم تكن تمتاز بالجمال ، ولا تثير فى النفس متعة فنية ، انما كانت عند أولئك الفلاسفة اليونان حقيقة ناقصة خاطئة ، ومن هنا كانت هذه الفكرة التى تصور الكون فى صورة منظمة منسجمة لا بد من أن يدركها عقل منظم منسجم هو أيضا ٠ ومن هنا أيضا نشأ هذا المقياس الذى كانت تقاس به المذاهب الفلسفية ، وتتقوم به قيمها ، وهو ما عسى أن تؤديه هذه المذاهب الفلسفية من اشباع حاجة العقل ، ومن ارضاء متعة القلب ، ومن بلوغ الى رضا الضمير ٠

وكثيرا ما يلاحظ على بعض مؤرخى الفلسفة اليونانية ، أنهم كثيرا ما ينسبون الموضوعية الاعتقادية الى هذه الفلسفة اليونانية ٠ وهذه الموضوعية الاعتقادية هى التى تجعل من نشاط العقل شيئا يعول على وجود ما يدركه هذا العقل ٠ ويقول أصحاب هذه الموضوعية العقلية الذاهبون مذهبها ، ان الوجود العقلى هو مبدأ التعقل ، كما أن الوجود الحسى هو مبدأ الاحساس ٠ على أن هذا ، وان كان صحيحا ، الا أن هناك الى جانب هذه الموضوعية الاعتقادية ، ذاتية اعتقادية من شأنها أن تتخذ من رضا النفس واطمئنانها الى الشىء الذى تدرك ، دليلا على وجود هذا الشىء ٠ ولعل ايثار فلاسفة اليونان لهذه الذاتية الاعتقادية ، وتأثرهم بها ، كانا أشد وأقوى من ايثارهم للموضوعية الاعتقادية ، وتأثرهم بها : فمهما حاول فلاسفة اليونان من محاولات ، ومهما كان لمحاولاتهم من نتائج وثمرات ، وذلك فى تغليب الموضوعية على الذاتية أحيانا ، الا أنهم لم يستطيعوا أن يحددوا بالدقة الوسائل التى يمكن أن يعتمد عليها العقل ليخلص من ذاتيته ، ويخرج عن نفسه ، وينسلخ من دائرته ، الى حيث يخلص الى موضوعه ، ويستقبل بحثه لهذا الموضوع بحثا مستقلا عن نفسه ، لا يتأثر فيه بشىء مما يعمل عمله فى نفسه ، وآية هذا كله أنهم وان كانوا قد أدوا للانسانية أجل الخدمات ،

وقدموا اليها أروع وأمتع الثمرات ، وفتحوا أمامها كثيرا من الآفاق العلمية والفلسفية ، منهجية كانت هذه الآفاق أو مذهبية ، ونظرية كانت أو عملية ، لا سيما فيما أقبلوا عليه ، وعرضوا له ، من طبيعيات ورياضيات وميتافيزيقيات ، ومن أخلاقيات واجتماعيات وسياسيات ، الا أنهم مع هذا كله لم يتهيأ لهم أن يبلغوا بالعلوم التجريبية ما كانت خليقة أن تبلغ من حد الرقى والتقدم والكمال ، ولعل كل ما كانوا يعلمون عن هذه العلوم التجريبية ، هو أنهم كانوا يعرفون قيمة التجربة من الوجهة النظرية ، دون أن يعرفوا كيفية اجراء التجارب ، ولعل هذا لم يكن ناشئا لديهم من أنهم كانت تعوزهم الآلات التى تصطنع فى اجراء التجارب فحسب ، وانما هو راجع أيضا الى أنه لم تكن لديهم فكرة ما عن الآلات التى تستخدم فى دراسة المادة ، يضاف الى هذا أنهم كانوا يسرفون فى الايمان بالتوافق المباشر ، أو الملاءمة المباشرة ، بين العقل والاشياء التى يدركها هذا العقل .

على أن هذا كله لا يعنى على وجه الاطلاق أن فلسفة القدماء كانت كلها خلوا من روح النقد الذى يعتمد على التحقيق ، والتحليل الذى يستند الى التدقيق ، وانما نحن نلاحظ أن فلسفة القدماء قد طبعت فى بعض أطوارها بطابع لم تكن تؤمن معه بكل شيء ، ولا تستيقن فيه من كل شيء ، ولا تطمئن الى كل شيء ، بل كانت فى بعض هذا الطور أو ذاك تنقد قبل أن تقرر ، وتزن قبل أن تؤمن ، وتشك قبل أن تستيقن ، وكل أولئك عناصر يتألف منها روح النقد ، ومنهج البحث ، كما أنها أنوار يستضاء بها فى سبيل كشف الحقيقة ، سواء فى الفلسفة النظرية ، أو فى العلوم التجريبية .

فأنت ترى اذن أن الفلسفة اليونانية قد اتخذت لنفسها ، فى وقت ما ، أو فى أوقات متفاوتة من أطوار حياتها ، مقياسا تقيس

به وجود الاشياء ، ومحكا تعرف به حقيقة هذا الوجود ، وأنت ترى أيضا أن هذا المحك وذلك المقياس ، يرتكز أحدهما أو كلاهما ، على أن وجود الاشياء ، وحقيقة وجود هذه الاشياء ، انما يقاس كل منهما بنسبة الكمال الذى يوجد فى أحدهما ، كما هو فى الآخر ، وذلك على الوجه الذى يدرك عليه هذا الكمال ، عقل منظم قادر على التنظيم ، حتى ان الفلسفة اليونانية حينئذ قد اتخذت من هذا الكمال دلالة جوهرية على الوجود ، أو علة خفية لهذا الوجود ، وأنت ترى بعد هذا كله أن أظهر ما ظهر روح النقد فى الفلسفة اليونانية ، فانما كان ذلك عندما انتهت هذه الفلسفة الى الشك ، فاذا أصحابها يرون أن نسبية المعرفة ، واضافية الحقائق ، من شأن كل منهما أن تجعل العقل مرتابا فى قيمة ما يدرك ، واذا هم يغرقون فى هذا الشك حتى لا يكادون يستيقنون من الوجود الموضوعى لأى شىء • وليس معنى هذا أنهم كانوا جميعا شكاكا كذلك ، ينكرون الحقائق العقلية ، ويزورون عن العالم العقلى ، ولا يعترفون الا بالحقائق الحسية ، ولا يثبتون الا العالم الحسى ، بل ان منهم من كان يرى أن الانسان هو مقياس الاشياء ، فما يراه حقا فهو حق ، وما يراه باطلا فهو باطل ، وما لا يدركه الحس فهو غير موجود ، أو بعبارة أخرى من عبارات ابن سينا ، « أن مالا يناله الحس بجوهره ، ففرض وجوده محال » •

على أننا نرى من ناحية أخرى أنه اذا كان ثمة فريق من فلاسفة اليونان ، قد ميز بين ما هو روحى وما هو مادى ، فان هذا الفريق لم يكن يعنى البتة أن كلا من المادى والروحى انما هو جوهر مستقل فى ماهيته ووجوده عن الآخر : فعند أفلاطون مثلا نرى أن الاثنينية بين العالم الحسى والعالم العقلى لم تذهب بهذا الفيلسوف مذهبا يجعله ينكر معه العالم الحسى انكارا تاما ، أو لا يعترف معه بالصلة بين هذين العالمين •

وعلى هذا النحو كان الشأن فيما يتصل بالحياة الخلقية العملية ، فردية كانت هذه الحياة أو اجتماعية : فالعقل حين يقوم بتسيير سلوكنا وتوجيهه الى الوجهة المثلى ، فهو انما يأخذ نفسه بترتيب الميول الطبيعية وتنظيمها ، أكثر مما يعمل على كبح جماحها ، والتصدى لها ، بحيثيكون العقل فى حياة الفرد والجماعة هو الذى يروى ويفكر من ناحية ، وهو الذى يرتب ويدبر من ناحية أخرى ، وهو الذى يرى بعد هذا وذاك أن فى الدولة ، وفى التقاليد، وفى المبادىء التى تسيرها ، وفى القوانين التى تحكمها ، تكمن قوة الدولة ، ويتركز المصدر الأعلى الذى تصدر عنه كل الحقوق والواجبات ، أى كل ما للانسان وما عليه ، سواء فيما يتعلق بنفسه من حيث هو فرد ، أو فيما يتعلق بنفوس أشباهه ممن يحيا معهم ، ويتصل بهم ، ويعطيهم ويأخذ منهم • واذا كانت سلطة القانون المدنى قد تزعزعت الى حد ما عند بعض مفكرى اليونان ، فان هذا لا يعنى دائما أن هذا الفريق من المفكرين كان منطويا على سخط خفى من شأنه أن يجعل الاخلال بالنظام أمرا مشروعا ، وانما الدولة هى الدولة دائما ، وهى هى مصدر السلطات أبدا ، وهى المدبرة لكل شئون الحياة الفردية والاجتماعية ، والقيمة على الشعائر الدينية •

تلك هى الفلسفة اليونانية فى أعم صورها ، وأخص خصائصها ، وفى أشمل مذاهبها ومناهجها ، وأجمل وأروع أنظارها ونتائجها ، لا بد من أن نعترف معها بما كان لأصحابها فيها من فضل ، لم يكن مقصورا عليهم وحدهم ، بل تجاوزهم الى غيرهم فى الأجيال التى تعاقبت بعدهم ، وحسبهم أنهم هم الذين وضعوا الحجر الاساسى فى صرح الفكر المنهجى العلمى والفلسفى • ولقد انقضى عصر هذه الفلسفة اليونانية بما خلف فيه قادة الفكر من تراث غنى خصب كان للانسانية بمثابة المصباح الذى استضاءت به فيما

تلى العصور القديمة من عصور وسطى وعصور حديثة ، وما فتئت تستضىء به العقول المفكرة ، والقلوب الشاعرة ، فى تاريخنا المعاصر حتى وقتنا الحاضر •

٢ فلسفة العصور الوسطى

انقضى عصر الفلسفة اليونانية ، وجاءت العصور الوسطى ، واذا الناس قد خضعوا لظروف أخرى من ظروف الحياة ، واذا هم قد آمنوا بغير ما كان يؤمن به اليونان من عقائد وأديان ، فآمن بعضهم بالاسلام ، وآمن بعضهم الآخر بالمسيحية ، ووجد أولئك وهؤلاء الى جانب كتبهم السماوية وعقائدهم الدينية ، فلسفة نظرية وعملية ، خصبة وغنية ، هي تلك التى خلفها اليونان ، واذا الناس فى تلك العصور الوسطى يرون أنفسهم بين أمرين يتنازعان عقولهم وميولهم وعواطفهم : هم بين هذه الكتب السماوية والعقائد الدينية يؤمنون بها ، ويطمئنون اليها ، ويجدون فيها المثل الأعلى لتمثل الكون وتصوره ، ولتصوير هذا الكون وتفسيره من ناحية ، وبين تلك الكتب الفلسفية ، والمذاهب العقلية ، والقواعد المنطقية ، والأنظار الميتافيزيقية ، والنظريات العلمية والمبادىء الخلقية التى تركها اليونان من ناحية أخرى ، وبعبارة أوجز يمكن أن يقال ان الناس كانوا وقتئذ بين عاملين : عامل الايمان ، وعامل العقل •

وليس من شك فى أن فيما خلفه اليونان من ذلك التراث الخصب الفنى ، فلسفة رائعة فتانة مغرية ، فيها ما يغرى الناس بها ، وما يحببهم فيها ، وفيها أيضا ما ينقض الدين ، ويناقض

الايمان ، ويزعزع العقيدة ، ومن ثم فما كان أحرى برجال الدين وقادة الفكر من أهل العصـــور الوسطى أن يضيفوا بالفلسفة ، وينفروا منها ، ويزوروا عنها • ومع ذلك فقد استطاع فريق من هؤلاء القادة وأولئك الرجال أن يلتمس أوجها للتوفيق بين عقائد الاسلام والمسيحية ، وبين أنظار الفلسفة اليونانية ومناهجها • ومن هنا كان المجهود الذى تركزت فيه قوة الفكر الانسانى ابان العصور الوسطى ، موجها الى محاولة التوفيق بين العقل والايمان من ناحية ، والى اخضاع العقل للايمان من ناحية أخرى •

على أن تلك الحركة الفكرية التى كان قوامها التوفيق بين الفلسفة والدين ، واخضاع الفلســـفة للدين ، وذلك عن طريق استغلال الفلسفة اليونانية استغلالا يلائمعقائد الاسلام والمسيحية، لم تمض دون أن يصيب الفلســفة شىء غـــير قليـــل من الأذى والاضطهاد : فقد أوذى بعض فلاسفة المسلمين ، كما اضطهد بعض فلاسفة المسيحيين ، وأكبر الظن أن ايذاء أولئك ، واضطهاد هؤلاء لم يكن مصدرهما الا هذا الجهل وضيق الأفق والتعصب والتعسف، مما ســـيطر على بعض العقول فلم يفتح أمامهـــا الطريق الى فهم الفلسفة والدين فهما صحيحا مستقيما ، فضلا عن المنافع والمطامع والضغائن والأهواء التى تهيمن على بعض النفوس والعقول والضمائر فتفسدها ، وتجعل منها أشياء تضر ولا تنفع ، ولا تشفع لأصحابها ولا ترفع •

وها هنا ملاحظة لا بد منهـــا ، وهى أن ايذاء الفلاســـفة واضطهادهم لم يكونا من الظواهر التى ظهرت فى العصور الوسطى دون العصور السابقة عليها : ذلك بأنه كما اضطهد ابن رشد فى ظل الاسلام ، وكما اضطهد غير ابن رشد فى ظل المسيحية ، فقد اضطهد من قبل كل من سقراط حتى حكم عليه بالاعدام ، وأرسطو طاليس حتى اضطر الى الهرب ، وذلك فى ظل الوثنية • وها هنا

مرة أخرى ملاحظة أخرى وهى أن الفلسفة فى الوقت الذى توفق فيه الى اقامة مذاهبها على دعائم قوية ، والى اشـاعة مبادئها فى عقول الاغلبية حينا ، والأقلية حينا آخر ، وفى الوقت الذى تلقى فيه قبولا لها ، واقبالا عليها ، لدى هذه العقول أو تلك ، تراها قد صادفت نفوسا ضيقة ، وقلوبا مغلقة ، وعقولا جامدة ، كما ترى أن أصحاب هذه النفوس والقلوب والعقول التى كانت كذلك لم يتح لهم هذا الحظ من الفكر الحر ، والبحث المستقل ، والنظر البعيد عن مزالق الهوى ومواطن الشطط ، مما يهيىء لهم سبيل فهم الفلسفة على الوجه الذى ينبغى أن يفهموها عليه .

ومهما يكن من شيء ، فقد وفقت الفلسفة المدرسية فى هذا التوفيق الذى حاولت بين الفلسفة والدين ، وذلك حين أقبلت على دراسة أرسطو طاليس ، فاذا هى تجد عنده ما يرضى رغبتها ، ويشبع حاجتها : ففى مذهب المعلم الاول أصابت الفلسفة المدرسـية حظا كبيرا من الفلسفة الطبيعية للنفس الانسانية ، ومنه استمدت أصدق تصوير ، وأكمل تعبير عن هذا العقل العام الذى أخذت نفسـها بالتوفيق بينه وبين العقائد الدينية . ومع ذلك فنحن مضطرون الى أن نلاحظ أن بين عقائد الدين وبين مذهب أرسـطو طاليس خلافا قويا ، واذن فمن الغريب أن يعول المدرسيون هنا على مذهب لا يتفق وعقائدهم اتفاقا تاما ، ولكنهم كانوا من البراعة بحيث استطاعوا أن يفهموا مذهب أرسطو طاليس ، وأن يسيغوه ، وأن يصطنعوه ، ويستغلوه ، على الوجـه الذى أرادوا به الى التوفيـق بين الدين والفلسفة .

على أن فلسفة العصور الوسطى تختلف عن الفلسفة اليونانية من حيث طبيعة المبادىء التى أقيمت عليها ، ومن حيث حقيقـة الأفكار التى دعت اليها ، فضلا عن نوع الظروف التى أحاطت بها : فالمسيحية مثلا من حيث هى وحى دينى خالص لا أثر للجمال الفنى

فيه ، تشتمل على كل الأصول والمبادىء والحقائق التى تكفل للانسان السعادة والسلام • وها هى ذى بعض المذاهب الفلسفية للمدرسيين تنطق بحقارة الطبيعة ازاء العظمة الالهية ، وبخضوع العقل للوحى ، وباذعان الفكر الحـر لسلطة الدين ، وكل أولئـك مذاهب ألفتها واحتضنتها وغذتها فلسفة العصور الوسطى ، ثم قبلتها واعتنقتها وآمنت بها ، وتعصبت لها ، تعصبها للمسيحية وايمانها بها ، وينبغى ألا يفهم من هذا أن هذه الفلسفة المسيحية كانت كلها فلسفة جامدة لا أثر فيهـا للفكر الحر : فلقد كان الى جانب هـذه المذاهب التى أخضعت العقل للدين ، مذاهب أخرى قوامها فكر حر ، وفلسفة خالصة أو كالخالصة من قيود الدين ، غرضها التوفيق بينها وبين هذا الدين ، أكثر مما كانت تقصد الى اخضاع الفلسفة للدين • وفضلا عن هذا فقد كان هناك بعض المسائل الفلسفية البحتة التى درست دراسة فلسفية خالصة ظهر فيها الاستقلال عن الدين الى حد بعيد • ومهما يكن من أمر هذا الاستقلال فان الطابع الذى طبعت به فلسفة العصور الوسطى بصفة عامة ، والفلسفة المدرسية بصفة خاصة ، كان طابعا دينيا ، ان دل على شىء فانما يدل على أن قيادة الفكر الفلسفى كانت للدين أكثر مما كانت للعقل •

٣ الفلسفة الحديثة

لم يكد القرنان الخامس عشر والسادس عشر للميلاد يظلان الناس فى أوربا ، حتى كان الدين قد أسلم قيادة العقل الى العقل نفسه • وما هى الا أن استكشفت الكتب الفلسفية والعلمية والأدبية

لليونان والرومان ، كما استكشفت غيرها من الكتب التشريعية والسياسية والفنية ، لهاتين الأمتين الخالدتين ، والا أن عكف الناس على كل هذه الآثار ، فأوسعوها نقلا وشرحا وتحليلا ، وتعليقا وتفسيرا وتأويلا ، والا أن قرءوها وفهموها ، وأساغوها وهضموها ، وطبعوها وأذاعوها ، حتى انتشرت فيهم ، وشاعت بينهم ، وآتت ثمارها فيهم • واذا كان ذلك كذلك ، فقد نهضت الفلسفة ، وتقدمت العلوم ، وازدهرت الفنون ، وأشرقت الآداب ، وكان لابد لهذا كله من أن يعمل عمله ، ويؤتى أكله ، فى الفكر الانسانى بصفة عامة ، وفى الفكر الفلسفى بصفة خاصة ، كما كان هذا كله قواما لحركة الاحياء التى قامت بها النهضة الأوربية فى العصور الحديثة ، وذلك بما قصدت اليه من احياء القديم ، واخراجه للناس فى صور شائعة جذابة كان لها خطرها العظيم وأثرها البعيد فيما وصلت اليه الفلسفة وغير الفلسفة من نهوض وتقدم وازدهار واشراق ابان هذه العصور الحديثة •

وقد ترتب على هذا كله أن تطورت الحياة الفكرية ، وأن تغير معها وجه كل شيء ، وأن أصبحت الظروف الاجتماعية ، والأحوال الخاصة لحياة الفرد والجماعة فى العصور الحديثة غير ما كانت فى العصور الوسطى ، وفى العصور القديمة ، وأن استغلت النهضة الأوروبية هذا التراث الخالد الذى خلفه اليونان والرومان استغلالا خصبا منتجا فى حياة الفكر الأوروبى ، حتى اذا جاء القرن السابع عشر للميلاد كان كل شيء مما تركه اليونان والرومان قد درس وحلل ، وشرح وأول ، وطبع ونشر ، وحتى كانت فلسفة اليونان قد أذيعت بين الناس ، ففهموها وذهبوا فى فهمها مذاهب شتى ، فمنهم من ذاد عنها وتعصب لها ، ومنهم من ازور عنها وتعصب عليها ، واذن فقد أثرت وأثمرت فلسفة القدماء فى فلسفة المحدثين أثرا قويا ، وثمرا شهيا ، بحيث يمكن أن يقال ان الفلسفة الحديثة على ما فيها من جدة وطرافة وابتكار ، انما كانت على وجه ما ، والى

حد ما ، ثمرة يانعة رائعة من الثمرات اليانعة الرائعة الكثيرة التى أنتجتها وخلفتها ، أو غذتها ونمتها ، الفلسفة القديمة وفلسفة العصور الوسطى .

على أن الفلسفة الحديثة قد انتهجت لنفسها منهجا جديدا فى البحث عن حقيقة الكون وقيمة الكائنات ، ولكنها على الرغم من التجديد فى هذا المنهج ، وعلى الرغم من النتائج القيمة التى وفقت اليها أكثر مما وفقت الفلسفة القديمة ، فانها لم تكن قد خلصت خلاصا تاما من تأثير القديم الذى تبنت عناصره فى تضاعيف المناهج والمذاهب الحديثة . ومع ذلك فليس من الحق ، ولا من الانصاف ، أن نغلو كثيرا ، فى تقديم أثر القديم من المناهج والمذاهب الفلسفية، فى الحديث عن هذه المذاهب وتلك المناهج : فمما لا شك فيه أن قد اتسع نطاق المسائل الفلسفية فى العصر الحديث عما كان عليه فى العصر القديم . ومما لا شك فيه أيضا أن قد تنوعت هذه المسائل تنوعا مدهشا ، بحيث ترى أن الفلسفة قد اندست فى كل شىء ، وسيطرت على كل شىء ، وتقدمت لحل المعضلات فى كل فرع من فروع المعرفة الانسانية : فهى التى توجه العلم ، وتمده بالمنهج القديم الذى يعينه على كشف الحقيقة ، وهى التى توجه السياسة وتمدها بقواعد الحكم وأصوله ، وبأنواع الدولة ، وبأى هذه الأنواع يجب أن تأخذ الحكومات، وهى التى تفسر الحياة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية تفسيرا يكشف عن حقيقة النفس الانسانية وطبيعة الملكات النفسية على أنحاء مختلفة من البحث ، ومناهج متفاوتة فى طرق الدرس والتحليل والتعليل ، والفلسفة بعد هذا كله قد أثرت فى الأدب ، وفى مدارس الأدب المختلفة ، وفى مذاهب النقد المتعددة . ومعنى هذا كله أن العصر الحديث فى كل مجالاته ومقوماته ونزعاته هو عصر الفلسفة حقا ، وأن قادة الفكر الانسانى فى هذا العصر الحديث هم الفلاسفة الذين جلسوا على عرش الفكر ، وأصبح

اليهم أمر هذا الفكر ، بقدر ما أصبح لديهم القرن السابع عشر هو العصر الذهبي للفلسفة على الحقيقة •

٤ فلسفة ديكارت ومنهجه

لعلنا اذا أردنا أن نبين هنا الفرق بين فلسفة ديكارت وبين فلسفة كل من أفلاطون وأرسطو طاليس ، باعتبار أن هذين يمثلان الفلسفة القديمة ، على حين أن ذاك يمثل الفلسفة الحديثة ، وجدنا عند ديكارت نفسه مايغني ، ويكفى لاعطاء صورة حقيقية لما كانت عليه الفلسفة قديما ، ولما انتهت اليه حديثا ، وهاهو ذا ديكارت يحدثنا عن الفلسفة اليونانية فيقول : « ••• وأول وأكبر من وصلت الينا مؤلفاتهم هما أفلاطون وأرسطو ، ولم يكن بينهما من فرق سوى أن أفلاطون قد سار على آثار أستاذه سقراط ، فاعترف فى خلوص نية بأنه لم يهتد بعد الى شيء يقينى ، وأنه قد اكتفى بتحرير ما بدا له شيئا محتمل الصدق ، وتخيل لهذا الغرض بعض مبادىء حاول بواسطتها أن يفسر الأشياء الأخرى • أما أرسطو فكان أقل صراحة ، ومع أنه تتلمذ على أفلاطون عشرين سنة ولم يكن لديه مبادىء غير مبادىء أستاذه ، فقد غير طريقة عرضها تغييرا تاما ، وقدمها على أنها صحيحة ومؤكدة ، ولو أن الأرجح أنها لم تكن قط فى تقديره كذلك ••• والنزاع الكبير الذى نشب بين تلاميذهما انما كان مداره أن يتبينوا هل ينبغي أن توضع الأشياء كلها موضع الشك ، أم أن هناك أشياء يقينية ، وهو خلاف أفضى بالفريقين الى ضلال بعيد : لأن فريقا ممن ذهبوا الى الشك قد وسعوا نطاقه

وجعلوه يمتد الى أفعال الحياة ، بحيث أنهم أهملوا استعمال الحيطة والتبصر في سلوكهم . أما من ناصروا مذهب اليقين فقد افترضوا أنه يعتمد على الحواس ، فاطمأنوا اليها كل الاطمئنان ، حتى أنه يقال ان أبيقور بلغت به الجرأة في أقواله أن صرح ، خلافا لجميع استدلالات علماء الفلك ، بأن الشمس ليست أكبر حجما مما تبدو لنا .. لكن خطأ من مالوا كل الميل الى جانب الشك لم يجد من تابعه زمنا طويلا . أما خطأ الفريق الآخر فقد تيسر تصحيحه شيئا ما ، حين تبين أن الحواس تخدعنا في كثير من الأشياء . غير أني لا أحسب أن ذلك الخطأ قد زال زوالا تاما ، لأن أحدا لم يبين أن اليقين ليس في الحواس ، بل في الذهن وحده حين يكون لديه مدركات بديهية ، وأنه حين لا يكون لدينا الا معارف اكتسبناها عن طريق درجات الحكمة الأربع الأولى ، حينذاك لا ينبغي أن نشك في الأشياء التي تبدو لنا حقيقية اذا كانت متصلة بسلوكنا في الحياة ، ولكن لا ينبغي كذلك أن نعدها يقينية يقينا يمتنع معه أن نغير رأينا فيها اذا اضطرتنا الى ذلك بداهة من بداهات العقل . »
(ديكارت : مبادىء الفلسفة ، الترجمة العربية للدكتور عثمان أمين ، القاهرة : سنة ١٩٦٠ ، ص ٥٢ ـ ٥٦) .

ومن هنا نستطيع أن نتبين مع ديكارت أنه لا أفلاطون ولا أرسطو ، ولا الشكاك الذين وسعوا دائرة الشك حتى جعلوه يوغل في أفعال الحياة ، ولا الآخذون بمذهب اليقين حتى قصروه على الحواس ، وجعلوه محلا للاطمئنان ، قد أرضى أحد منهم ديكارت ارضاء يمكن أن يقال معه ان هاهنا عند هذا أو ذاك منهم يقينا بالمعنى الصحيح الذي يفهمه ديكارت ، وهو اليقين الذي لاشك فيه بحيث لا يمكن لأي شيء مريب أن يتسرب اليه ، ولا لأية شائبة من شوائب الغلط أو الخداع أن تخدعنا عنه ، أو أن تجد سبيلا الى تشويه معرفتنا له . واذا كان ذلك كذلك فقد ترتب عليه أنه ليس ثمة أحد بين الفلاسفة السابقين على ديكارت ، أو المعاصرين له ، قد

استطاع أن يصل الى مبدأ يقيني أو بديهي يمكن أن يتخذ منه نقطة بدء لاستنباط نتائج بديهية ، وذلك لأن الأمر هو كما يقول ديكارت : « ان جميع النتائج التى تستنبط من مبدأ ليس ببديهي لايمكن أن تكون بديهيه مهما يكن الاستنباط من حيث صورته صحيحا • ويترتب على هذا أن جميع الاستدلالات التى أقاموها على مثل تلك المبادىء لم تستطع أن تؤديهم الى المعرفه اليقينيه لشيء واحد ، ولم تستطع بالتالى أن تجعلهم يتقدمون خطوة واحدة فى البحث عن الحكمة » (مبادىء الفلسفه : ص ٥٩) •

واذا كان ذلك كذلك مرة أخرى فقد أورد ديكارت بعد ايضاح هذه الامور الادلة اللازمة لاثبات أن المبادىء التي تعيننا على الوصول الى مراتب الحكمة ، وهى قوام الخير الأسمى فى الحياة الانسانية ، هى المبادىء التى وضعها فى كتابه المعروف باسم (مبادىء الفلسفة) • وها هنا يكتفى ديكارت بايراد دليلين اثنين لاثبات صحة ما يذهب اليه : الدليل الاول هو أن هذه المبادىء واضحة جدا • ، والدليل الثاني هو أنه فى استطاعتنا أن نستنبط منها جميع الحقائق الاخرى (مبادىء الفلسفة : ص ٦٠) •

أما كيف أثبت ديكارت أن هذه المبادىء واضحة جدا ،فما أيسر ما كان ذلك عليه ، وما أظهر ما أبان به عنه ، وعن كل المبادىء والنتائج التى استنبطها منه ، وكان جماع هذا كله عنده هو قوام منهجه ومذهبه اللذين تتألف منهما فلسفته ، وذلك على الوجه الذى يظهرنا عليه فى قوله : « ومن الميسور لى أن أثبت أنها واضحة جدا: أولا ، بالاستناد الى النحو الذى وجدتها عليه ، أعنى باطراح جميع القضايا التى عرض لى فيها وجه من وجوه الشك ، اذ من المستيقن أن القضايا التى أنعمنا النظر فيها ، ووضعناها موضع الاختبار فلم نستطع اطراحها بعد ذلك ، هى اجلى وأوضح ما يستطيع الذهن الانساني أن يعرف • ونظرا الى أنى رأيت أن من يريد أن يشك فى كل شيء لايستطيع مع ذلك أن يشك فى وجوده حين يشك ، وأن

ما سبيله في الاستدلال هذا النحو من عدم استطاعته أن يشك في ذاته ولو كان يشك في كل ما سواه ، ليس هو ما نقول عنه انه بدننا بل ما نسميه روحنا أو فكرنا ـ بهذا الاعتبار أخذت كينونة هذا الفكر أو وجوده على أنه المبدأ الاول • ومن هذا المبدأ استنبطت بكل وضوح المبادىء التاليه : أعنى وجود اله هو صانع ما هو موجود فى هذا العالم • ولما كان الله تعالى منبع كل حقيقة، فانه لم يخلق الذهن الانسانى على فطرة تجعله يخطىء فى الحكم الذى يطلقه على الاشياء التى يتصورها تصورا واضحا جدا ومتميزا جدا • تلك هىَ المبادىء التى استعملتها فيما يتصل بالاشياء اللامادية أو الميتافيزيقية • ومن هذه المبادىء استنبطت استنباطا واضحا كل الوضوح ، مبادىء الاشياء الجسمانية أو الفيزيقية ، أعنى وجود الاجسام ممتدة طولا وعرضا وعمقا ، وذات أشكال مختلفة ، ومتحركة على أنحاء مختلفة • وهذه بالايجاز جميع المبادىء التى استنبطت منها حقيقة الاشياء الاخرى • والدليل الثانى على وضوح هذه المبادىء هو أن الناس عرفوها فى كل زمان وتلقوها جميعا على أنها مبادىء صحيحة ولا سبيل الى الشك فيها، ولا يستثنى منها الا وجود الله ، اذ وضعه بعضهم موضع الشك ، بسبب اسرافهم في الاعتداد بمدركات الحس ، وأنهم لايستطيعون أن يروا الله بأبصارهم ولا أن يلمسوه بأيديهم • ولكن على الرغم من أن جميع الحقائق التى أضعها بين مبادئى قد عرفها الناس جميعا في جميع الازمان ، غير أنى لا أعلم أن أحدا حتى الآن قد تبين انها هى مبادىء الفلسفة ، أى أنها من شأنها أن تستخلص منها المعرفة بجميع الأشياء التى فى العالم ، ولذلك يبقى على ها هنا أن أثبت أن هذا هو شأنها • ويبدو لى أن أفضل سبيل أستطيع به أن أثبت ذلك هو أن أبينه بالتجربة ، أى أن ادعو القراء الى قراءة هذا الكتاب • ، لأنى وان لم أكن قد تناولت فيه جميع الاشياء لاستحالة هذا الامر ، فأنى أحسب أنى قد فسرت جميع الاشياء التى عرضت

لها في مواضعها ، بحيث أن من يقرءونه بشيء من الانتباه سيكون لديهم ما يدعوهم الى الاعتقاد بأنه لاحاجة الى التماس مبادىء أخرى غير ما قررت للوصول الى أرفع معرفة أتيح للذهن الانسانى أن يبلغها • فاذا قرءوا مؤلفاتى أولا ، وحرصوا على ملاحظة تفسيرها للمسائل المختلفة ، واذا تصفحوا أيضا مؤلفات غيرى لرأوا قلة ما أولوا فيها من الادله المقبولة لتفسير تلك المسائل نفسها بمبادىء مخالفة لمبادئى • وأود أن أقول لهم كيما يتيسر لهم القيام بما أدعوهم اليه ، ان أولئك الذين ألفوا آرائى يلقون فى فهم مؤلفات غيرى ، وفى معرفة قيمتها الحقيقية عناء أقل بكثير مما يلقاه من لم يألفوا تلك الآراء • ، وهذا عكس ما قلت منذ قليل عمن بدءوا بدراسة الفلسفة القديمة ، من أنهم كلما زاد اشتغالهم بها قل فى الغالب استعدادهم لتعلم الفلسفة الحقة • » (مبادىء الفلسفة : ص ٦٠ ـ ٦٤) •

وهكذا يمضى ديكارت فى عرض مبادىء فلسفته الواضحة الجلية التى نتبين معه من خلالها أى منهج جديد فى البحث قد انتهج ، وأى مذهب طريف فى الفلسفة والكشف عن الحقيقة قد ذهب اليه ، وأى أثواب من التجديد فى بناء الفكر الانسانى واقامة صرحه قد أضفى ديكارت عليه، مما جعله فذا بين الفلاسفة، وجعل منهجه ومذهبه بدعا بين القديم والحديث من هذه المذاهب وتلك المناهج ، حتى لقد كان يشعر هو نفسه بمقدار ما بلغه فى فلسفته من درجات الحكمة ، وما وصل اليه فيها من مراتب الكمال ، وذلك على النحو الذى يحدثنا به فى مختتم رسالته التى بعث بها الى مترجم كتابه (مبادىء الفلسفة) من اللاتينية الى الفرنسية ، فاذا هو يقول : « ولكن أقول فى الختام انه اذا كان الاختلاف الذى سيرونه بين هذه المبادىء وبين مبادىء أى مذهب آخر ، والموكب الكبير من الحقائق التى يمكن أن تستخلص منها ، يجعلهم يعرفون أهمية الاستمرار فى بحث هذه الحقائق ، ومدى ما يستطيع أن يوصلنا

اليه من درجات الحكمة وكمال الحياة وغبطتها ، فانى مقتنع بأنه لن يوجد واحد لا يحاول أن يشغل نفسه بهذا البحث المفيد ، أو على الاقل لا يؤيد ولا يعاون بكل قواه أولئك الذين يهبون أنفسهم للمضى فى هذا السبيل موفقين • ان امنيتى أن يأتى يوم يشهد فيه خلفاؤنا هذه العقبى السعيدة • » مبادىء الفلسفة : ص ٨٣ـ٨٤) •

على أن ديكارت لم يقف عند هذا الحد من الابانة عن منهجه ومدى ارتباطه بمذهبه عندما يكون موضوع البحث عن مشكلات الميتافيزيقا فحسب ، وانما هو قد تجاوز الميتافيزيقا الى العلوم حيث يكون الموضوع موضوع بحث من تلك التى يبحث فيها عن الحقيقة فى العلوم ، فاذا هو يضع كتابا خاصا بالمنهج ، هو هذا الذى يسميه (مقال عن المنهج لاحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة فى العلوم) ، وجعل هذا المنهج مؤلفا من قواعد أربع يسلم بعضها الى بعض ، ويؤدى كلها الى كشف الحقيقة فى أى من العلوم لا فى الميتافيزيقا وحدها • والذى يعنينا هنا هو أن نقف معه عند قاعدته الأولى ، فهى الرئيسية بين قواعد المنهج جميعا كما أنها أفعل هذه القواعد فى مجال الميتافيزيقا بمقدار ما هى أدخل فى مجال العلم على اختلاف فروعه ، وكما أنها أدل قواعد المنهج الديكارتى على المنهج نفسه ، سواء فيما يعرض له من هذه الحقيقة أو تلك من حقائق الفلسفة والعلوم ، وحسبنا أن نورد هنا منطوق هذه القاعدة فى لغة صاحبها التى غير بها وجه الحقيقة فى العصر الحديث ، وتغير معه وجه كل شىء فى الفلسفة ، وفى العلم ، وفى كل شىء يتصل بالحضارة الانسانية من قريب أو من بعيد ابان هذا العصر الحديث ، فقد قال ديكارت : « ••• وكما أن كثرة القوانين كثيرا ما تهيىء المعاذير للنقائص ، بحيث تكون الدولة خيرا حكما ونظاما ، عندما لا يكون لديها من القوانين الا قليل جدا ، فتصبح هذه القوانين مراعاة بدقة كثيرة ، كذلك اعتقدت أنه بدلا من هذا العدد الكبير من المبادىء التى يتألف منها المنطق ، فالاربعة التالية

حسبي ، بشرط أن يكون عزمي على ألا أخل مرة واحدة بمراعاتها صادقا ودائما . الاولى الا أقبل شيئا ما على أنه حق ، مالم أعرف يقينا أنه كذلك : بمعنى أن أتجنب بعناية التهور ، والسبق الى الحكم قبل النظر ، والا أدخل في احكامي الا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز ، بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك . » (ديكارت : مقال عن المنهج ، هذه الطبقة ، القسم الثاني ،) .

هذا هو منهج ديكارت في أخص مبادئه ، وذلك هو مذهبه في ألصق عناصره ، وهما ـ بما هما عليه من اتخاذ الوضوح والجلاء ، وانتفاء الشك ، واتقاء الشبهة ، وحصول اليقين ، وتحصيل المعرفة اليقينية التي تنبع من ذات العارف بادىء ذي بدء ، لا من موضوع المعرفة بعد استدلالات قد تكون مقدماتها ظنية أو مشكوكا فيها ـ أسس للمعرفة اليقينية ، يمكن أن نخلص منهما الى أخص خصائص الفلسفة الحديثة كما جاءت على يد أبي الفلسفة الحديثة: ذلك بأن الفلسفة الحديثة ـ مفهومة على الوجه الديكارتي ، وفي ضوء المنهج والمذهب الديكارتيين ـ كانت من غير شك خليقة أن تبحث عن الشروط التي ينبغي أن تتوافر لدى العقل حتى تتحقق له المعرفة اليقينية الحقة ، كما كانت جديرة أن تمتحن قيمة الصلات الوثيقة ، والروابط الدقيقة ما بين الاشياء والمعاني ، أو ان شئت فقل بين الاشياء وبين حقائق الاشياء ، هذه الصلات والروابط التي كانت تنظر اليها الفلسفة القديمة وفلسفة العصور الوسطى ، على أنها يقينية : فالحس والعقل ، الجسم والنفس ، الطبيعة والأخلاق ، الفردية والجماعية ، العالم والاله ، كل أولئك مسائل تناولتها الفلسفة الحديثة بحثا دقيقا ، ودرسا عميقا ، وانتهت من درسها وبحثها الى اكتشاف حقيقتها ، واستخلاص الصلة التي توجد بينها وبين بعض من ناحية ، وبينها وبين الأشياء المدركة فيما بينها من ناحية ثانية ، وبينها وبين حقائق

هذه الأشياء المنطوية عليها من ناحية ثالثة • وعلى حين كانت فلسفة القدماء ترى أن نشاط الذات أو الشـــخص (Objet) ، وأن تمثل الشيء أو الموضوع ((Sujet)) وكأن أحدهمـــا يوجد في الآخر ، فقد رأت فلسفة المحدثين أن توغل في أعماق الذات، وتنفذ الى باطن الشخص ، لتكشف فيه شروط الحقيقة الواقعة ، وبالأحرى قل لنكشف فيه المبادىء السليمة القويمة التي يتولد منهـــا ادراك الحقيقة الأولى ، وبقية الحقائق الأخرى التى تتفرع على هذه الحقيقة الأولى ، وينبنى فهمها عليها • وفوق هذا كله فقد وفقت الفلسفة الحديثة بفضل ديكارت الى أن تضع منهجا فلسفيا دقيقا اصطنعه العلماء فانتهى بهم الى أحسن النتـــائج ، وأيقـــن المعـــارف ، واصطنعه الفلاسفة أنفسهم فوفقوا بفضـــله الى آكد وأوثق معـــرفة للحق والخير والجمال ، كمـــا وفقوا فى ظله الى أمن اليقين الذى أحسنوه ، ويحسبه معهم كل مصطنع لهـــذا المنهج عندما يريد أن يعرف حقيقة كل من النفس الانســـانية والذات الالهيـــة والطبيعة الكونية معرفة صحيحة صادقة ولا شك فيها •

فاذا كان ذلك كذلك، وكنا قد تبينا مع ديكارت طبيعة المبادىء التى أقام عليها فلسفته ، والحقائق التى أعمل فيهـــا منهجه ، فلعل من الخير أن نعرف ماذا كانت الفلسفة ومنهجها من العلوم والمناهج الأخرى عند مجدد الفلســـفة وأبيها فى العصر الحـــديث ؟ الحق أن ديكارت قد نظر الى الفلسفة ومنهجها نظرة كلية شاملة ، وذلك اذ جعلها لكل العـــلوم أشمل ، كما جعل منهجها فى أبواب كل العلوم أدخل • وليس أدل على ذلك من أنه عرف الفلســـفة بأنها دراســـة الحكمة ، والحـــكمة ليست مجرد الفطنة فى الأعمال ، بل هى المعرفة الكاملة بكل ما فى وسع الانسان معرفته بالاضافة الى تدبير حياته ، وصيانة صـــحته ، واستكشاف الفنون ، ولـــكى تكون هذه المعرفة كذلك فلابد من أن تكون مستنبطة من العلل الأولى • ومثل الفلسفة كمثل شجرة جذورها الميتافيزيقا، وجذعها العلم الطبيعى، وأغصانها

بقية العلوم ، وهـذه ترجع الى ثلاثة كبرى هى : الطب والميكانيكا والأخلاق العليا الكاملة التى تفترض معرفة تامة بالعلوم الأخرى ، والتى هى آخر مرتبة من مراتب الحكمة (مقدمة مبادىء الفلسفة) .
واذا كانت الفلسفة كذلك ، فهى نظرية من وجه ، وعملية من وجه آخر ، والعمل فيها هو الغرض الأسمى ، كما أن العقل فى الانسان هو أهم جزء فيه ، وكما أن الحكمة هى خيره الأعظم ، وكما أن للعمل غرضا هو ضمان رفاهة الانسان وسعادته فى هذه الحياة الدنيا ، بمد سلطانه على الطبيعة، واستخدام قواها لصالحه . وها هنا يلاحظ بادىء ذى بدء ان ديكارت لم يكن مجددا للفلسفه سواء فى تعريفها أو فى تقسيمها ، ولا مخالفا فى هذا أو ذاك لما قاله القدماء من قبل، سواء فى تلك النظرة الكلية الى الفلسفة ، أو فى ذلك الشمول العام الذى جعل منها أما للعلوم جميعا، أو أصلا لهذه العلوم التى هى منها بمثابة الفروع لهـا ، أو التطبيقات العملية عليها . أما التجـديد الحقيقى الذى استحدثه ديكارت فى الفلسفة فانه لم يكن فى تعريفها، ولا فى تقسيمها ، ولا فى النظرة الكلية الشاملة اليها . وانما كان فى تفصيل المسائل التى عرضت لهـا ، وفى تحليل المبـادىء التى قامت عليها ، وفى تحصيل النتـائج التى وصلت اليها ، وفى غير هذا كله من الأفكار والأنظار التى لايتسع مثل هذا التقديم لاحصائها واستقصائها ، وحسب القـارىء من هـذه الأنظار وتلك الأفـكار ما سيقع عليه منها فى هذا المقال عن المنهج الذى يكاد أن يكون الماما عاما بكل العناصر الرئيسية التى تتألف منها فلسفة ديكارت، فضلا عن القواعد الأساسية التى يشتمل عليها منهجه .
أما كيف كان ديكارت مجددا فى المنهج ، فذلك ما يمـكن أن نتبينه معه من خلال نظرته الى المنطقـة بصفة عامة ، والى القيـاس الأرسطاليسى والاستقراء التجريبى بصفة خاصة : فالمنطق يقف عند أفعال العقل ، يحللها تارة ، ويدل على مواطن الصدق والخطأ فيها تارة أخرى ، وديكارت وبيكون وأشباههما من المحدثين يرون أن

هذا التحليل عقيم ليس وراءه طائل ، ولا فيه غناء • والقياس الارسطاليسى وهو اله الاستنباط عندالمعلم الاول لايسمن ولايغنى من جوع ، لانه ليس الا طائفه متسلسله من الحدوس نمضى بحركة متصلة من حد الى حد ، وهنا يربط العقل بين حدود لم تكن علاقاتها واضحة بادىء ذي بدء ، وما يزال العقل ماضيا فى استنباطه حتى يبلغ من هذا الاستنباط غايته، وهنالك يرد المجهول الى المعلوم ، والمركب الى البسيط ، والغامض الى الواضح (قواعد تدبير العقل) •

والاستقراء كما يعرفه المناطقة والتجريبيون بصفة عامة ، انما يصل الى معارف متفرقه ، اذا اجتمع بعضها الى بعض ، وحشد بعضها مع بعض، وألف بين بعضها وبين بعض ماكان منها علم ملفق مهلهل ، ليس لليقين اليه من سبيل • ولا كهذا أو ذاك كان منهج ديكارت : ذلك بأن منهج ديكارت فى الفلسفة والعلم هو الحدس الذى يتناول المبادىء البسيطة ، ويستنبط من المبادىء قضايا جديدة • وهذا المنهج هو الذى يبين القواعد العملية التى يجب اتباعها لاحكام قيادة العقل فى اقامة العلم • والعلم عند فيلسوفنا استنباطى ، من حيث انه يضع المبادىء البسيطه الواضحه المتمايزة ، ويتدرج منها الى النتائج • ولعل أخص ما يمتاز به منهج ديكارت هو وضوح مبادئه ، ويقين نتائجه ، على نحو ما هو معروف فى الرياضيات التى تمضى من البسيط الواضح الى المركب الغامض بنظام محكم • واذا كان العقل واحدا ، وكانت الفلسفة جملة واحدة ، تؤلف علما كليا واحدا ، وكانت العلوم لا تتمايز فيما بينها بموضوعاتها ومناهجها، لأنها ثمرات هذا العقل الواحد ، فقد ترتب على ذلك أن يكون المنهج واحدا ، وأن يكون هذا المنهج الواحد هو المنهج الوحيد المشروع • الذى يصطنعه العقل الواحد فى العلم الواحد ، أو فى كل علم من العلوم الجزئية المتفردة التى اذا تآلفت نشأ من تآلفها هذا العلم الكلى الواحد الذى هو عند ديكارت عبارة عن دراسة الحكمة ، أو هو شجرة جذورها الميتافيزيقا ، وجذعها العلم الطبيعى ، وأغصانها

بقية العلوم ، وهو انما يعني به الفلسفة على حد تشبيهه لها ، وتعريفه بها ، فيما سبق أن اثبتناه آنفا .

على أن ديكارت لم يكن يقنع فى نتائجه باصطناعه لهذا المنهج الذى يمتاز بوضوح مبادئه ، ويقين نتائجه ، على نحو ما هو معروف في الرياضيات ، وانما هو قد اصطنع التجربة أيضا ، واشترك مع فرنسيس بيكون في الابانة عن عقم القياس الارسططاليسى ، ولهذا قد يتسرب الى بعض الأذهان أن ديكارت كان تجريبيا ، وأن مثله في هذا المنهج كان كمثل بيكون في (الأرغانون الجديد) ، والواقع أن ديكارت لم يكن كذلك : لأن التجربة عند ديكارت لم تكن هى الأداة الوحيدة للوصول الى النتائج القاطعة ، وانما كانت التجربة عنده وسيلة من الوسائل المختلفة التى كان يستعين بها الفيلسوف الفرنسى على تحقيق النتائج التى يصل اليها فى العلوم ، بحيث يتبين له بعد اجرائه لهذه التجربة أو تلك ، على هذا الشىء أو ذاك ، وجه الدقة فى تطبيق المنهج الذى اصطنع ، ووجه اليقين فى النتائج التى بها اقتنع ، حتى يصبح اليقين عنده شيئا لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه .

وهكذا كانت الفلسفة كل شىء فى العصور الحديثة .. ، وهكذا كان منهج ديكارت تجديدا حديثا لما كان عليه الفكر الانسانى قديما ، كما كان تحريرا حديثا مما كان يرسف فيه هذا الفكر الانسانى قديما من سلاسل وأغلال ، كانت فى كثير من الأحيان عائقة له عن الحرية والاستقلال . ، وهكذا تهيأ لديكارت أن يقيم الفكر الفلسفى والعلمى على دعائم أرسخ ، وأن يؤثل بناءه على وجه اشمخ ، حتى بلغ من رسوخه وشموخه ، أن أصبح ديكارت وكأنه يطل من علياء هذا الصرح الراسخ الشامخ ، ويشير الى غيره من الفلاسفة والعلماء وأهل الفن والأدباء ، والى غير أولئك وهؤلاء من المفكرين السياسيين والاجتماعيين ، ويدعوهم أن هلموا الى رحاب الوضوح والجلاء ، والى روض اليقين والضياء ، اليكم عن كل ماهو غامض مبهم ، وقاتم مظلم ،

وعليكم بكل ما هو واضح جلى ، وبين يقينى • وليس من شك فى أن ديكارت فى دعائه هذا ، وفى استجابة الناس له ، واتباعهم نهجه، قد بدد الشك باليقين ، وحطم باطل المبطلين ، ودعم حق المحقين ، واذا الحقائق فى الفلسفة والعلم ، وفى غير الفلسفة والعلم من مجالات الحياة والانسانية ، قد تكشفت واضحة جلية ، وبينة يقينية ، وتلك لعمرى هى أخص خصائص الفلسفة المنهجية الديكارتية ، التى تميزها أشد التميز من فلسفة العصور الوسطى والفلسفة اليونانية •

واذا كانت تلك هى أخص خصائص فلسفة ديكارت ومنهجه، وكان ديكارت بهذا المنهج وتلك الفلسفة قد طلع على الناس بهما فى القرن السابع عشر ، فكان مستحدثا للجديد ،ومحررا للفكر من ربقة القديم ، ومؤثرا فى كل وجه من أوجه الحياة المعاصرة له ، والتالية بعده ، فقد تبين اذن لم يعد القرن السابع عشر الذى ظهر فيه ديكارت بعبقريته وبراعته ، وبما استحدث من منهج ومذهب ، وبما عرض له من مسائل ، او بما خلف من كتب ورسائل ، عصرا ذهبيا للفلسفة الحديثة التى لم يقف ازدهارها عند هذا القرن السابع عشر فحسب ، وانما تجاوزه الى مابعده ، من قرون مازالت الانسانية المفكرة العاملة تنعم بظلالها الوارفة ، وقطوفها الدانية الى اليوم •• اما كيف كان ذلك كذلك ، فذلك ما نتبينه من خلال الحركات الفلسفية والعلمية والأدبية والفنية التى قامت لدى امم العالم المتحضر منذ عصر ديكارت الى عصرنا هذا : ففلسفة القرن السابع عشر من أوله الى آخره فى فرنسا وانجلترا والمانيا وايطاليا وهولندا ، انما كانت كلها فلسفة ديكارتية الى حد بعيد عند بعض الفلاسفة ، وديكارتية الى حدما عند بعضهم الآخر : فما لبرانش واسبينوزا وليبنتز وكثير غيرهم من فلاسفة القرن السابع عشر لم يكونوا الا ديكارتيين ، يتفاوتون فى ديكارتيتهم تطرفا أو اعتدالا ، وظهورا أو خفاء ، وتأييدا أو تفنيدا •

وكذلك كانت الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية فى

القـرن الثامن عشر مرآة صادقة تتجلى على صفحتها الآثار الباقية للفلسفة الديكارتية : ذلك بأن قيادة الفكر في كل نواحيه ، وقيادة الحياة الاجتماعية في كل مرافقها ، والتمهيد للحيـاة الديمقراطية الحرة في كل ثوراتها ، انما كان كل أولئك امره الى الفلاسفة الذين صـدروا كثيرا أو قليلا عن منابع ديكارتية • الحق انه لو لم يكن منهج ديكارت ومذهبه لما كانت فلسفة كانط النقدية التى انتهت الى كثير من القوة والدقة والكمال ، فيما عرضت له وتعمقت فيه من مسائل تتصل بأنظار العقل وافعال الاخلاق وأذواق الجمال • واذا كان كانط نفسه قد نقد ديكارت نقدا عنيفا في بعض الاحيان ،ورفيقا في بعض الأحيان الأخرى ، الا أنه كان على كل حال متأثرا بفلسفة ديكارت على أى من أوجه التأثر المباشر أو غير المباشر ، ناهيك بأن النقد الكانطى ، اذا حللته الى عناصره ، وأوغلت فيه الى بواطنه لا سيما فيما يتعلق بنظرية المعرفة ومصادرها ومراتبها وقيمها ، لم يسفر هذا كله في حقيقته الا عن صورة جديدة للشك الديكارتي الذى اتخذه ديكارت له منهجا يوصله الى اليقين ، كما اتخذ كانط من النقد منهجا يبصره بالمعرفة اليقينية التى تختلف في طبيعتها وقيمتها وخاصتيها الحسية والعقلية ، عن المعـرفة الظنية ، كمـــا يختلف الشك عند ديكارت عن اليقين الذى هو من غير شك أخص خصائص ، وأدل دلائل المعرفة اليقينية التى لا يكتنفها الغموض، ولا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها • واذن فأنت ترى أن شك الفيلسوف الفرنسى ونقد الفيلسوف الألمانى ، انما هما لغتان وان اختلفت احداهما عن الأخرى في ظاهر اللفظ والعبارة ، الا أنهما في حقيقتهما لغتان مترادفتان تعبر احداهما عما تعبر عنه الأخرى. بمعنى أنك اذا قلت ان ديكارت يشك فكأنك تقول ان كانط ينقد، وكل ما هنالك من فرق بين اللغتين هو أن لغة الشك الديكارتي كانت اللاتينية أو الفرنسـية ، كما أن لغة النقد الكانطى كانت الالمانية •

هذا من حيث أثر المنهج الديكارتى فى فلسفة القرن الثامن عشر ، أما كيف كانت الفلسفة الحديثة بصفة عامة ، وفلسفة ديكارت بصفة خاصة ، مؤثرة فى حياة الفكر فى كل نواحيه فى مسيرة للحياة الاجتماعية فى كل مرافقها ، فيكفى أن نشير هنا الى أن هذا المنهج الديكارتى فى الشك ، انما كان منهجا فى الفكر ، وطريقا الى تحرير هذا الفكر مما قيده من قيود حالت بينه وبين التفكير الحر والرأى المستقل عن الدين ابان العصور الوسطى .
واذا كان يقال منذ زمان بعيد ان جان جاك روسو ، وديدرو . ومونتسكيو ، وكلهم من الفلاسفة المرموقين ، هم الذين مهدوا بمؤلفاتهم وآرائهم سبيل الثورة الفرنسية التى حققت كثيرا من مبادىء الحرية والمساواة والاخاء ، والتى لم تؤثر فى فرنسا فحسب، وانما أثرت فى فرنسا ، وقلبت الحياة السياسية والاجتماعية للأفراد والجماعات رأسا على عقب ، فى غير فرنسا من الأمم الحديثة ، اذا كان يقال هذا كله ، ويردد دائما حتى لقد أصبح معروفا مألوفا منذ أمد طويل ، فمن الحق أيضا أن يقال ان البذور الأولى التى نبتت منها أشجار هذه الحرية الفكرية والسياسية فى العصور الحديثة ، يمكن أن تلتمس عند ديكارت فى منهجه ، وفى مذهبه ، وفى موقفه من الفلسفة المدرسية فى العصور الوسطى ، ومن الفلسفة اليونانية فى العصور القديمة ، ذلك بأن ديكارت قد جدد القديم وحرر الوسيط ، وتحرر هو من أغلال هذا وذاك ، وأخذ يفكر تفكيرا حرا لم يؤثر فيه وحده فحسب ، ولا تأثر به معه المعاصرون له فحسب ، ولا من جاء بعد معاصريه من فلاسفة القرنين التاسع عشر والعشرين فى أوروبا فحسب ، بل تأثرنا به نحن فى مصر المعاصرة ، وقد تجلت آية هذا التأثر تجليا واضحا وجريئا على يد أستاذنا الجليل عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ، وذلك عندما اصطنع منهج ديكارت الفلسفى العلمى فى دراسة مشكلة كبرى من مشكلات الأدب العربى ، وهى مشكلة الشعر

الجاهلى ، أصحيح هو فى نسبته الى أصحابه من الجاهليين الذين ترتبط أسماؤهم بقصائد هذا الشعر ، أم هو منحول عليهم ، معزو زورا اليهم ، اذ هو ليس من نظم الجاهليين فى شىء ، وانما هو من نظم الاسلاميين فى كل شىء ؟

وليس أدل على مبلغ اصطناع أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين ، لمنهج ديكارت فى الشك ، ومدى تأثره به فى قواعده ، لا سيما قاعدته الأولى التى تعرف بقاعدة اليقين والوضوح والتمايز والجلاء ، ليس أدل على هذا كله ، وعلى أن منهج ديكارت لم يؤثر فى الفلسفة والعلم والاجتماع والسياسة فحسب ، بل فى الآداب أيضا ، وفى دراسة الادب العربى بنوع خاص ، من قول أستاذنا نفسه ، حين يقول عن نفسه : « أحب أن أكون واضحا جليا ، وأن أقول للناس ما أريد أن أقول دون أن أضطرهم الى أن يتأولوا ويتمحلوا ويذهبوا مذاهب مختلفة فى النقد والتفسير والكشف عن الأغراض التى أرمى اليها • أريد أن أريح الناس من هذا اللون من ألوان التعب ، وأن أريح نفسى من الرد والدفع والمناقشة فيما لا يحتاج الى مناقشة • أريد أن أقول انى سأسلك فى هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة • أريد أن أصطنع فى الأدب هذا المنهج الفلسفى الذى استحدثه (ديكارت) للبحث عن حقائق الأشياء فى أول هذا العصر الحديث • والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هى أن يتجرد الباحث من كل شىء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوا تاما • والناس جميعا يعلمون أن هذا المنهج الذى سخط عليه أنصار القديم فى الدين والفلسفة يوم ظهر ، قد كان من أخصب المناهج وأقومها وأحسنها أثرا ، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديدا ، وأنه قد غير مذاهب الأدباء فى أدبهم ، والفنانين فى فنونهم ، وأنه هو الطابع الذى يمتاز به هذا العصر الحديث • فلنصطنع هذا المنهج حين نريد ان نتناول أدبنا

العربى القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء ، ولنستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل ، وخلصنا من كل هذه الأغلال الكثيرة الثقيلة التى تأخذ أيدينا وأرجلنا ورءوسنا فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة ، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة أيضا .. » (الدكتور طه حسين : فى الأدب الجاهلى ، القاهرة سنة ١٩٢٧ م ، ص ٦٦ - ٦٧) ، وحين يقول أيضا : « .. فأنت ترى أن منهج ديكارت هذا ليس خصبا فى العلم والفلسفة والأدب فحسب ، وانما هو خصب فى الأخلاق والحياة الاجتماعية أيضا . وأنت ترى أن الأخذ بهذا المنهج ليس حتما على الذين يدرسون العلم ويكتبون فيه وحدهم ، بل هو حتم على الذين يقرءون أيضا . وأنت ترى أنى غير مسرف حين أطلب منذ الآن الى الذين لا يستطيعون أن يبرءوا من القديم ويخلصوا من أغلال العواطف والأهواء حين يقرءون أو يكتبون فيه ألا يقرءوا هذه الفصول ، فلن تفيدهم قراءتها الا أن يكونوا أحرارا حقا » (فى الأدب الجاهلى ، ص ٦٩) .

٥ مقال ديكارت عن المنهج

لعلك قد أدركت من خلال ما قدمت بين يديك من معلومات ، أن ديكارت قد عرض لمنهجه فى الفلسفة والعلم فى أكثر من كتاب من كتبه الخصبة القيمة ، وها أنت قد رأيت أنه عرض لهذا المنهج فى (مبادىء الفلسفة) ، وفى (قواعد لتوجيه العقل) ، وفى (مقال فى المنهج لاجادة قيادة العقل ، والبحث عن الحقيقة فى العلوم ،

يليه البصريات والآثار العلوية والهندسة ، وهى تطبيقات لهذا المنهج) • وليس من شك فى ان أهم هذه الكتب جميعا ، وأجمعها للمعلومات التاريخية التى تتصل بحياة ديكارت وأطوارها الفكرية والعلمية ، واشملها للأفكار والأنظار الفلسفية والعلمية ، وأوضحها فى الابانة عن قواعد المنهج الديكارتى ، هو هذا الكتاب الذى يعرف باسم (المقال عن المنهج •••) •

على أن ديكارت لم يخرج مقاله عن المنهج اخراجا مباشرا ، ولا على الوجه الذى هو عليه الآن ، وانما هو قد أراد أن يقيم لنفسه مذهبا فى الفلسفة ، وأن يجعل لهذا المذهب منهجا لا يقف فى البحث عند حقائق هذه الفلسفة فحسب ، بل يتجاوزها الى حقائق العلوم جميعا ، وهى هذه العلوم التى سبقت الاشارة الى أنها تؤلف مع الفلسفة علما كليا واحدا ، وهذا يعنى أن ديكارت لم يكن يأخذ الفلسفة بمعناها النظرى العقلى الضيق ، وانما هو يأخذها على أوسع نطاقها ، وأشمل آفاقها ، فاذا هو يذيع فى سنة ١٦٣٧ أطرافا من علمه الطبيعى ، وذلك فى رسائل ثلاث قدم بين يديها بقصة يقص فيها أطوار حياته الفكرية والروحية والعملية ، كما يعطى صورة مجملة ، ولكنها متكاملة ، لمذهبه فى الفلسفة والعلم • واذا هو يجمع بين الرسائل الأربع فى كتاب جامع كان عنوانه بادىء ذى بدء مطولا على هذا الوجه : (مشروع علم كلى يرفع طبيعتنا الى أعلى كمالها ، يليه البصريات والآثار العلوية والهندسة ، حيث يفسر المؤلف أغرب ما استطاع اختياره من موضوعات تفسيرا يسهل فهمه حتى على الذين لم يتعلموا) ، ثم عدل وبدل فى هذا العنوان بحيث جعله هكذا : (مقال فى المنهج لاجادة قيادة العقل والبحث عن الحقيقة فى العلوم ، يليه البصريات والآثار العلوية والهندسة ، وهى تطبيقات لهذا المنهج) •

وبعد أن فرغ ديكارت من كتابه على هذا الوجه ، ومن اخراجه

تحت هذا العنوان ، عاد اليه مرة أخرى ، فاذا هو يعيد النظر فيما كان قد أجمله فيه من مسائل فيفصلها ، وما كان قد أورده من غوامض فيوضحها ، واذا هو يخرج من هذا الكتاب الواحد الموجز المركز الذى أجمل فيه عناصر مذهبه ومنهجه ، كتبا عدة تتناول تناولا مفصلا عناصر المذهب ومبادىء المنهج • فكان من ذلك ما كان من كتاب له يعرف باسم (تأملات فى الفلسفة الاولى ، وفيها البرهان على وجود الله وخلود النفس) • وبدا لديكارت بعد ذلك أن يعمد الى فلسفته وعلمه الطبيعى فيذيعهما على نطاق أوسع ، فاذا هو يشيع هذا العلم الطبيعى وتلك الفلسفة على يد كتاب مدرسى كتبه على صورة فقرات مركزة أو بنود موجزة ، ولكنها مع ذلك أوضح ما تكون عبارة ، وأبين ما تكون دلالة ، وهذا الكتاب الذى كان كذلك هو ما يعرف باسم (مبادىء الفلسفة) ، وقد كتب هذا الكتاب أول ما كتبه باللاتينية ونشر سنة ١٦٤٤ م ، ثم ترجم بعد ذلك الى الفرنسية ، ونشر سنة ١٦٤٧ م ، مع اهداء الى الاميرة اليزابث ، ورسالة الى المترجم ، عرض فيها ديكارت فلسفته عرضا عاما شاملا ، لا يكاد أن يترك صغيرة ولا كبيرة تتصل بمذهبه ومنهجه ، الا ألم بها ، وأوضح مشكلها ، وتدرج منها الى غيرها ، بحيث أعطانا صورة متكاملة لكل من مذهبه ومنهجه ، كما أبان لنا عن أوجه الفرق والخلاف بين فلسفته وبين الفلسفة القديمة •

على أن كتاب ديكارت الذى يعرف باسم (المقال عن المنهج) ، ليس هو كل ما كتبه هذا الفيلسوف عن منهجه ، وانما نحن واجدون له رسالة أخرى فى المنهج لم يتمها قط ، ويرجع تاريخ البدء فى كتابتها الى سنة ١٦٢٦ • ولعل هذه الرسالة بمثابة عرض أو بسط يكاد أن يكون تاما ومفصلا الى حد بعيد لمنهجه ، ومبينا لكثير من المعانى التى انطوت عليها قواعد هذا المنهج ، والمبادىء التى ركنت اليها ، وأقيمت عليها ، هذه القواعد ، وأعنى بتلك الرسالة

ما يعرف باسم (قواعد لتوجيه العقل) • ومهما يكن من شيء ، فلعل ديكارت أن يكون قد رأى أن هذه القواعد ليست مما يلائم كل العقول بقدر ما هى ملائمة لعقول طائفة خاصة من العلماء ، وهو يريد أن يستحدث فى الفلسفة والعلم منهجا عاما يلائم عقول الناس جميعا ، ولهذا أعرض عن نشر قواعده هذه لتوجيه العقل ، وفكر أكثر ما فكر فى تأليف كتاب آخر غير تلك الرسالة ، وهو مقاله عن المنهـــج مبينا فيه القواعد التى أثبت تطبيقها دقته فى النهج ، كما أثبت عرضه لها ، وابانته عنها ، براعته فى التأليف •

وديكارت فيما خلف من آثار ، قد اصطنع فى كتابة كتبه ورسائله وخطاباته لغتين : احداهما قديمة وهى اللاتينية ، والاخرى حديثة وهى الفرنسية • وكان من حظ (المقال عن المنهج) أن كتب بالفرنسية ، مثله فى هذا كمثل غيره من الرسائل التى تقترن به ، وتشترك معه ، فى أنها كتبت بهذه اللغة الحديثة ، على نحو مافعل ديكارت بعدة من رسائله مثل : (رسالة فى الانفعالات) و (رسالة فى الانسان) و (رسالة فى العالم أو فى الضوء) • أما مؤلفاته الاخرى ، وهى كثيرة فى عدتها ، ومنها : (التأملات) و (مبادىء الفلسفة) و (رسالة فى الموسيقى) و (الميكانيكا) و (قواعد توجيه العقل) ، وأكثر الشذرات التى خلفها ، وثلاثة أرباع خطاباته . فكل اولئك قد كتبه ديكارت باللاتينية • ولقـــد كان ديكارت من المهارة والبراعة فى الكتابة بالفرنسية واللاتينية ، حتى انه ليمكن القول بان السمو الذى عرف ديكارت كيف يصوغ فيه لأول مرة النثر الفرنسى فى اللغة الفلسفية ، ينبغى مع ذلك ألا يجعلنا ننكر عليه الخصائص الراسخة القوية لأسلوبه فى اللاتينية من دقة وضبط ، واحكام وشدة أسر ، وبأن النثر الفرنسى الذى كتب فيه كل من دوق دى لوين Duc de Luynes وكلير سلييه Clerselier ليبدو باهتا شاحبا ، لا يكاد يكون له لون ، اذا قيس بهذا الاسلوب

اللاتيني الذى صاغ فيه ديكارت أفكاره وأنظاره الفلسفية والعلمية ·
على أن ديكارت لم يكن يصدر عن هوى عندما كان يؤثر كتابة هذا الكتاب أو ذاك فى هذه اللغة أو تلك ، وذلك على حد ما كان يلاحظه باييه Baillet ، بل كان يصدر عن فكر وروية ، وعن التزام مبدأ معين حين كان ينشيء احدى رسائله بالفرنسـية ، وينشيء الاخرى باللاتينية : ذلك بأنه كان يؤثر الكتابة باللاتينية حينما كان يخاطب خاصة العلماء بصفة خاصة ، على نحو مافعل فى (التأملات) وفى (المبادىء) ، وكان يؤثر الكتابة بالفرنسية حينما كان يريد أن يخاطب السواد الأعظم من القراء ، على نحو ماهو الشأن فى (المقال عن المنهج) و (الرسالة فى الانفعالات) · ولقد أسعفته التجربة فوفـق فى ما أخرج فى اللغتين ، وفى ما وجـه الى القراء من الطبقتين ، فضـلا عن أن التجربة قـد أظهرته بصفة عامة على أن مصنفاته جميعا ينبغى أن تكتب فى هذه اللغة وفى تلك على السواء ، حتى يتهيأ لكل انسان أن يقف عليها (باييه : الكتاب الثامن ، الفصل الثالث) ، ومن هنا نرى أن ديكارت قد حرص أشد الحرص على أن تترجم مصنفاته اللاتينية الى الفرنسية ، وأن تترجم مصنفاته الفرنسية الى اللاتينيـة ·

وليس من شك في أن ديكارت حين كتب بالفرنسيه ، وحين كتب بهذه اللغة (المقال عن المنهج) بنوع خاص ، لم يؤد واجبه نحو لغة وطنه وقومه على وجه أقل مما كان للفلسفة عليه من حق ، بل الحق كل الحق أنه ليس ثمة أصالة وجزالة فى الألفاظ والعبارات التى اصطنعها فى التعبير عن الافكار يمكن أن يقال انهما أقل تمثلا فى الافكار نفسـها التى عبر عنها بتلك الالفاظ والعبارات ، مما فاضت به صفحات (المقال عن المنهج) · وحسبنا أن نشير هنا الى أن ألوان الجمـال الأخاذة التى تترقرق من حين الى حين فى نثر ديكارت ، والتى بدت زمانا وكأنها مرت وبلغت أجلهـا دون أن

يقدرها حق قدرها السواد الأعظم من مؤرخي الادب الفرنسي ، قد أثرت فأثارت أبرز النقاد المختلفين في القرنين السابع عشر والثامن عشر : فهاهو ذا بابيه Baillet قد قدر الخصائص الكبرى لأسلوب ديكارت تقديرا عظيما ، وهاهو ذا أيضا سوربيير Sorbière الذى لعله أقل تعصبا لديكارت من بابيه ، قد أباح لنفسه أن يقول عن (المقال عن المنهج) ان أسلوبه جميل في غير ماتناقض ، وانه لم يقرأ ما هو أكثر منه سحرا وقوة وتركيزا في لغته الفرنسية ، وذلك في كل ما كتبه ديكارت (خطابات ومقالات : ص ٦٩١) • ، وهاهو ذا فوق هذا وذاك داجيسو Daguesseau قد أعجب بديكارت كاتبا اعجابا يعدل اعجابه بديكارت فيلسوفا،حتى انه ليقول عنه : « ليس ثمة انسان البتة يستطيع أن يكون نسيجا أمعن في الهندسة ، وفي الوقت نفسه أشد عبقرية ، وأقوى يقينا ، فيما يتعلق بالافكار وبالصور وبالبراهين ، على نحو ما نجده عنده من غور فن البلغاء مرتبطا بفن علماء الهندسة والفلاسفة » • (الامر التكليفي الرابع لابنه) •

ومهما يكن في أسلوب ديكارت من غلبة الجفـــو والغلظة والهندسة عليه ، فما أكثر ما يترقرق فيه من حياة وألوان تتجلى في صور حية قوية • ، ومهما يكن من شيء أيضا فانه ينبغي لنا – على حد ما يقوله سانت بوف Sainte Beuve – أن نأخذ أنفسنا بالثناء على ديكارت ، من حيث انه كان يكتب على سجيته (تاريخ بور رويال : الكتاب ٦ ، الفصل ٥ ، ص ٧٠) • واذا كان هذا هو رأى ناقد ثقة متئد عدل كسانت بوف، فكذلك رأى فولتير Voltaire الفيلسوف الناقد اللاذع ، والكاتب الساخر ، لم يجد الى عبقرية ديكارت وطريقته في الفهم وأسلوبه في الكتابة مساغا الى السخرية به أو التهكم عليه ، مما يجعل لهذا الرأى أوجها من الطرافة والقيمة: فقد قال فولتير عن ديكارت : « لقد ولد ديكارت وله مخيلة مشرقة

قوية جعلت منه انسانا فريدا فى حياته الخاصة ، على نحو ما هو كذلك فى طريقة تعقله ، ولا يمكن لهذه المخيلة أن تستخفى حتى فى مصنفاته الفلسفية التى يرى فيهــا المرء فى كل لحظة موازنات بارعة رائعة » (خطاب ١٤ ، فى الانجليز) .

واذا كانت تلك هى آراء النقاد فى أسلوب ديكارت الفرنسى، وفيما لهذا الاسلوب من خصائص تتجلى حية مشرقة فى (المقال عن المنهج) بنوع خاص ، فهل نحن واجدون عند ديكارت نفسه وفى هذا المقال عن المنهج بعينه ، ما يصــح أن يكون تفسيرا أو تأييدا لأقوال النقاد الذين أعجبوا بنثر ديكارت من ناحية ، وقدروا هذا النثر بحيث أحلوه فى محـــله من النثر الادبى فى تاريخ الادب الفرنسى من ناحية أخرى ؟ .. الحق أننا واجدون عند ديكارت من هذا التفسير والتأييد لتلك الآراء ، ماله خطر وفيه غناء ، وذلك حيث يتحدث عن نفسه ، وعن موقفه من العلوم والفنون والآداب فيقول : « كنت عظيم التقدير للبــلاغة ، وكنت مولعا بالشعر ، ولكننى رأيت أن كليهما أقرب أن يكون من المواهب النفسية ، لا من ثمرات الدرس . والذين لهم الحجة البالغة ، الذين يرتبون أفكارهم على أحسن وجه ، كى يجعلوها جلية ومفهومة ، يقدرون دائما على الاقناع بما يرون ، ولو كانوا لا يتكلمون الا بكلام العــامة ، ولم يتعلموا قط علم الخطابة . والذين لهم الاخيلة الرائعة ، ويعرفون كيف يعبرون عنها بأحسن المجــازات وأحلى الاساليب ، هم خيرة الشعراء ، وان كان فن الشعر مجهولا لديهم » (مقال عن المنهج : القسم الأول ، ص) .

هذه المامة عامة بما (للمقال عن المنهج) من صورة ، وما لهذه الصورة من خصائص ، وقد بقى بعد ذلك أن نقف وقفتين مع هذا الكتاب القيم على ضآلته وقلة صفحاته : احداهما عند ما فيه من مادة لها أهمية فى عرض فلسفة ديكارت ، وبيان النظام المتبع فى

هذا العرض من ناحية ، والاخري عند ماله من أثر فى تطور الفلسفة الحديثة من ناحية أخرى :

فأما ماذا فيه من مادة لها أهمية فى عرض فلسفة ديكارت ، وبيان النظام المتبع فى هذا العرض ، فلعل أول ما يلاحظ هو أن هذا الكتاب على صآلته وايجازه قد اشتمل على كل العناصر التى تتألف منها فلسفة ديكارت كلها مركزة سائغة ، وجلية واضحة : ففى هذا الكتاب من مصنفات ديكارت الاولى ، نرى الفيلسوف قد تأمل فأطال التأمل ، وتدبر فأحسن التدبر ، فاذا هو يخلص من هذا التدبر ، وذلك التأمل ، الى أن يركز أفكار فلسفته وأنظارها، وقواعد منهجه ومبادئها ، على تفصيلاتها العدة ، فى هذه الصفحات القليلة ، واذا هو يعطى صورة رائعة لمنهجه فى البحث عن الحقيقة فى العلوم كلها ، ولمذهبه فى الطبيعة وفيما بعد الطبيعة ، ومن هنا كان لا بد للدارس الباحث فى فلسفة ديكارت ، الملتمس لما تشتمل عليه من عناصر ، وما تنطوى عليه هذه العناصر من أفكار ، وما تعرض له من دقائق ، وما تنتهى اليه من حقائق ، أن يتخذ سبيله الى هذا كله من (المقال عن المنهج) ، وذلك اذا أراد هذا الدارس الباحث أن يبسط فى أمانة واخلاص الاجزاء المختلفة التى تتألف منها فلسفة أبى الفلسفة الحديثة ، اذ تتسلسل هذه الاجزاء تسلسلا دقيقا ، وتترابط فيما بينها ترابطا وثيقا : ذلك بأن (المقال عن المنهج) انما هو من صرح الفلسفة الديكارتية بمثابة الاساس الذى يقوم عليه هذا الصرح ، فضلا عن أن النظام والترتيب والتبويب مما اتبعه المؤلف فى تأليف هذا الكتاب ، انما هو خير مرشد ، وأوضح نهج ، يمكن أن ينتهجه ، ويسترشد به ، مؤرخ الفلسفة عندما يتصدى لتأريخ حياة ديكارت الفكرية والمذهبية والعملية . ، وليس من شك فى أن الدارس الباحث فى فلسفة ديكارت ، معولا على (المقال عن المنهج) ، ومستعينا بما كتبه ديكارت

فى كتبه الاخرى وفى خطاباته ، سيجد فى هذا التراث الذى خلفه ذلك الفيلسوف ، كنزا ليست جواهره اللألاءة بأقل تألقا فى منهجه وفلسفته منها فى حياته وسيرته •

وأما ماذا للمقال عن المنهج من أثر فى تطور الفلسفة الحديثة بالقياس الى كل من فلسفة النهضة وفلسفة العصور الوسطى والفلسفة القديمة ، فليس من شك فى أن معرفة الحال التى كانت عليها الفلسفة قبل ديكارت ، والآثار التى خلفها الفلاسفة السابقون عليه ، والمعاصرون له ، واللاحقون به ، من شأنها أن تعين على معرفة القيمة التى لمؤسس الفلسفة الحديثة ، والاثر الذى تركه ، والتطور الذى أحدثه مقاله عن المنهج ، والتقدم الذى أحدثه هذا المنهج فى الفلسفة وفى العلم ، بل فى كل نواحى الفكر الانسانى ، كما تعين على تقوية عبقرية هذا الفيلسوف ، ووضعه فى موضعه من تاريخ ذلك الفكر الانسانى بصفة عامة ، ومن تاريخ الفلسفة والعلم بصفة خاصة • ولعل أدهش مايدهش له المتأمل المستقرىء لتاريخ الفكر الانسانى هو عندما يرى كيف خرج هذا النور المتألق الذى شع لأول مرة من (المقال عن المنهج) ، وكيف كان خروج هذا النور المتألق انسلاخا عن أحضان ظلمات القرن السادس عشر والعصور الوسطى التى كانت قبل ذلك : فها هنا يتساءل الانسان فيقول : كيف كانت فى الحقيقة حال الفلسفة فى مطلع القرن السابع عشر؟

الحق أن الفلسفة كانت وقتئذ ما تزال مسترقة لنير السلطة، ولم تكن لتستطيع أن تجرؤ على أن تصارع القدماء ، أو تخرج عليهم ، الا بالقدماء أنفسهم ، وانما كانت الفلسفة وقتئذ فى غمرة من نشوة الحرية التى استولت عليها دون أن يكون لها منهج ، ودون أن يكون ثمة لهذا المنهج من قواعد ، بقدر ما كانت مسترقة لأهواء المخيلة من ناحية ، ومجموع الشهوات من ناحية أخرى ، وللأحلام والأوهام التى كانت تغرق فيها ، وتتراءى لها على أنها

حقائق والواقع أنها ليست كذلك فى شىء : ذلك بأن الافكار الممعنة فى الاغراب والالغاز التى انطوت عليها الافلاطونية المحدثة والكبالية والصوفية ، والمذهب التجريبى بكل ما اصطبغ به من ألوان التطرف والاسراف ، ومذهب الشك الذى كان بمثابة النتيجة اللازمة عن المقدمات التى أسلمت اليه ، والذى امتد سلطانه حتى لقد سيطر على خير العقول ، كل أولئك صــور أخذتهــا الفلسفة فتمثلت فيها ، مساوقة لها ، أو متعاقبة عليها ، ابان السنوات الاولى من القرن السابع عشر ، وذلك قبل أن يظهر ديكارت ، وقبل أن يشع أول شعاع من ضياء مقاله عن المنهج ، وما تضمنه هذا المقال من أفكار المذهب • ويمكن أن يقال بعبارة أخرى ان صورة الفلسفة فى القرن السادس عشر كانت تتمثل فى طائفة من الفرسان الضالعين الذين كانوا يذهبون من جامعة الى جامعة ، ويكسرون السهام التى كانت تصوب الى أرسطوطاليس ، دون أن يكون لهؤلاء الفرسان مستقر فى الارض ، لأن تهمة الكفر والالحاد كانت تلاحقهم من مدينة الى مدينة • ولكى يشفوا غلتهم مما كانوا يحسون نحو الحقيقة من ظمأ محرق يكاد أن يهلكهم ، نراهم قد أغرقوا فى كل المصادر من غير ما تمييز : أغرقوا فى القديم ، فى الكبالية ، فى السحر ، فى صناعة الكيمياء (الصنعة Alchimic) ، فى أحلام مخيلتهم • ، ونراهم أيضا وقد دفعهم تهورهم الأرعن الى حيث زلت أقدامهم ، فاذا هم يقعون فى قبضة محـــاكم التفتيش والقضاة ، واذا هم يذوقون من العذاب ألوانا فيما أودعوه من سجون مظلمة رهيبة ، واذا هم يطلب اليهم أن يعــدلوا أو يبدلوا من موقفهم فيأبون أن يفعلوا ، الا أن يكون ذلك على وجه يشرفهم ، ويحفظ عليهم كرامتهم ، واذا هم يساقون أخيرا الى الاعدام على مشهد من الناس ، وهذا كله على نحو ما وقع لكل من راموس Ramus وجيوردانو برونو Giordano Bruno ، وكامبانلا Campanella ، وفانينى Vanini

ومهما يكن من رأى التجريبيين والشكاك في مذهبهم ، ومن أن هؤلاء كانوا يرون في شكهم تحريرا للفكر ، كما أن أولئك كانوا يرون في مذهبهم تجديدا للعلم ، الا أن الشيء الذى لا شك فيه هو أن الملاحدة قد زاد عددهم زيادة مخيفة حتى لقد بلغ هذا العدد نحوا من خمسين الف في باريس وحدها ، وفي الفترة التي سبقت مباشرة ظهور ديكارت وفلسفته • وهذا يعني بعبـــارة أخرى أن المذهب الالحادى من حيث هو نتيجة للمذهب التجريبي من ناحية ، ومن حيث هو ثمرة لمذهب الشك من ناحية أخرى ، قد كان له انصــار كثيرون في فرنسا ، بحيث ان قد تزعزع الايمان على ايدى كثير من رجال النهضة الاوربية من الصفوة المثقفة والعلماء والفلاســفة • واذا صـــح أن يقـــال عن المنهج التجريبي الذى اســـتحدثه فرنسيس بيكون ومهد له ، أو غذاه ونماه غير بيكون من فلاسفة النهضة وعلمائها ، انه أفاد العلم ، وأثمر في دراسة ظواهر الكون، الا أنه لا يصح أن يقال عن مذهب الشك الذى ذهب اليه مونتاني Montaigne ، وشارون Charron ، وجاساندى Gassandi ، انه قد أفاد الفكر ، أو ثبت العقيدة ، أو انه كان سبيلا الى تحرير الفكر والايمــان ممــا علق بأحدهما أو بكليهما من أوهام وأحلام ، ومن جهالات وضلالات : ذلك بأن انتشار مذهب الشك على طريقة هؤلاء قد أدى الى أن انهارت الفلسفة المدرسية ، ولم تصبح هناك فلسفة ميتافيزيقية الهـــية تقــوم على العقل ، وتؤدى الى اليقين ، وتثبت العقيدة في عقول المؤمنين ، ولا تتعارض مع تعاليم الدين • لقد ساد مذهب الشك حتى أصبحت مقـــالات مونتاني بمثابة كتاب الفروض في الصلوات الكنسية لدى النابهين من فضـــلاء القوم ، وأصبح من أجمل السمات أن يزدهى الانسان بالكفر ، وأن يضفى على عقله ثوبا من القوة التي يزعم لنفسه أنه يستمدها من شكه ، وذلك على نحو ما صوره مالبرانش في قوله : « ان المرء لا يعد رجلا

بارعا ذا نخوة مالم يشك في كل شيء » (البحث عن الحقيقة : فصل من مونتاني) .

وهكذا أسدل الشك سحب ظلمته على كثير من العقول فزلت، وتغيرت القيم الروحية والخلقية في نظر كثير من القلوب فضلت ، وأصبح أصحاب هذه القلوب ، وأرباب تلك العقول ، ممعنين في شكهم ، مسرفين على الحق والايمان واليقين وعلى أنفسهم ، حتى ظهر ديكارت ، وصور مقاله عن المنهج . وأقبل الناس على هذا الكتاب ، فاذا هم يقرءون فيه ما يبدد ظلمة الشك بنور اليقين . وما يرد الايمان الى قلوب المنحرفين وعقول المسرفين ، ويقر الخلق والدين على أساس من الحق المبين ، فضلا عما يقرءون من قواعد المنهج الذى جدد به ديكارت البحث في العلم وفي الفلسفة على وجه لم يوفق اليه أحد غيره من العلماء والفلاسفة السابقين والمعاصرين. وديكارت فيما كتب عن هذا كله ، وفي ما انتهى اليه من هذا كله ، لم يكن يصدر الا عن ذات نفسه وقلبه وعقله وضميره ، والا عما حيي فيه بملكاته هذه من حياة لا يقلد فيها غيره ، ولا يتأثر فيها برأى غيره ، ولا ينهج فيها نهجا سبقه اليه غيره ، وانما هي الحياة الفلسفية والعلمية والعملية التي ألقى بنفسه في بحارها ، وعرف بعقله كل أغوارها ، واسكتنه بقلبه كل أسرارها ، واستجلى بضميره كل أنوارها . فما يعرض هنا من قواعد ومبادىء . ومن أفكار وأنظار ، انما هو في الحقيقة معرض لصور تلك الحياة الخصبة التي حييها ديكارت ذائقا لها ، ومفكرا فيها . ومستيقنا منها ، ومطمئنا اليها ، وراضيا عن كل ما بلغه منها . وآية هذا كله ، هذه العبارات الرائعة التي تحدث فيها ديكارت عن نفسه ، والتي لروعتها أحب أن أسبق القارىء فأنبهه اليها ، وأضع يده عليها ، قبل أن يقرأها في متنها من هذه الترجمة العربية التي أقدمها .

فمن هذه العبارات الرائعة التي عبر فيها ديكارت عن هذه

المعانى قوله : « ... واذا كان عملى قد بلغ بى من الرضاء ماجعلنى أشهد لم هنا انموذجا منه ، فما كنت لهـذا أريد أن أنصح أحدا بتقليده . وربما كان للذين ميزهم الله فى تقسيم فضله مقاصد أسمى ، ولكننى أخاف كثيرا ألا يكون هذا العمل بالنسبة لكثيرين الا شططا فى الاقدام ، ليس مجرد العزم وحده على التخلص من كل الآراء التى اعتقد المرء بها من قبل ، مثـالا يجب على كل فرد أن يحتذيه ، ويكاد الناس بالنسبة لعقولهم ألا يكونوا الا صنفين وذلك لا يصلح فى شىء لكليهما .

هذان الصنفان هم أولاء الذين لاعتقـادهم فى أنفسهم من الحذق فوق مالهم لا يستطيعون أن يمنعوا أنفسـهم من التهور فى أحكامهم ، ولا يملكون من الصبر ما يستطيعون به سياسة أفكارهم كلها بنظام ، ومن ثم فانهم اذا اتخذوا حرية الشك فى المبادىء التى تلقوها ، والابتعاد عن الطريق العام ، فانهم لن يقدروا على ملازمة الصراط الذى يجب سلوكه للسير الأقوم ، وسيظلون فى ضلال كل حياتهم .

ثم آخرون أوتوا حظا من العقل ، أو من التواضع، كى يحكموا بأنهم أقل قدرة على تمييز الحق من الباطل من أناس يصلحون أن يكونوا لهم معلمين ، فهم أولى بأن يقنعوا باتباع آراء هؤلاء من أن يبحثوا بأنفسهم عما هو أحسن .

أما أنا فلقد كنت أكون بلا شك فى عداد هؤلاء الاخيرين لو لم يكن لى الا أستاذ واحد ، أو لم أكن عرفت الخلاف الذى كان فى كل زمان بين آراء أكبر العلماء .. » (المقال عن المنهج : القسم الثانى ، ص) .

ومن هذه العبارات الرائعة أيضا ، هذه الصيغة التى صاغ فيها المبدأ الاول من مبادىء منهجه ، وهو المبدأ الذى يكاد أن يكون

أساسا لكل فلسفة ديكارت فى كل نواحيها ، والذى يعبر عنه فيقول :

« الاول ألا أقبل شيئا ما على أنه حق ، مالم أعرف يقينا أنه كذلك بمعنى أن أتجنب بعناية التهور ، والسبق الى الحكم قبل النظر ، وألا أدخل فى أحكامى الا ما يتمثل أمام عقلى فى جلاء وتميز ، بحيث لا يكون لدى أى مجال لوضعه موضع الشك • » (المقال عن المنهج : القسم الثانى ، ص) •

وانظر بعد ذلك فيما يتحدث به ديكارت عن نفسه ، وقد وضع أفكاره موضع الشك باحثا عن اليقين ، لا مستمرا فى هذا الشك ولا مغرقا فيه كاللاأدريين ، ولكن واقفا به ، ومنتهيا منه ، عند حد اليقين ، وذلك حيث يقول : « وبعد أن استوثقت كذلك من هذه الحكم (ويعنى بها تلك القواعد التى وضعها للأخلاق وتشتمل على ثلاث حكم أو أربع أطلق عليها اسم الاخلاق المؤقتة) ، ووضعتها ناحية مع حقائق الايمان ، التى لها دائما المنزلة الاولى فى اعتقادى، حكمت بأن ما بقى من آرائى ، هو أن أعمل على التخلص منها • ولما كنت عظيم الامل فى أن أستطيع الانتهاء من ذلك بمحاضرة الناس على وجه أحسن ، مما لو ظللت محبوسا فى حجرتى التى وافتنى فيها كل تلك الافكار ، فقد أخذت فى السفر ولم ينته الشتاء بعد ، وفى السنوات التسع التالية كلها لم أصنع شيئا الا الطواف هنا وهناك فى العالم ، مجتهدا أن أكون فيه متفرجا لا ممثلا ، فى كل المهازل التى تمثل فيه • ولما كنت أخص تفكيرى فى كل شىء بما يمكن أن يجعله موضعا للشك ، ويكون سببا فى خطئنا ، فاننى انتزعت مع ذلك من عقلى كل الاخطاء التى استطاعت أن تتسرب اليه من قبل ، وما كنت فى ذلك مقلدا اللاأدرية الذين لا يشكون الا لكى يشكوا ، ويتكلفون أن يظلوا دائما حيارى ، فاننى على عكس ذلك ، كان كل مقصدى لا يرمى الا الى اليقين ،

والى أن أدع الارض الرخـــوة والرمل ، لـــكى أجد الصخر أو الصلصال ٠٠ » (المقال عن المنهج : القسم الثالث ، ص) ٠

وانظر كذلك فيما يتحدث به ديكارت عن أخلاق الناس ، وعن وضعه هذه الأخلاق موضع الشك ، كما وضع آراءه هو هذا الموضع من قبـــل ، وذلك حيث يقول : « فى الحق انى حينمـــا كان جهدى مقصورا على ملاحظة أخلاق الناس ، فانى لم أجد فيها موضعا ليقين ، ولحظت فيها من التباين نحو ما لحظتـــه من قبل فى آراء الفلاسفة ٠ وقد كان أكبر ما حصلته من فوائدها ،أننى لما رأيت أمورا كثيرة تبدو لنا من الشطط والسخرية ، ومع ذلك فان أمما عظيمة تجمع على قبولها والرضا عنها ، فاننى تعلمت ألا أعتقد اعتقادا جازما فى شىء ما بحكم التقليد أو العادة ٠ ، وكذلك تخلصت شيئا فشيئا من كثير من الأوهام التى تستطيع أن تخمد فينا النور الفطرى ، وتنقص من قدرتنا على التعقل ٠ ولكن بعد أن أنفقت بعض السنين فى الدرس على تلك الحال فى كتاب العالم ، وفى الاجتهـــاد فى تحصيل بعض التجربة فاننى عزمت فى بعض الأيام أن أبحث أيضا فى نفسى. وأن أصرف قواى العقلية كلها فى اختيار الطرق التى يجب أن أسلكها ، وقد لقيت فى هذا على ما يبدو لى نجاحا لم أكن لألقـــاه لو أننى لم أفارق قط بلادى ولا كتبى » ٠ (المقال عن المنهج : القسم الأول ، ص) ٠

وليس من شك بعـــد ما قدمت بين يديك من تلك النصـــوص الرائعة ، التى صاغها ديكارت صـــياغة بارعة ، فى أن ديكارت حين عبر عن الحكم الثلاث التى انطوت عليها قواعد أخلاقه المؤقتة ، انما كان من دقة التفكير ، وبراعة التعبير ، بحيث استطاع هنا أن يقدم لقارىء مقاله عن المنهج مرآة مجلوة صادقة لما أخذ به نفسه من قواعد السلوك فى حياته العملية الفردية والاجتماعية ، وهى هذه القواعد التى كان فى اتباعه لها ، وصوله الى أسعد حياة يقدر عليها ، وهى

هذه الحياة التى تحققت له فيها كل المعانى العليا التى سبقت الاشارة اليها ، وذلك على الوجه الذى يحدثنا فيه ديكارت عن نوع الحياة التى كان يحياها ، ونوع الضوابط التى كان يخضعها لها ، فيقول:
« ... ولكننى لا أحرم نفسى منذ الآن من أسعد حياة أقدر عليها ، فاننى وضعت لنفسى قواعد للأخلاق مؤقتة لا تشتمل الا على ثلاث حكم أو أربع أدلى اليكم بها :

الأولى أن أطيع قوانين بلادى وعوائدها، مع ثبات فى محافظتى على الديانة التى أنعم الله على بأن نشأت فيها منذ طفولتى . وأن أحكم نفسى فى كل أمر آخر ، تبعا لأكثر الآراء اعتدالا ، وأبعدها عن الافراط ، والتى أجمع على الرضاء بها فى العمل أعقل الذين سأعيش معهم : لأننى – لما بدأت منذ ذلك الحين ألا أقيم لآرائى الخاصة أى اعتبار وذلك لأنى أردت أن أختبرها جميعا – أيقنت أنه ليس فى استطاعتى أن أعمل خيرا من اتباعى لآراء أعقل الناس، ومع أنه ربما كان بين الفرس والصينيين من هم ذوو عقول كعقولنا ،فقد بدا لى أن الأنفع هو تدبير أمرى تبعا للذين أعيش معهم ، ولأجل أن أعرف ما هى حقيقة آرائهم ، كان واجبا على أن أعنى بما يعملون لا بما يقولون ، ليس السبب فى ذلك هو أن فساد أخلاقنا جعل قليلين يرضون أن يقولوا كل ما يعتقدون ، بل ولأن كثيرين يجهلون هم أنفسهم ما يعتقدون .

وكانت حكمتى الثانية أن أكون أكثر ما أستطيع جزما وتصميما فى أعمالى ، وألا يكون استمساكى بأشد الآراء عرضة للشك ، اذا ما صحت عزيمتى عليها ، أقل ثباتا مما لو كانت من أشد الآراء وضوحا ..

وكانت حكمتى الثالثة أن اجتهد دائما فى أن أغالب نفسى لا أن أغالب الحظ وأن أغير رغباتى لا أن أغير نظام العالم ، وبالجملة أن أتعود الاعتقاد بأننا لا نقدر الا على أفكارنا ، قدرة تامة ، بحيث

أننا اذا فعلنا خير ما نقدر عليه ، فيما يختص بالأمور الخارجة عنا ، فان كل ما ينقصنا بعد ذلك من أسباب النجاح ، هو بالنسبة الينا مستحيل على الاطلاق ، وهذا وحده فيما بدا لى ، كان كافيا لأن يصدنى عن الطمع فى المستقبل فى شىء لا أناله ، ولأن يجعلنى راضيا .. » (المقال عن المنهج : القسم الثالث ، ص) .

٦ المقال عن المنهج فى ترجمته العربية

فى عام ١٩٢٥ حولت الجامعة المصرية من جامعة أهلية الى جامعة حكومية ، وكنا وقتئذ سبعة من الطلاب قد التحقنا بالسنة الأولى من قسم الفلسفة بكلية الآداب بهذه الجامعة الحكومية التى كانت الهيئة القائمة على التدريس فيها من كبار الأساتذة الأجانب فى الجامعات الأوربية ، ولم يكن بين أعضاء هيئة التدريس هذه الا أستاذ مصرى واحد وهو أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين . فلم نكن نتلقى بطبيعة الحال محاضرات بالعربية الا محاضراته التى كانت فى الأدب العربى ، على حين كنا نتلقى محاضرات المواد الأخرى بلغات أصحابها من أساتذة باريس وبروكسل ولندن وغيرها ، فدرسنا الفلسفة فى أول عهدنا بالدراسة الجامعية فى السنة الأولى على يد أستاذ جليل القدر من أساتذة السوربون هو الأستاذ اميل بربيه ، ثم على تعاقب السنين الدراسية حتى آخر مرحلة الليسانس على أيدى الأساتذة الأجلاء لالاند وربى واسرتيبيه وروجييه وبواييه ، الا الفلسفة الاسلامية التى أبى أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين الا أن يقوم بتدريسها أستاذ مصرى مسلم تعمق

لها المغفور له أستاذنا الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق فى عام ١٩٢٧ ، كما كان قد عين من قبل فى عام ١٩٢٦ أستاذنا الجليل المغفور له الدكتور منصور فهمى أستاذا لعلم الأخلاق ، فكانت الفلسفة الاسلامية والأخلاق النظرية والعملية هما المادتين الوحيدتين اللتين تدرسان باللغة العربية من بين المواد الفلسفية جميعا ·

ولعل من أطرف ما أذكر أننا ونحن طلاب للفلسفة فى السنة الاولى لم نسمع عن ديكارت ، ولم نعرف شيئا من فلسفة ديكارت ومنهج ديكارت، من أستاذنا الفرنسى اميل بربييه الذى كان يحاضرنا وقتئذ فى تاريخ الفلسفة اليونانية ، وانما كان ذلك من أستاذنا الدكتور طه حسين ، وفى محاضراته عن الشعر الجاهلى ، وفى كتابه الذى كتبه بعد ذلك عن هذا الشعر الجاهلى ، وذلك حيث كان يحدثنا عن منهجه فى البحث ، وأنه آثر أن يكون هذا المنهج هو منهج ديكارت فى العلم وفى الفلسفة ، كما سبق أن أثبت هذا آنفا بصدد الحديث عن أثر منهج ديكارت ، لا فى الفلسفة والعلم فحسب ، ولكن فى الآداب والفنون أيضا ، ولا فى أوروبا وحدها فحسب ، ولكن فى مصر أيضا (أنظر ص من هذا التقديم) ·

على أننا لم تكد تمضى علينا سنة وسنة حتى أصبحنا طلابا متخصصين فى الفلسفة بالسنة الثالثة (عام ١٩٢٧ - ١٩٢٨) ، واذا نحن بين يدى أستاذنا لالاند الفيلسوف الفرنسى ، واذا هو يحاضرنا فى تاريخ الفلسفة الحديثة ، لا سيما فلسفة ديكارت وتلاميذه من فرنسيين وغير فرنسيين ، واذا هو يدرس معنا ، ويفسر لنا ، نصوصا مما خلف الفلاسفة المحدثون ، وكان فى مقدمة هذه النصوص وعلى رأسها نص لديكارت ، وآخر لليبنز ، وثالث لباركلى ، ولم يكن نص ديكارت الا (المقال عن المنهج) · ومن هنا عرفنا ديكارت على وجه أوسع ، ووقفنا على منهجه ومذهبه فى صورة أجمع ، بحيث تبينا لماذا آثر أستاذنا الدكتور طه حسين

منهج ديكارت باقباله عليه ، واعجابه به ، واصطناعه له ، فضلا عما بلغنا من الأعماق ، وما استوعبنا من التفاصيل ، التى لم يكن حديث الدكتور طه عنها الا لمناسبة دعت الحاجة الى الالمام بها ، والاشارة اليها ، والتطبيق على دراسة الشعر الجاهلى فى صورة جديدة ليس له سابق عهد بها .

وفى عام ١٩٢٩ تخرجنا نحن الطلاب السبعة من قسم الفلسفة والاجتماع بكلية الآداب بالجامعة المصرية ، وحصلنا على درجة الليسانس فى الآداب من هذا القسم ، وكان الزميل الصديق المرحوم الاستاذ محمود محمد الخضيرى أحدنا نحن السبعة من طلاب الفلسفة ؛ وكان رحمه الله من مطلع شبابه يأخذ سمت العلماء المحققين فى كل شيء يتصل بالبحث عن الحقيقة بحثا جديا ، كما كان قد توفر له من ادوات هذا البحث الجدى طائفة من اللغات القديمة والحديثة التى هيأته أحسن تهيئة لأن يكون مترجما مدققا ، ومعلقا محققا ، ومستوعبا مستعمقا ، فاذا هو يستغل ما أتاحه الله له من هذا كله استغلالا منتجا موفقا ، كانت ثمرته الناضجة هى هذه الترجمة العربية الأمينة لمقال ديكارت عن المنهج ، وهذه المقدمة الرصينة التى قدمها بين يديها ، وهذه التعليقات المستفيضة التى علق بها عليها وكل أولئك ان دل على شيء فانما يدل على أن الزميل الصديق رحمه الله قد اصطنع فى ترجمته هذه من الدقة اقصاها ، بحيث لم يدع صغيرة ولا كبيرة مما ورد فى النص الفرنسى الا احصاها ، واستقصاها ، والا عرض لها ، وانعم النظر فيها ، والا شرحها وعلق عليها ، ووازن بينها وبين ما يقابلها عند المتقدمين والمتأخرين ، من فلاسفة اليونان والمسيحيين والمسلمين ، فبلغ من هذا كله مبلغا حسبه ان جعله فى حياته العلمية والعملية محلا لاعجاب اساتذته وزملائه به ، وتقدير أولئك وهولاء له ، كما جعله بعد وفاته اهلا لرضا ربه عنه ، واسباغ رحمته عليه .

لها المغفور له أستاذنا الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق فى عام ١٩٢٧ ، كما كان قد عين من قبل فى عام ١٩٢٦ أستاذنا الجليل المغفور له الدكتور منصور فهمى أستاذا لعلم الأخلاق ، فكانت الفلسفة الاسلامية والأخلاق النظرية والعملية هما المادتين الوحيدتين اللتين تدرسان باللغة العربية من بين المواد الفلسفية جميعا .

ولعل من أطرف ما أذكر أننا ونحن طلاب للفلسفة فى السنة الاولى لم نسمع عن ديكارت ، ولم نعرف شيئا من فلسفة ديكارت ومنهج ديكارت، من أستاذنا الفرنسى اميل برييه الذى كان يحاضرنا وقتئذ فى تاريخ الفلسفة اليونانية ، وانما كان ذلك من أستاذنا الدكتور طه حسين ، وفى محاضراته عن الشعر الجاهلى ، وفى كتابه الذى كتبه بعد ذلك عن هذا الشعر الجاهلى ، وذلك حيث كان يحدثنا عن منهجه فى البحث ، وأنه آثر أن يكون هذا المنهج هو منهج ديكارت فى العلم وفى الفلسفة ، كما سبق أن أثبت هذا آنفا بصدد الحديث عن أثر منهج ديكارت ، لا فى الفلسفة والعلم فحسب ، ولكن فى الآداب والفنون أيضا ، ولا فى أوروبا وحدها فحسب ، ولكن فى مصر أيضا (أنظر ص من هذا التقديم) .

على أننا لم تكد تمضى علينا سنة وسنة حتى أصبحنا طلابا متخصصين فى الفلسفة بالسنة الثالثة (عام ١٩٢٧ — ١٩٢٨) ، واذا نحن بين يدى أستاذنا لالاند الفيلسوف الفرنسى ، واذا هو يحاضرنا فى تاريخ الفلسفة الحديثة ، لا سيما فلسفة ديكارت وتلاميذه من فرنسيين وغير فرنسيين ، واذا هو يدرس معنا ، ويفسر لنا ، نصوصا مما خلف الفلاسفة المحدثون ، وكان فى مقدمة هذه النصوص وعلى رأسها نص لديكارت ، وآخر لليبنز ، وثالث لباركلى ، ولم يكن نص ديكارت الا (المقال عن المنهج) . ومن هنا عرفنا ديكارت على وجه أوسع ، ووقفنا على منهجه ومذهبه فى صورة أجمع ، بحيث تبينا لماذا آثر أستاذنا الدكتور طه حسين

منهج ديكارت باقباله عليه ، واعجابه به ، واصطناعه له ، فضلا عما بلغنا من الأعماق ، وما استوعبنا من التفاصيل ، التى لم يكن حديث الدكتور طه عنها الا لمناسبة دعت الحاجة الى الالمام بها ، والاشارة اليها ، والتطبيق على دراسة الشعر الجاهلى فى صورة جديدة ليس له سابق عهد بها .

وفى عام ١٩٢٩ تخرجنا نحن الطلاب السبعة من قسم الفلسفة والاجتماع بكلية الآداب بالجامعة المصرية ، وحصلنا على درجة الليسانس فى الآداب من هذا القسم ، وكان الزميل الصديق المرحوم الاستاذ محمود محمد الخضيرى أحدنا نحن السبعة من طلاب الفلسفة ؛ وكان رحمه الله من مطلع شبابه يأخذ سمت العلماء المحققين فى كل شىء يتصل بالبحث عن الحقيقة بحثا جديا ، كما كان قد توفر له من ادوات هذا البحث الجدى طائفة من اللغات القديمة والحديثة التى هيأته أحسن تهيئة لأن يكون مترجما مدققا ، ومعلقا محققا ، ومستوعبا مستعمقا ، فاذا هو يستغل ما أتاحه الله له من هذا كله استغلالا منتجا موفقا ، كانت ثمرته الناضجة هى هذه الترجمة العربية الأمينة لمقال ديكارت عن المنهج ، وهذه المقدمة الرصينة التى قدمها بين يديها ، وهذه التعليقات المستفيضة التى علق بها عليها وكل أولئك ان دل على شىء فانما يدل على أن الزميل الصديق رحمه الله قد اصطنع فى ترجمته هذه من الدقة اقصاها ، بحيث لم يدع صغيرة ولا كبيرة مما ورد فى النص الفرنسى الا احصاها ، واستقصاها ، والا عرض لها ، وانعم النظر فيها ، والا شرحها وعلق عليها ، ووازن بينها وبين ما يقابلها عند المتقدمين والمتأخرين ، من فلاسفة اليونان والمسيحيين والمسلمين ، فبلغ من هذا كله مبلغا حسبه ان جعله فى حياته العلمية والعملية محلا لاعجاب اساتذته وزملائه به ، وتقدير أولئك وهولاء له ، كما جعله بعد وفاته اهلا لرضا ربه عنه ، واسباغ رحمته عليه .

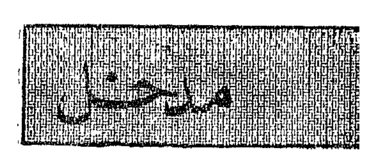
واذا كان ذلك كذلك ، وكنت مراجعا لهذه الترجمة العربية لمقال ديكارت عن المنهج ، وهى هذه الترجمة التى بها علينا زميلنا الصديق الراحل الاستاذ محمود الخضيرى ـ أحسن الله مثواه ـ منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما ، حين كان لايزال فى مستهل شبابه الغض ، وفى ابان حياته فى طلب العلم ، سواء فى مصر أو فى فرنسا ، فقد آثرت أن تظل هذه الترجمة على ما هى عليه من مادة الفها صاحبنا منها ، ومن صورة صاغها عليها ، بيحث تكون نموذجا لعمل علمى رائع ، قام به شاب عربى بارع ، كما رأيت ان أضيف اليها هذا التقديم الذى ضمنته بعض المعلومات التى تتصل بالفلسفة ومنهجها قديما وحديثا ، فلعل فى ذلك ما يلقى بعض الأضواء على بعض المسائل التى تتصل بموضوع (المقال عن المنهج) من قريب أو من بعيد .

وانا اذ أقدم اليوم هذا (المقال عن المنهج) الذى وضعه بالفرنسية فيلسوف عظيم هو رينيه ديكارت ، وترجمه الى العربية مترجم دقيق هو محمود محمد الخضيرى ، فانما أقدم الى قراء العربية بصفة عامة ، والى طلاب الفلسفة والعلم الباحثين عن الحقيقة بصفة خاصة ، كتابا من امهات الكتب الفلسفية ، عمل عمله ، وآتى أكله ، فى نواحى الحياة الانسانية كلها ، وذلك فى طبعته الجديدة هذه التى عنيت بها واصدرتها الدار المصرية للتأليف والترجمة بوزارة الثقافة ، محمودة مشكورة ، على ما تنهض به من احياء لتراث مضى مع الزمن ، ولكنه سيظل ابقى على الزمن الباقى من الزمن .

القاهرة ـ الروضة فى ٣ أبريل سنة ١٩٦٦

الدكتور محمد مصطفى حلمى

رينيه ديكارت



— ١ —

حياة ديكارت

من المستطاع أن تبسط نظريات علم مثل علم الطبيعة ، وأن يعترف فى هذا البسط لكل من اشترك فى تكوينها بما له من أثر، أو أن يهمل هذا الاعتراف ، بل وأن يعرض عن ذكر الشخص الذى جاء للعالم ببعض هذه النظريات ، دون أن يختلف فهم الناس لها ، ونظرهم فيها ؛ ولكن ليس من المستطاع أن نفهم النظريات الفلسفية فهما واضحا متميزا بدون أن نعرف موضعها من مذاهب القائلين بها ، ومن غير أن نلم بالتاريخ العقلى للذين اشتركوا فى تكوينها • والتاريخ العقلى لاى فيلسوف هو جزء من تاريخ حياته ؛ واذن فمن المفيد أن نستعين على فهم ديكارت بالوقوف على موجز لتاريخ حياته: وسنرى فى هذه الفذلكة التالية مبلغ تفرغه لتحقيق مقاصده ، وهى البحث عن منتهى ما يستطيع أن يصل اليه العقل من أشرف المعارف وأنفعها للانسان •

ولد رينيه ديكارت أبو الفلسفة الحديثة فى ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ ميلادية فى مدينة صغيرة اسمها لاهاى تقع على الشاطئ الايمن لنهر لاكريز Le Creuse وهو يصب فى نهير آخر يدعى فين Veinne يمد نهر اللوار أكبر أنهار فرنسا . ولاهاى من أعمال اقليم توران Touraine ، ولكن أصل أسرة الفيلسوف من اقليم بواتو ، واليه ينتسب عندما انتقل الى هولندا (١) .

وكانت أسرته من طبقة النبلاء المتوسطين ، اذ كان أبوه يواقيم ديكارت مستشارا فى برلمان اقليم بريتانيا ، وكان جده من جهة أبيه طبيبا ، أما جده من جهة أمه فقد كان حاكما لبواتيه .

وقضى الفيلسوف سن الطفولة فى لاهاى مسقط رأسه ، وعنيت بتربيته جدته اذ أن أمه ماتت بعد ولادته بنحو عام ، وانتقل أبوه مع ولديه شقيقى الفيلسوف الى بريتانيا . وفى سنة ١٦٠٤ ألحق بمدرسة لافلش La Fléche وهى مدرسة أسسها اليسوعيون سنة ١٦٠٣ وكان ملك فرنسا هنرى الرابع (٢) قد وهبهم دارا لها فأطلقوا عليها اسم المدرسة الملكية ، وعنى اليسوعيون بأمور التعليم فيها واختاروا لها خير الرؤساء والمدرسين ، حتى أصبحت ، كما يقول ديكارت « من أشهر مدارس أوربا » وانها خير مكان تعلم فيه الفلسفة (٣) .

---

(١) ذكر فى سجل جامعة ليدن الهولندية فى ٢٧ يونيه سنة ١٦٣٠ على الوجه التالى Renatus Descartes Picto 33 Math أى رينيه ديكارت أصله من بواتو عمره ٣٣ عاما ، رياضى . ويلاحظ أن عمره هنا يقل سنة عن عمره الحقيقى اذ أنه ولد فى ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ فيكون عمره اذ ذاك ٣٤ عاما وربع عام تقريبا . انظر شارل أدام حياة ديكارت وأعماله ١٨ ص ١٢٤ هامش حرف C

(٢) عاش من سنة ١٥٥٣ ـ سنة ١٦١٠ وتولى الملك سنة ١٥٨٩ واعترضته فتن لم ينته منها الا بعد عناء وصبر ، ولما استقر له الأمر نهض باصلاح أفاد مملكته وفى سنة ١٦١٠ اغتاله أحد المتعصبين ضده .

(٣) المقال عن المنهج ص ٧ من الترجمة التالية والتعليق فى ص ٧ و٨

وقد تلقى فيها علومه الاولى كما رتبها فى المقال عن المنهج فى صفحتى ٨ و ٩ بادئا بالقصص ومنتهيا بالبلاغة والشعر ، وفى السنوات الثلاث الاخيرة درس الفلسفة وكانت تنقسم الى أقسام ثلاثة المنطق والطبيعة وما بعد الطبيعة ، وكان علم الاخلاق يعلم مع المنطق والرياضيات مع الطبيعيات وكان أستاذه فى الفلسفة راهبا يدعى الاب فرانسوا فيرون François Véron وهو رجل صالح تقى بارع فى المناقشة والجدل ، أما أساتذته فى الرياضيات فقد كانوا على فضل وعلم ، وكان أحدهم يلقب باقليدس الجديد (١) وعرف فى المدرسة أنه كان متمسكا بالدين ، مخلصا للملك ، نابغا فى الرياضيات حتى لقد كان يعجز أساتذته بعض الاحايين .. وكان أحد مديرى الكلية يمت بالقرابة الى أسرة أمه فحاطه بالعناية .

وقد ذكر باييه فى كتابه عن حياة ديكارت أنه صنع وهو لا يزال فى الكلية منهجا للمناقشة الفلسفية شبيها بطريقة الرياضيين فى استدلالاتهم (٢)

وانتهى من الكلية سنة ١٦١٢ ، ولا يعرف على وجه التحقيق كيف أنفق السنوات السبع التالية بالتفصيل ، ولكن الذى لاشك فيه أنه نال شهادة البكالوريا والليسانس فى القانون الدينى

---

(١) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٢٣ و ٢٤

(٢) أنظر ص ٥ حيث يقول «ألفيت نفسى منذ الحداثة فى بعض الطرق التى قادتنى الى أنظار حكم ، ألفت منها منهجا ، به يبدو لى أن عندى وسيلة لزيادة معرفتى بالتدريج ، الخ » وانظر الهامش رقم ٣ فى نفس الصفحة وبابيه BAILLET المذكور هو صاحب كتاب حياة السيد ديكارت La Vie de Monsicur Descartes الصادر فى باريس سنة ١٦٩١ وهو كتاب غنى بالوثائق لايزال يرجع اليه الباحثون فى ديكارت ، وقد ولد باييه فى سنة ١٦٤٩ ومات سنة ١٧٠٦ كان راهبا واشتغل أمينا لمكتبة وله مؤلفات كثيرة أشهرها كتابه عن حياة ديكارت وكتاب حياة القديسين فى سبعة عشر مجلدا .

والمدنى من جامعة بواتيه فى ٩ و١٠ نوفمبر سنة ١٦١٦ (١) ومن المحتمل أنه درس قليلا من الطب أثناء اقامته فى بواتيه ٠

وبعد أن أتم دروسه على هذا الوجه ، وانتهى من الدور الذى يأخذ فيه العلم عن غيره ، وأصبح يثق أنه حر فى تفكيره وعمله ، وبعد أن وقف على العلم الذى كان يعلم فى المدارس ويحفظ فى الكتب ، ورأى أنه ليس العلم الذى تستطيع الانسانية أن تقنع به اذا بلغت رشدها ، صمم على أن يطلب علما أجل من ذلك العلم من مصادره الاولى وهى العقل والعالم ٠ وفى ذلك يقول فى **المقال عن المنهج** : « من أجل هذا فاننى ما كدت أن تسمح لى السن بالتحلل من ربقة معلمى حتى هجرت كل الهجر دراسة الآداب واذ صممت على ألا ألتمس علما الا ما اشتملت عليه نفسى ، أو ما كان فى الكتاب الكبير ، كتاب العالم ، فاننى أنفقت بقية شبابى فى السفر ، وأن اتصل بقصور وبجيوش وأغشى اناسا من مختلف الامزجة والدرجات ، وفى جمع التجارب المختلفة ، وأن أبتلى نفسى فيما ساق الى الحظ من مصادفات وأن أفكر أينما كنت فى الامور التى كانت تعرض لى تفكيرا يمكننى أن أستخلص منها فائدة الخ (٢)

ورأى أبوه ان يهيىء له مستقبلا حربيا ، فنصحه أن يتطوع فى جيش هولندا ، اذ أنه كان أتم جيوش أوربا نظاما بعد انتصاره على الاسبان واجلائه اياهم عن بلد ظلوا يحكمونه ويظلمون أهله زمنا طويلا ٠ وكان شبان أوربا من أبناء النبلاء يعتبرون هذا الجيش خير مدرسة حربية فكانوا يلتحقون به ويعدون عدتهم كلها على نفقاتهم ويستصحبون معهم تابعا على الاقل ليكون فى خدمتهم٠ وكان لديكارت من اليسار ما يمكنه من ذلك ، اذ أنه ورث عن أمه

---

(١) أنظر نص شهادة الجامعة فى كتاب أدام حياة ديكارت ص ٤٠ هامش حرف A

(٢) ص ١٤ ، ١٥ وانظر التعليقة رقم ١ ص ١٥

وجدته وبعض خالاته ثروة لا يستهان بها ، وقد جعلته يقول فيما بعد فى المقال عن المنهج (... لم أكن أشعر ، بفضل من الله ، أننى فى حالة تضطرنى الى ان أجعل من العلم صنعة » (١)

وفى أوائل سنة ١٦١٨ سافر الى هولندا وكان يدعى اذ ذاك سيد برون باسم ضيعة آلت اليه عن طريق الميراث (٢) . وقد ألهاه هذا الوسط الحربى عن شغفه بالعلوم ، على أن الصدف جمعته بطبيب هولندى اسمه اسحق بيكمن Beekman كان ينوى السفر الى فرنسا فارتاح الى ان يعرف شابا فرنسيا ذا مكانة . وكان بيكمن متبحرا فى كل أنواع العلوم والمعارف فائتلف الاثنان وتمكنت بينهما أسباب الصداقة ، وكان لبيكمن الفضل فى بعث ديكارت الى درس علم الطبيعة والرياضيات والبحث فى تأسيس روابط بينهما ، وكان له على العموم كما يكون المعلم أو الاخ الاكبر ، وقد اعترف ديكارت بماله عليه من فضل فقال «كنت نائما فأيقظتنى»(٣) . واليه أهدى فى ٣١ ديسمبر سنة ١٦١٨ أول كتبه **موجز فى الموسيقى** (٤) Musicae Compendium . وكانا يدرسان الرياضيات معا لكى يطبقاها على علم الطبيعة وكذلك كانا يدرسان علم الطبيعة لكى يرداه الى الرياضيات .

وغادر ديكارت هولندا فى ابريل سنة ١٦١٩ ثم ذهب الى ألمانيا وحضر تتويج القيصر فرديناند الثانى فى فرانكفورت فى ٩ سبتمبر سنة ١٦١٩ ثم ألجأه بدء الشتاء الى قرية لم يذكر اسمها ولكن المرجح أنها قرية بجوار أولم Ulm (٥) الواقعة على نهر

---

(١) ص ١٤

(٢) M. du Perron على نحو ما يدعى النبلاء باسماء أملاكهم

(٣) أعمال ديكارت ج ١٠ ص ١٥١ و ١٦٢ من مطبوعة أدام وتانرى

(٤) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٤٥

(٥) راجع كلامه فى مطلع القسم الثانى ص ١٨ والتعليقتين الاولى والثانية فى نفس الصفحة .

الدانوب ، وقد اعتزل هناك في حجرة دافئة كان يقضي فيها اليوم كله وحده ، منصرفا الى التفكير . وكانت أولم مشهورة بمن أنجبت من الرياضيين حتى لقد كان يقال في بعض جامعات ألمانيا « من أولم يأتي الرياضيون Ulmenses sunt Mathematici » (١) والمرجح أنه زار الرياضي المشهور فاولهابر .

وقد حدث في هذه الفترة حادث ذو شأن كبير في حياة الفيلسوف وقد أفرد له رسالة صغيرة سماها Olympica (٢) ومعناها عند اليونان الوطن الالهي الذي هو فوق وطن المعقولات وآلهة الشعر وفوق وطن المحسوسات والتجريبيات . ذلك أنه بعد استغراقه في التأمل والتفكير وجد في يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ قواعد علم يستحق الاعجاب وهو يسجل ذلك بقوله

« X novembris 1619, cum Plinus forem Enthousiasmo, et mirabilis, scientiae fundamenta reperirem »

ويقول بابيه بعد وصفه لعناء ديكارت في البحث عن طريق يؤدي الى الحقيقة حتى اهتدى الى « قواعد علم يستحق الاعجاب » ، « بلغ به التعب والاعياء ان كاد يشتعل مخه ، وقد أصابه نوع من الحماس والحمية سما به الى حيث يرى الرؤيا » (٣) ثم يقول بابيه ان الفيلسوف استسلم للنوم بعد تعبه في هذا الاستكشاف فرأى ثلاثة أحلام اعتقد أنها موحى بها من عند الله ، ولما استيقظ قرأ في مجموعة شعر كان يحتفظ به (٤)

Quod vitae sectabor iter ? أي سبيل من سبل الحياة تتبع؟

(١) شارل أدام الكتاب المذكور ١٨ ص ٤٧

(٢) أعمال ديكارت ج ١٠ ص ١٧٩ ـ ١٨٨ مطبوعة أدام وتانري

(٣) أي « في ١٠ نوفمبر ١٦١٩ وجدت وأنا ممتلىء حماسا قواعد علم يستحق الاعجاب » في المكان المذكور .

(٤) بابيه حياة المسيو ديكارت La Viede Monsieur Des-Cartes ج ١ ص ٥٠ ـ ٥١

والظاهر أن الفيلسوف قد أخذه شيء من التصـــوف على أثر استكشافه الكبير ؛ لان الرجل العظيم اذا قام بعمل جليل لم يسبق اليه ، وأبصر فى لحظة واحدة مدى ما وصل اليه وما يمكن ان يصل اليه عمله ، نسى نفسه وفنى فى ذات أكبر من ذاته ، وآمن أن الفضل فى نجاحه انما هو لله (١) ٠

ولكن أى استكشاف اهتدى له ديكارت فى ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ؟ لم يتفق الباحثون فى ديكارت على رأى واحد ؛ ذلك بأن الـكونت فوشـــــيه دى كارى Foucher de Careil ، وهو أول من نشر رسالة **أوليبكا** ، لا يشك فى أن المقصود بهذا الاستكشاف هو المنهج الديكارتى بأكمله (٢) ٠ والاستاذ مييـــــه Millet يقول بأن ديكارت استكشف فى يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ قواعد منهجه وهندســـته التحليلية (٣) ٠ وكذلك الاســـتاذ كينوفنشر يقــو بأن ديكارت استكشف فى نيوبرج (٤) فى هذا التاريخ منهجه وقواعد فلسفته (٥) ٠ والاستاذ ليار Liard يرى أن ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ هو تاريخ استكشاف ديكارت لمنهجه (٦) ٠ والاستاذ هملان يذهب هذا المذهب ويقول : ان الذى اهتدى اليه ديكارت فى هذا التاريخ هو هندسته التحليلية باعتبارها وجها من وجوه منهجه

---

(١) شارل **أدام حياة ديكارت** ١٨ ص ٤٩ و ٥٠ وميلو **أزمة صـــوفية عند ديكارت** سنة **١٦١٩** والتعليق فى ص ١٧ و ١٨

(٢) أعمال ديكارت غير المطبوعة المقدمة والمدخل ٠

(٣) تاريخ ديكارت قبل سنة ١٦٣٧ Histoire de Descartes avant 1637 ص ٧٤ باريس سنة ١٨٦٧

(٤) ذلك لأن الاستاذ فيشر يرى أن عزلة ديكارت الحقيقية كانت فى نيوبرج وهى بالقرب من أولم حياة ديكارت وعمله ومذهبه ١٠ ص ١٧٥

(٥) الكتاب المذكور ١٠ ص ١٨١ وما بعدها

(٦) ديكارت ص ١٠٧

العام (١) • ولا يختلف عن ذلك رأى الأستاذ ينجمن (٢) •

أما الاستاذ أدام فهو لا يجارى هؤلاء العلماء ؛ ويقول : ان هذا النص « فى يوم ١٠ نوفمبر ١٦١٩ وجدت وأنا ممتلىء حماسا قواعد علم يستحق الاعجاب » لا يفيدنا فى تحديد هذا العلم ، واذن فلا سبيل لنا الى معرفته الا مجرد الظنون ، اذ أن ديكارت اهتدى حوالى هذا التاريخ الى علوم كثيرة تستحق الاعجاب ، وهى :الرياضة العامة ، واصلاح الجبر ، والتعبير عن المقادير بخطوط ، وعن الخطوط برموز جبرية (٣) واذن فنحن فى حيرة فى اختيار أحدها والجزم بأنه مقصود ديكارت (٢) •

والاستاذ ميلو يتفق مع الاستاذ أدام فى الخروج على رأى الكثرة وله رأى خاص به ؛ ذلك بأنه يذهب الى أن يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ليس تاريخ استكشاف المنهج ، أو اصلاح الجبر ، أو الاهتداء الى الهندسة التحليلية ، أو تاريخ غيرها من تجديدات ديكارت العلمية ، وانما هو يوم وصل فيه الى حالة صوفية سامية، فرأى **رؤيا** « ليس للنفس الانسانية فيها أى نصيب » كما يقول ديكارت نفسه ، ويرى الاستاذ ميلو أن الاولى تفسير هذه الرؤيا مع ما عقبها من أحلام بأن الفيلسوف سمع صوتا الهيا يأمره «انهض وأقم هيكل العلوم جميعها بنفسك ، واحذ فى هذا حذو الشعراء ، وخذ بما تلهم كما يأخذون بما يلهمون ، واعرض عن تعليم الكتب ؛ اذ سوف تنمو بذور العلوم الموجودة فى نفسك من تلقاء ذاتها ، ولسوف تهدى الى الانسانية العلم العام الذى يسع كل شىء » •

---

(١) مذهب ديكارت ٣ ص ٤٤

(٢) ينجمن JUNGMANN رينيه ديكارت ١٦ ص ٢ ، وهو يقول أيضا ان الاستكشاف كان فى نيوبرج

(٣) أى الهندسة التحليلية راجع المقال المنهج ص ٣٣ ـ ٣٥

(٤) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٤٩ الى ٥٥

وينتقد الاستاذ ميلو التأويل المشـهور لنص **الاولمبيكا** ، ورأيه أن ديكارت اهتدى فى يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ الى ان ينحو فى حيـاته العقليـة نحوا جديدا « أى طرق الحيـاة تتبع ؟ Quod vitae sectabor iter ? وذلك بأن يعرض عن تحصـيل علوم السابقين ومعرفة مقالات المتقدمين وان يقتصر على البحث عن العلم الذى تشتمل عليه نفسه ، وألا يستفيد الا من الكتاب الكبير، كتاب العالم (١) ٠

ولكننا رأينا أن ديكارت هجر دراسة الآداب كل الهجر وعزم على ألا يلتمس من العلم الا ما اشتملت عليه نفسه وصمم على أن ينفق بقية حياته فى السفر وجمع التجارب فى سنة ١٦١٦ أى بعد انتهائه من جامعة بواتييه مباشرة (٢) وقبل أن يبدأ السفر فى سنة ١٦١٨ ، أما نص **الاولمبيكا** فقد كتبه فى منعزله بألمانيا فى ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ كما ورد فى مطلع النص ٠ واذن فنحن نرى أن قول الاستاذ ميلو ليس من القوة بحيث يجوز لنا قبوله والاخذ به ، ولا يسعنا الا أن نأخذ برأى الكثرة ، أى أن ديكارت استكشف منهجه فى ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ، وليس هذا لمجرد قول الكثرة به ، اذ أن ديكارت نفسه يقول انه أرجح ان يجد الحقيقة شخص واحد من ان تجدها أمة بأسرها ، لاننا نرى أن كل ما استكشفه ديكارت فى العلوم انما يقوم على أساس منهجه ، وليس لديكارت الا منهج واحد هو قواعد كل العلوم ، وهى قواعد تستحق كل اعجاب ٠

وفى اليوم التالى نذر ان يحج الى كنيسة العذراء فى لورت ــ Notre Dame de Lorette حمـدا لله على أن وفقـه لهـذا الاستكشاف ، وان يسعى اليها من البندقية سيرا على قدميه ، وكان

---

(١) ميلو أزمة صوفية عند ديكارت فى سنة ١٦١٩ (٩)

(٢) المقال عن المنهج ص ١٤ و ١٥ انظر التعليقة رقم ١ ص ١٥ والمقدمة صفحة ز

يريد أن يفى بهذا النذر قبل انتهاء شهر نوفمبر ولكنه لم يف به الا بعد خمس سنين (١) ٠

وغادر منعزله الذى وافته فيه قواعد فلسفته قبيل ان ينتهى الشتاء أى فى سنة ١٦٢٠ وقضى التسع السنوات التالية فى السفر هنا وهناك فى العالم مجتهدا ان يكون فيه متفرجا لا ممثلا فى كل المهازل التى تمثل فيه (٢) ٠ وقد باع أملاكه فى بواتيه التى ورثها من جهة أمه فى سنة ١٦٢٣ ويظهر من ذلك أنه كان قد صمم رأيه على ألا يستقر فى وطنه (٣) ٠ وذهب الى ايطاليا وطاف فيها وحج الى لوريت سنة ١٦٢٤ موفيا بنذره القديم وحضر احتفالا دينيا كبيرا فى رومة فى السنة التالية وبعد عدة أسفار فى ايطاليا عاد الى وطنه وفكر أبوه فى أن يوطد له مركزا فى فرنسا فعرض عليه ان يشترى وظيفة حاكم عسكرى Lieutenant général فأبى الفيلسوف ، ونصحه بالزواج ولكنه لم يتزوج لانه رأى استحالة العثور على ضالته بين النساء ثم لانه كان يفضل جمال الحقيقة على الجمال الانسانى (٤) وقد ذكر باييه أن أقارب ديكارت أرادوا ان يزوجوه بفتاة من أسرة طيبة وعلى كثير من الجمال ، وكانت هذه الفتاة تجتمع مع الفيلسوف فى أحايين كثيرة وقد روت فيما بعد أن ديكارت كان يؤثر الفلسفة على كل جمال وأن كل ما قاله لها من العبارات التى يعتاد الشبان على قولها للفتيات اللاتى سيصبحن لهم زوجات انه لم يجد قط جمالا من المستطاع مقارنته بجمال الحقيقة (٥) ٠

---

(١) انظر كينوفشر حياة ديكارت وعمله ومذهبه ١٠ ص ١٨٣

(٢) المقال عن المنهج ص ٤٥

(٣) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٦٣

(٤) نفس الكتاب ١٨ ص ٦٩ و ٧٠

(٥) حياة المسيو ديكارت ج ٢ ص ٥٠١ مقتبس فى أدام الكتاب المذكور ١٨ ص ٧٠ تعليقة حرف ب

وكان وهو فى فرنسا يؤثر العزلة فى الاقاليم واذا ذهب الى باريس أخفى نفسه عن أصحابه واعتزل ليفرغ للقراءة والتفكير والكتابة وروى بايية أن أحد أقاربه استدعاه ليقضى عنده زمنا فى باريس ، وكانت شهرة ديكارت قد بدأت تذيع فى الاندية ، فأصبح بيت مضيفه كأنه ناد علمى زاخر بالرواد ، ولم يطق الفيلسوف صبرا على هذا ، وهو الذى يؤثر الراحة والعزلة على كل شيء ؛ فاختفى فجأة ولم يعلم أحد شيئا من أمره ، وقلق مضيفه غاية القلق ، واتفق ان عثر بعد زمن غير قصير على خادم الفيلسوف، فسأله عن مقر سيدة فأفاده بعد تردد •

ثم قضى فى باريس أعواما ثلاثة من سنة ١٦٢٦ ـ ١٦٢٨، وكان فيها كسائر شباب النبلاء يلهو ويغشى الاندية والمجتمعات ويكثر من قراءة القصص والاشعار •

وكان الالحاد ذائعا فى فرنسا ذلك العهد وكان للشعراء الملحدين الاباحيين حظوة عند الشباب وشهرة بين جمهور القراء والمتأدبين ، ولم يكن ما يلقاه الملحدون من علماء الدين ومن البرلمان من أنواع المقاومة العنيفة وألوان التعذيب الا ليزيد الناس تعلقابهم وتوفرا على قراءة آثارهم • ولكن ديكارت الشاب الذى أبى عليه عقله وذكاؤه ان ينحو فى تفكيره نحو سابقيه مع ما لهم فى نفوس أهل العلم من قداسة أيدتها القرون الطويلة ، أبى عليه عقله أيضا ان يجارى معاصريه ، بل لقد كان أكثر من ذلك حرية وشجاعة فقد عزم على ان يحارب الالحاد ، وكان هذا العزم من الاسباب التى بعثته الى الكتابة •

ومما هو جدير بالذكر لوصف الحياة العقلية فى ذلك العصر هو مشهور عن ثلاثة من العلماء عقدوا اجتماعا كبيرا فى ردهة من جمل ردهات باريس ليدحضوا بعض آراء أرسطو فى الطبيعيات ، وشهد الاجتماع نحو الالف ، وقبل أن يبدأ الكلام أمر أولو الامر

باخلاء المكان وان ينصرف الحاضرون ثم أصدر البرلمان أمرا باعدام مقالاتهم وان يغادروا باريس فى ٢٤ ساعة وألا يلونوا فى أى بلدة تدخل فى اختصاص محكمة التفتيش التى حكمت عليهم وحرمت عليهم ان يعلموا الفلسفة فى أى جامعة وهددت كل من يتناقش فى هذه المقالات أو ينشرها أو يتجر فيها بأن يعاقب عقابا بدنيا مهمـا كان مركزه • ولم يفت البرلمان ان ينص فى قراره على تحريم اذاعة الآراء التى تخالف آراء المؤلفين القدماء الذين تقرهم الكنيسة لاسيما أرسطو ، وأن كل من يرتكب هذا الاثم يحكم عليه بالاعدام • وقد علم ديكارت بكل هذا ، وربما كان ذلك مما حبب له الابتعـاد عن فرنسا •

واتفق ان شهد الفيلسوف اجتماعا عند سفير البـــابا فى باريس ، وقام أحد العلماء يبسط آراءه فأعجب به الحاضرون كل الاعجاب ماعدا ديكارت ولما دعى للكلام نهض وانطلق يتكلم بفصاحة وأثبت عكس ما قاله العالم بحجج قوية واضحة ورأى أحد الحاضرين من أولى الشأن أن ديكارت لم يكن مجددا فحسب بل كان مصلحا أيضا فأخذ يطلب اليه ان يفرغ لاصلاح الفلسفة وقال له انه يعقد عليه أمله فى النهضة بفلسفة حديثة • ورأى ديكارت أن الكثيرين أخذوا يضعون هذا الأمل فيه فشجعه ذلك على ان يصمم العزم على كتابة مذهبه فيما بعد الطبيعة ورأى أن تدوين طبيعياته لن يكلفه بعد ذلك الا شهورا عدة (١) •

وهكذا انقضت التسع سنين من سنة ١٦١٩ الى سنة ١٦٢٨ وهو ينتقل من بلد الى بلد ويغشى النوادى المختلفة ويتصـــل بالجيوش ويبتلى نفسه فى مصادفات الحياة ، وفى هذه المدة كان يفكر ، فرأى ان ينتزع من عقله كل الآراء التى وجد أنها موضـــع للشك ، وألا يدخل فى اعتقاده الا ما يتمثل أمام عقله فى وضوح ،

---

(١) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٩٥ الى ٩٨

وكان يروض نفسه على تطبيق منهجه على معضلات العلوم الرياضية وكان يجتهد في تخليص معضـــلات العلوم الاخرى من مبادئهـــا وتحويلها الى ما يشبه معضلات الرياضيات ، وهو يعتــرف أنه لم يستقر حتى هذا العهد على رأى نهائى فى المعضلات التى هى فى العادة موضوع الخلاف بين العلماء ، وعلى العموم لم يصل الى فلسفة جديدة بدل الفلسفة التى كانت ذائعة فى العصور الوسطى والتى كان حجتها وامامها الاول أرسطاطاليس (١) ٠

وقد رأى أنه لا يستطيع ان ينهض بالواجب الذى اضطلع به الا اذا ابتعد عن معارفه ، وانفرد حيث يجد من الراحة ما يعينـــه على النظر والتفكير ولم يجد مقاما أوفق له من هولندا فرحل اليها فكان فيها فى خريف سنة ١٦٢٨ ٠

وكانت هولندا اذ ذاك فى أوج مجدها ، اذ أنهـــا كانت قد انتصرت على اسبانيا القوية واستخلصت منها استقلالها ٠ وكان جيشها مدرسة أوربا الحربية يقصد اليه أبناء النبلاء ويلتحقــون به ، وكانت لها تجارة رائجة مع الهنود والعرب والاتراك ، وازدهرت فيها العلوم والآداب فأخذت جامعة ليدن فى الترقى حتى أصبحت فى القرن السابع عشر تضارع جامعات ألمانيا العتيـــدة ، وكذلك تأسست فى المدن الكبيرة جامعات أخرى ، وأخذت معـــاهد العلم ونواديه تنتشر فى البلاد ٠ وتبع هذا الرغد فى الحياة والنـــور ازدهار الفنون الجميلة ، ولاتزال لمدينة ليدن شهرتها فى الطبـــاعة حتى الآن وكان فن التصوير على شيء من الكمال كثير ، ومن آثاره صورة ديكارت التى نشرناها فى مطلع هذا الكتاب وهى من رسم فرانس هلزبنكس Franz Hals Px وكانت الحرية والتسامح مبسوطين هناك ، حتى لقد كان يطبع فى هولندا من كتب العلماء الاوربيين مالا يمكن طبعه فى بلادهم مثل كتب غاليليه التى تولى

(١) المقال عن المنهج ص ٤٥ ــ ٤٧

طبعها آل الزفير Les Elzviers أهل الشهرة العريضة في تاريخ الطباعة ٠

وليس السبب الرئيسي في تفضيله هولندا على غيرها لكي يقيم فيها هو أن فيها من الحرية ما ليس في أي بلد آخر ٠ اذ أنه كان كاثوليكي المذهب والهولنديون بروتستنت وكان العداء بين علماء المذهبين قويا ولم يتوان ديكارت في مناصرة أساتذته اليسوعيين فاعتبره علماء الدين الهولنديون ملحدا ٠ وكذلك لم يكن جو هولندا ، وأكثر العام فيها شتاء ، ليجذبه اليها ولكن السبب الرئيسي لاختياره الاقامة هناك هو ما أبداه في قوله :

« ٠٠٠٠ حملتني تلك الرغبة على أن ابتعد عن كل الاماكن التي أجد فيها بعض من أعرفهم ، وأن أنعزل هنا في بلد فيه طول استمرار الحرب نظما (جيدة) ، حتى أن الجيوش التي بها في هذا البلد تبدو كأنها لا تستخدم الا في أن ينعم الناس بثمرات السلام في كثير من الطمأنينة ، وحيث استطعت في غمرة شعب كبير جم النشاط ، يعنى بأعماله عناية أكثر من تطلعه الى أعمال الآخرين ، بدون أن أحرم أي رخاء مما يوجد في المدن الغاصة بالنازلين ، أن أعيش منفردا ومنعزلا كما لو كنت في أقصى الصحاري (١) » ٠

ورأى للمرة الثانية صديقه بيكمن واستمرت بينهما صلة العلم والصداقة واتصل ببعض الاطباء وأساتذة جامعة ليدن والمستشرقين والرياضيين والأدباء والأعيان وعلماء الدين الكاثوليكيين والبروتستانت ، وتنقل في مبدأ اقامته في هولندا بين فرانكير وليدن وأمستر دام ٠

وفي آخر سنة ١٦٢٩ ، بدأ ديكارت في كتابة رسالته « العالم

---

(١) المقال عن المنهج ص ٤٨

Le Monde (١) » ولكن حـــدث فى ٢٣ يونيه ســـنة ١٦٣٣ أن دانت محكمة التفتيش فى رومة غاليليه لاصداره كتابه المشهور عن مذهبى بطليموس وكوبرنيك فى سنة ١٦٣٢ ، وذلك لان السلطة الدينية أحست بالخطر الذى يتهددها من نقض القول القديم بأن الارض ثابتة وسط العالم ، وأن الفلك يدور حولها • وقد علــم ديكارت بهذا الحكم ، وكان يريد أن يبعث بمخطوطة رسالتـــه العالم الذى اشتغل فيه من سنة ١٦٢٩ الى ١٦٣٣ الى صديقه الاب مرسن فبلغ به الفزع مبلغا كبـــيرا لانه قال بدورة الارض فى رسالته وورد فى كتاب له أرسله اليه فى ٢٢ يوليه ســـنة ١٦٣٣ « أدهشنى هذا الى حد كدت معه أن أصمم على احراق أوراقى ، أو على ألا أظهرها لأحـــد على الأقل ••• وانى لأعترف أنه اذا كانت (حركة الارض) باطلة ، فان كل أصول فلسفتى باطلة كذلك ، اذ أن هذه الاصول تثبتها اثباتا واضحا ، وأنها من الاتصال بكل أجزاء رسالتى بحيث لا أستطيع فصلها عنها دون ان أصيب كل ما يبقى بنقص • ولكن لما كنت لا أريد أن يصدر عنى قول يمكن ان توجد فيه كلمة واحدة لا تقرها الكنيسة ، فاننى أفضل ان ألغى هذا القول على ان أظهره مشوها » (٢) •

والسبب فى امتناعه عن نشر رسالته هو رغبته الشديدة فى راحة البال ، وقد كان شعاره الدائم « عاش سعيدا من أحسن فى الاختفاء Bene vixit qui bene latuit (٣) • ثم انه كان يطمح فى أن تحل طبيعياته محل طبيعيات أرسطو ، أى ان تعلـــم فى المدارس ، واعتقد أن هذا ليس من المســـتطاع ما لم يقرها رجال.

---

(١) انظر كتابه الى صديقه مرسن فى ١٨ ديسمبر سنة ١٦٢٩ فى ج ١ ص ٨٤ و ٨٥ من الاعمال طبعة أدام وتانرى

(٢) أعمال ديكارت ج ١ ص ٢٨٥ و ٢٨٦ مطبوعة أدام وتانرى

(٣) كتابه الى مرسن ١٠ مارس سنة ١٦٣٢

الدين ، كما أنه اعتقد أن ما تستنكره محاكمهم مقضى عليه بالفناء ٠

ولكن آراء غاليليه لاقت من النجاح مالم يكن يتصوره ديكارت فترجم كتابه الى اللاتينية ونشر فى هولندا ، وشرح مذهبه فى فرنسا كما نقلت أيضا الى الفرنسية بعض كتاباته ، وكان من المدافعين عن آرائه والعاملين على نشرها فى فرنسا الأب مرسن صديق ديكارت ٠ كما أن البعض كتب ضد قول غاليليه بحركة الارض حول محورها فى أربع وعشرين ساعة فى الفضاء ، ونقتبس من كتابة هذا البعض الأخير الفقرة التالية من كتاب لأحد أساتذة الكوليج ده فرانس فى هذا العهد ليتبين للقارىء تنازع وجهات النظر فى القرن السابع عشر واختلاف الانحاء العلمية فى أوربا فى هذا العصر « بما أن الله قد أرسل ابنه لينقذنا بموته ، فلا ينبغى ان يستغرب اذن لو أنه جعل السموات تدور من أجلنا ، ولو أنه خلق العالم الجسمى كله لفائدة الناس ولذتهم » (١) ٠

ولكن ديكارت لم يكن ليرتاح الى عزمه فى سنة ١٦٣٣ على ألا ينشر شيئا ، ذلك لأن الكثيرين كانوا ينتظرون شيئا من هذا الفيلسوف الذى هجر بلاده واعتزل الناس فى هولندا ليفكر فى راحة واطمئنان ٠ صمم على ان ينشر للناس بعض ما انتهى اليه ، ورأى أن يقدم لهم نماذج من فلسفته حتى اذا قرأوها اشتاقوا الى أن يطلعوا على مذهب الفيلسوف بأكمله ٠ وما كاد يستقر على هذا الرأى حتى عكف على العمل ، وفى قليل من الزمن كان قد أتم ثلاث رسائل هى انكسار الأشعة والانواء والهندسة ووضع لها مقدمة هى المقال عن المنهج وعزم على نشرها جميعا فى سفر واحد دون ان يذكر فيه اسمه وفى سنة ١٦٣٦ قصد ليدن ليطبع هذا الكتاب ، وبعد اتمام الطبع غادرها وأخذ يتنقل بين مدن هولندا ، ثم عاد الى ليدن فلبث فيها من سنة ١٦٤١ الى سنة ١٦٤٣ ٠

---

(١) نص مقتبس فى شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ١٧٣

واتصـــل بالأميرة اليزابيث البلاتينية (١) ، وكانت مثقفــة بالثقافة الفرنسية ، وتعرف لغات كثيرة ، وواسعة الاطلاع فى علوم عصرها ، وقد عرفت الفيلسوف من كتبه فبدأت بمراسلته فرحب ديكارت بهذه الصـــلة الجديدة ، وتمكنت بينهما الصـــداقة فكانت تستشيره فى كل شئونها حتى فى مصير أسرتها الملكية وأعجب هو بذكائها وحبها للعلوم فأهداها كتابه مبادىء الفلسفة سنة ١٦٤٤ ، وكان يشرح لها أصول مذهبه ويطلعها على استكشافاته الرياضية • وقرأ معها كتاب الحياة السعيدة de vita beata للفيلسوف الرومانى الرواقى سنكا SENECA • ثم أخذ يكتب اليهـــا بعـــد ذلك فى الأخلاق • وبعد سنة ١٦٤٦ شرع يكتب اليهـــا عن كتاب ميكافلى الأمير ويستنتج الاســـتاذ أدام من ذلك أن ديكارت يرى أن درس واجبات الحياة المدنية يعقب درس واجبات الحياة الخاصة وبتعبير آخر أن علم السياسة يأتى بعد علم الأخلاق • وقد اتفق الفيلسوف مع الأميرة على مخالفة مكيافلى فى آرائه ، ولم يريا معه أن الغاية تبرر الوسيلة ، بل ذهبا الى أن الشر لا يعقب غير الشر ، والعنف لا يجلب الا العنف ، وأن الكذب لا يولد سوى الكذب ، واذن فمن الخير أن تتجنب هذه السياسة منذ المبدأ (٢) • واستمر تبادل الكتب بينهما حتى مات ديكارت فى السويد فحفظ السفير الفرنسى شانو Chanut مسودات رسائل ديكارت مع ردودها عليها ، وطلب اليها أن تأذن له بنشر رسائلها مع رسائل الفيلسوف فأبت عليه ذلك ، لأنه كان

---

(١) هى ابنة الناخب البلاتينى فريدريك الخامس كان ملك بوهيميا وخسر تاجه وعرشه فى سنة ١٦٢٠ ثم انتقل الى هولندا ومات ســـنة ١٦٣٢ وظلت الاميرة مع أمها فى هولندا وقد عاشت من سنة ١٦١٨ الى سنة ١٦٨٠ •

انظر تفاصيل تاريخها وعلاقتها مع ديكارت فى كتاب كينوفشر حياة ديكارت وعمله ومذهبه ١٠ ص ١٩٩ وما بعدها

(٢) حياة ديكارت ١٨ ص ٤٢٦

قد عارض فى بعض الظروف فى سفرها الى السويد ، وطلبت اليه أن يرد اليها رسائلها ففعل وظلت محفوظة لديها ثم عثر عليها الكونت فوشيه دى كارى Foucher de Careil فى مكاتب بعض النبلاء فنشرها لأول مرة سنة ١٨٧٩ وقد أدمجت فيما بعد فى مطبوعة أدام وتانرى بعد مراجعتها بالمخطوطة التى اعتمد عليهـــا دى كارى نفسه • أما الاميرة فقد اعتزلت فى آخر حياتها فى دير وقضت بقية عمرها فى التنسك وماتت سنة ١٦٨٠ بعد أن ذاعت شهرتها بين الجميع بعلو كعبها فى العلوم وبسمو أخلاقها وفضائلها •

وقد سافر ديكارت الى فرنسا سنة ١٦٤٤ بعد غيابه الطويل عنها ليسوى فيها بعض مصالحه ، ثم غادرها راجعا الى هولندا فى سنة ١٦٤٧ • وكانت شهرته اذ ذاك قد ذاعت فعزم ملك فرنسا فى سبتمبر من نفس العام على أن يفرض له راتبا سنويا مقداره ٣٠٠٠ جنيه ، وجاء فى الوثيقة الرسمية التى اقتبسها مترجم حياته بايبه عن ذلك أن هذا الراتب قد قرر له «نظرا لفضائله الكثيرة وللفائدة التى تحصلها للنوع الانسانى فلسفته وبحوثه فى دراساته الطويلة ، وكذلك معـــاونة له على مواصـــلة تجـــاربه الجليلة التى تستلزم النفقات » (١) ولكنه غادر باريس على غير علم بهذا لأنه لم يسع الى ذلك ولم يطلب شيئا • ويظهر أنه لم يعلم الا فى يناير سنة ١٦٤٨ فعزم على مغادرة هولندا وأخذ يودع أصدقاءه وداعا نهائيا وترك منعزله فى مايو من نفس السنة •

ولكنه لم ينل شيئا من هذا الراتب ، بل لقد دفع نفقات الصك الملكى من ماله ، وكان مكتوبا على الرق الثمين ، وقد اشتكى غلاء ثمنه فيما بعد الى صديقه شانو السفير الفرنسى فى السويد •

ولم يطمئن للبقاء فى باريس ، ذلك لأن الحرب الداخلية كانت

---

(١) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٤٥٨ و ٤٥٩

قائمة فى فرنسا اذ ذاك ، ولم يستقبله العلماء الفرنسيون على نحو ماكان ينتظر ، وكانت الحرب الخارجية تهدد فرنسا كذلك ، ولما كان السلام والطمأنينة أحب شيء لديكارت فقد عجل بمغادرة وطنه فى أغسطس سنة ١٦٤٨ بعد أن ودع صديقه القديم الأب مرسن الذى كان فى مرض الوفاة وعاد الى منعزله فى اجموندEgmond فى هولندا ٠

وكان مرسن أوفى أصدقائه ، عرف عنه التبحر فى العلوم والاخلاص فى التمسك بالدين ، وكرم الأخلاق ، وقد مات فى سبتمبر سنة ١٦٤٨ وطلب الى أطبائه قبيل وفاته أن يشرحوا جثته كى يعرفوا علة دائه ، ولم يكونوا قد اهتدوا اليها فى حياته ، ليتيسر لهم فيما بعد أن يعالجوا من يصاب بما أصيب به ٠

واهتم ديكارت فى منعزله بأخبار وطنه وكان شديد الجزع على فرنسا من الحروب والأخطار التى تتهددها ولما علم بزحف الارشيدوق ليوبولد على باريس ، دعا الله فى صلاته « أن يجعل حظ فرنسا يعلو على سعى الذين يريدون بها السوء (١) » ٠ وظل ديكارت فى منعزله هادئا مطمئنا الى أن دعته ملكة السويد لزيارة استوكهلم ٠

كان للسويد فى هذا الزمن شهرة واسعة بفضل ملكها العظيم جستاف أودلف الذى أدهش العالم بشجاعته وانتصاراته فى الحروب ، ورثت عنه الملك ابنته فأرادت أن تحتفظ لمملكتها فى أيام السلم بما أكسبها من مجد فى أيام الحرب فشرعت تستدعى العلماء لبلادها ، وكان أشهر من استدعت هو رينيه ديكارت، وكان السفير الفرنسى فى بلاطها صديق ديكارت قد عرفها بفضله فرغبت فى دعوته كما أنه اجتهد فى حمل الفيلسوف على قبول هذه الرحلة٠

---

(١) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٤٧٣ — ٤٧٤

وقد استدعته فى ٢٧ فبراير سنة ١٦٤٩ لزيارة استوكهلم قاعدة ملكها ثم بعثت بأميرال سويدى الى هولندا ليستصحب الفيلسوف فى سفينته (١) • وقد تردد فى قبول الدعوة ، ولم يأنس من نفسه فى بادىء الأمر ميلا للنزوح الى السويد وكان يسميها بلد الدببة Pays des ours ووصل اليه القائد البحرى فى ابريل من نفس العام وأبلغه طلب الملكة فاعتذر بأنه لا يستطيع فراق منعزله • وعلم السفير الفرنسى بذلك وكان يريد أن يسافر الى فرنسا فعجل بالسفر ومر به وأقنعه بضرورة الذهاب الى الملكة فقبل وسار فى أول سبتمبر سنة ١٦٤٩ ووصل الى عاصمة السويد بعد شهر • وفى أثناء السفر فى البحر دهش قائد السفينة من سعة اطلاعه بفنون الملاحة وأحوال البحر فقال للملكة عندما قدمه اليها : « ليس الذى أقدمه لصاحبة الجلالة رجلا ، بل هو نصف اله (٢) » •

ولم يرتح للبقاء فى السويد ؛ اذ أنه شعر بالوحدة ووحشة الغربة ، وكان أكثر ما يعنى به البلاط السويدى هو علوم اللغات والشعر ، فعزم على العودة ، ولكنه رأى أن يبقى أثرا فى السويد فرسم للملكة مشروع مجمع علمى ، واشترط ألا يكون للاجنبى حق العضوية فيه ، وقيل أنه اشترط هذا الشرط حتى لا يستبقى فى السويد •

وفى أوائل سنة ١٦٥٠ كانت الملكة تختلف اليه فى حجرة عملها للتحدث معه فى الفلسفة ثلاث مرات فى الاسبوع فى الساعة الخامسة من الصباح • ولم تكن هذه الساعة المبكرة ملائمة له ؛ اذ أنه اعتاد منذ حداثته أن يستيقظ فى ساعة متأخرة ؛ ثم انه كان يتعرض لبرد الشمال القارس لا سيما فى فصل الشتاء فاصابه

---

(١) الكتاب المذكور ١٨ ص ٥٣١
(٢) الكتاب المذكور ١٨ ص ٥٣٥

التهاب فى صدره ، ورفض معاونة الأطباء وأبى الاصغاء لنصائحهم، وأخذ يعالج نفسه بنفسه ، واشتد عليه المرض حتى بلغ رئتيه وأدركته المنية فى الساعة الرابعة من صباح ١١ فبراير سنة ١٦٥٠.

وأرادت الملكة أن يدفن فى مقابر الاسرة الملكية فرفض صديقه السفير شانو أن يدفن مع من هو على غير دينه ، لأن السويد بروتستنتية المذهب ودفنه فى قبر مؤقت ثم أقام له قبرا فى مايو سنة ١٦٥٠ ، وفى ١٦٦٦ ألح أصدقاؤه والمعجبون به من الفرنسيس أن تنقل رفاته الى باريس ففعلت الحكومة ذلك واحتفل بدفنه فى ٢٤ يونيه سنة ١٦٦٧ ونقلت رفاته فى مدافن عدة وهى الآن فى كنيسة سان جرمان ده بره Saint-Germain des-Prés

— ٢ —

شخصية ديكارت

ان أظهر نزعة فى خلق ديكارت هى حبه للراحة والسكينة وولعه بالعزلة والهدوء ، ولقد رأينا أنه هجر وطنه وهو شاب لانه رأى أن السلطات فى فرنسا لا تطيق أن ينهض فيها داع لمذهب يخالف الفلسفة الرسمية التى كان معلمها الاول ارسطاليس ؛ ثم لانه أدرك أنه يستحيل عليه أن يعيش فى وطنه منعزلا عن الناس منقطعا للتأمل والتفكير كما ينعزل الرهبان والمتصوفة فى الصوامع والكهوف ورءوس الجبال والصحارى للنسك والعبادة ؛ فهاجر الى هولندا مع قسوة بردها وطول شتائها وذلك لانه عرف أنه يقدر على أن يعيش فيها آمنا على حياته مطمئنا على متاعه اذ أن هذه البلاد تحتفظ بجيش كبير ، يقوم على حفظ الأمن ورعاية

السلام (١) ، ويجب أن ينتبه القارىء الشرقى ؛ كى يقدر هذا ، الى أن قطع الطرق ، واغتيال المسافرين ، والسطو على الآمنين ، كانت حوادث مألوفة الوقوع فى بلاد مثل ايطاليا وفرنسا فى هذا العهد ٠

وقد دفعه شغفه بالهدوء والاطمئنان الى أن يجزع جزعا شديدا عندما بلغه خبر الحكم على غاليليه ، ولم يجزع اشفاقا على هذا العالم الهرم ، ولكنه جزع لانه رأى رأى غاليليه ، وانتهى بمنهجه الى اثبات أن الارض كوكب سيار تتحرك حول محورها وتتحرك حول الشمس ، وكان على وشك أن ينشر رسالته العالم Le Monde التى يشرح فيها هذا الرأى ، ولكنه ما كاد يعرف أن السلطة الدينية فى روما رأت أن قول غاليليه مخالف لقول الانجيل وقول أرسطو بأن الأرض مركز العالم وأنها ثابتة لا تتحرك وأنها من أجل هذا لم تتوان فى مؤاخذته وادانته ، حتى اضطرب واتهم نفسه وشك فى أصول فلسفته ، وكاد يحرق أوراقه ٠ ونحن نعرف أنه كان فى هولندا البروتستنتية أى فى منأى عن أذى محاكم روما وتعذيبها ، ثم انه مع ذلك كان على ثقة من أنه ليس فى القول بحركة الارض شيء يتعارض مع العقيدة الدينية فى شيء (٢) ، الا أنه خشى أن يقال عنه انه خارج على رجال الدين (٣) وأقل مافى هذا هو ازعاج راحته ، واقلاقه فى حياة صمم على أن يمضيها متخذا هذا الشعار :

«عاش سعيدا من أحسن الاختفاء Bene vixit, qui bene latuit

---

(١) انظر ص ٤٨ ٠

(٢) انظر كتابه الى مرسن ١٠ يناير سنة ١٦٣٢ والمقال عن المنهج ص ٩٩

(٣) بلغ من تدبره للمحققين فى روما أن قال عنهم « لهم من السلطة على اعمالى مالا يقل عما لعقلى من السلطة على آفكارى » انظر ص ٩٩

وبلغ به الفزع والخوف الى أن قال فى مطلع القسم السادس من المقال « لا أريد أن أقول اننى كنت على هذا الرأى » ولكنه عندما اضطر الى التعرض لمسألة حركة الارض فى كتابه مبادىء الفلسفة أخذ يدور ويلف ويعرف الحركة تعريفا غريبا (١) ، وبالاختصار قال بحركة الارض بتعبيرات بالغة فى الغموض والالتواء لتحميه من غضب السلطة الدينية عليه ٠ وقد عد الكثيرون هذا جبنا من الفيلسوف ، ولكننا نرى أنه جبن اضطر اليه فى سبيل غاية جريئة هى أن تحل طبيعياته محل طبيعيات أرسطو فى التعليم وهذا كان مستحيلا بدون رضاء الكنيسة ٠

***

ومن صفات ديكارت البارزة أيضا شدة تمسكه بدينه ومذهبه، وقد رأينا كيف نذر أن يحج الى كنيسة العذراء فى لورت بايطاليا Notre-Dame de Lorette شكرا لله على أن هداه الى أصول فلسفته فى ليلة ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ م ورأينا كيف أوفى بنذره، وانضم الى جانب أساتذته اليسوعيين فى نزاعهم الدينى مع علماء هولندا البروتستنت مع أنه كان نزيلهم وضيفا فى بلادهم ٠

ولم يمنعه تمسكه بمذهبه من أن يحمل السلاح فى جيوش هولندا البروتستنتية التى حاربت اسبانيا الكاثوليكية فى سبيل حريتها وخلاصها من أشهر ضروب الاستعباد فى التاريخ ٠

ويضاف الى تمسكه بالدين حبه لوطنه فقد رأينا أنه بعد أن غادر فرنسا لآخر مرة ، وكانت فريسة للحروب الاهلية ومهددة بالخطر الخارجى ، كان كثير الاهتمام بأخبار وطنه ، وكان يدعو الله فى صلاته أن ينجيه من كيد أعدائه ٠ وروى الطبيب الذى عنى به أثناء مرض الوفاة فى السويد ، وكان ألمانى الجنس أنه رأى أن

---

(١) أنظر الجزء الثانى الفقرات رقم ٣١ و ١٣ ، ٢٥ ٠

يقصـــــد له ، فرفض ديكارت رفضا شديدا وقال له : « لا تقرب الدم الفرنسي » (١) .

وكان ديكارت جم التواضع ، يشهد له بذلك كثير من تعابيره في كتبه ، وفي المقال من هذه التعابير الشيء الكثير مثل قوله « أما أنا فلم أدع قط أن نفسي أكمل من نفوس الغير ، بل كثيرا ماتمنيت أن يكون لي من سرعة الفكر ، أو من وضوح الخيال وتمييزه ، أو من سعة الذاكرة وحضورها ، مثل ما لبعض الناس » (٢) ، أو كقوله: « ما كنت قط عظيم العناية بالاشياء التي كانت تصدر عن نفسي .. الخ . الى أن يقـول : مع أن أنظاري كانت ترضيني كثيرا ، فانني كنت أعتقـد أن لغـيري أنظارا قد يكونون بهـا أشـد اعجابا » (٣) .

ومما يجدر ذكره أنه بعد أن تم طبع المقال والرسائل الثلاث سنة ١٦٣٧ ، أرسل الكتاب الى صديقه مرسن ليحصـل له من السلطات الفرنسية على الاذن بتداوله في فرنسا ، وأراد صديقه أن يقوم له بعمل ليجذب الكتـاب اهتمـام الجمهور ، فقصـد الى مستشار يمت بصـلة الرحم الى بعض أصـدقاء ديكارت ، وكان المستشار محبا للآداب والعلوم ، فلما شرح له مرسن غايته وأطلعه على رغبتـه ، أردف الاذن بنشر الكتـاب باطراء المؤلف ومدحـه والاشارة الى ما ينتظر منه في سبيل تقدم العلوم والفنون ورسم اسمه في الاذن Des-Cartes (ده كارت) اظهارا له بمظهر النبلاء (٤) ولكن ديكارت لم يستبق من كل هذا الا المعـالم التي لا يمكن تداول كتاب في فرنسا اذ ذاك بدونها وأظهر كتابه دون أن يظهر عليه اسمه .

---

(١) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٥٥١ والهامش رقم أ

(٢) ص ٤

(٣) ص ١٠٠

(٤) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ١٨٤

وجمع الى تواضعه اباء وشمما • أرسل اليه فى هولندا الكونت دافو d'Avaux مبلغا كبيرا من المال ليستعين به على صنع التجارب التى أشار اليها فى القسم السادس من المقال فرده واعتبر هذا اهانة له (١) • وفكرت كرستين ملكة السويد فى أن تقطعه ضيعة من أملاكها فى ألمانيا ، التى آلت اليها بفضل معاهدة وستفاليا ، ولكن ديكارت علم أن هذه الضيعة منتزعة من أوقاف بعض الاديرة فأبى هذه المنحة الملكية (٢) •

ولو شئنا احصاء النوادر التى يتبين مبلغ ما كان عليه ديكارت من سمو فى الاخلاق يضارع سموه فى التفكير ، لطال الكلام ولكن قبل أن نغادر هذا المجال يحسن بنا أن نعرض لما قال عنه خصومه ففى هذا تكميل للصورة التى نريد اظهارها لديكارت أمام القراء •

***

لم ينج ديكارت من خصوم حقدوا عليه واتهموه شتى التهم، فقال البعض عنه انه ملحد مع أن الرجل يضع نظريته فى المعرفة على أساس وجود الله وكونه متصفا بكل الكمالات • والدافع الى هذه التهمة غضب المتعصبين للقديم عليه ، لأنه جاء بفلسفة جديدة مختلفة كل الاختلاف عن فلسفة أرسطو ، التى أصبحت مع توالى الزمن مقدسة ، وأصبح رجال الدين فى أوربا يفسرون بها الانجيل وقواعد الدين المسيحى •

ومن طبيعة الانسان أن ينفعل ويغضب اذا صدم فيما ألفه وتعود عليه • ذلك لانه لكى يغير ما تعود عليه ، يحتاج الى قوة لم يكن يحتاج لها لو أنه ظل بدون تغيير ، ويشتد انفعال المرء اذا اصيب فى معتقداته أو آرائه التى عاش عليها طول حياته ، وعاشت عليها من قبله أجيال يتصل بها أوثق اتصال ، اذ أن هذه المعتقدات

(١) نفس الكتاب ص ٤٦٩
(٢) نفس الكتاب ص ٥٤٧

والآراء تصبح بعد رسوخها فى العقل وتأثيرها فى العــواطف أعز ما يمتلكه الانسان فى حياته وأقوى ما يكون شخصيته ٠

ويجب ، لكى نتصور مقدار هذا الانفعال ، أن ننتبه الى طول الزمان الذى مر على الانسانية وهى تعتبر أرسطو استاذها الاول، والى أن أهل العلم فى العصور الوســطى قد اعتــادوا فى تفكيرهم طريقة شاذة وهى اعتبــارهم قول هذا المعلم الاول الحجة وفصــل الخطاب ، عنده يقف العقل مصدقا مؤمنا وان تجــاوزه انسان أو خالفه اعتبر جاهلا أو اتهم بالزيغ فى العقيدة والفسق عن الدين٠ بل وبلغ من قوة سلطته على العقول أنه عندما اخترع المنظار المقرب (التلسكوب) وأمكن بواسطته رؤية بعض البقع على وجه الشمس، أن الكثيرين من العلمــاء لم يصــدقوا هذا وشكوا فى الذى تبينه لهم الحواس ، وذلك لأن أرسطو لم يشر فى كتبه الى بقع على الشمس ٠

لم يخضع ديكارت لسلطة أرسطو ، بل كان يؤمن بما يقتنع به العقل الذى يدعوه بالنور الفطرى ، وقد اشتد تحقيره للذين لا يؤمنون بما يقنعه به العقل الذى يدعوه بالنور الفطرى ، وقد اشتد تحقيره للذين لايؤمنون بالأشياء الا اذا قال أرسطو بها وكتب فى هذا المعنى فى المقال عن المنهج « ٠٠ وانى لواثق أن أكثر متابعى أرسطو حماسا الآن ، يرون أنفسهم ســعداء لو أن لهم من العلم بالطبيعة ما كان له حتى بشرط ألا يتجاوزوا قدر ما علمه ٠ انهم مثل اللبلاب الذى ليس مستعدا لانه يرتفع الى ما فوق الاشجار التى تسنده ، بل وكثيرا ما يهبط بعد أن يبلغ ذروتها ، لأنه يبدو لى أيضا أن هؤلاء يهبطون ، أى انهم يردون أنفســهم ، على وجه ما ، أقل علما مما لو كفوا عن التحصيل الخ الخ » (١) ٠

واذن فقد كان من حظ ديكارت أن يناله من السوء ما يناله الذى يغير ما ألفه الناس زمنا طويلا وارتاحوا لتعوده ، ولو كان

---

(١) ص ١٠٩

باطلا ، وكانت له أسوة بالسابقين من المصلحين البائسين الذين يعنيهم جويته بقوله :

« ان القليلين الذين عرفوا منـه شـيئا ، والذين كانوا من الحماقة بحيث لم يحفظوا ما فى صـدورهم ، وكشـفوا للعامة عن عواطفهم وآرائهم ، صلبوا وصلوا النار » (١) .

ويكفى القراء ليتبينوا كذب اتهامه بالالحاد أن يقرأوا المقال عن المنهج وأن يطلعوا على ما كتبناه فى تاريخ حياته .

وننتقل الآن من هذه التهمة ، بعد أن فندناها ، الى تهمـة أخرى سنرى أنها ليست أقل من السـابقة تهافتا وضعفا ، وهى دعوى الذين قالوا عنه انه نسب لنفسـه كل الفضـل فى بعض الاستكشـافات العلميـة التى استكشـفها معـاصروه وأهم هـذه الاستكشافات قانون انكسار الاشعة الذى اهتـدى اليه اسنليوس Snellius قبيل ديكارت .

والدافع الى هذا النوع من الاتهام هو أن الفيلسوف لم يهتم بحركة العلوم فى عصره ، وأهمل تقدير معاصريه بعض الاهمال ، ومع أن فيهم من له بعض الشأن فى تاريخ التقدم العلمى ؛ الا أنه كان اذا ذكر هذا البعض لاسيما ممن عالجوا من المسـائل العلمية ما عالجه ، لم يذكره باحترام يرضيه ويرضى أتباعه ، ولم يعترف له بفضل ، وهذا كاف لاغضاب الكثيرين وجعلهم خصوما له ، واذن فماذا يكون مبلغ عدائهم له اذا رأوه ينسب الى نفسه كل الفضل فى كل استكشاف علمى يصل اليه ؟ واذا اعترضوا عليه بأن غيره سبقه الى بعض هذه الاستكشافات ، أجابهم بأنه لم يقـرأ ما كتبه هذا البعض ، ويشرح كيف وصل اليها بفضل منهجه الذى لم يسـبقه اليه احد ، وكيف تبرهن عليها اصول فلسفته الخاصة به .

---

(١) فاوست Faust الجزء الاول القسم الاول

وعلى كل حال فان كل ماوجه اليه من تهم من هذا النوع انما يعتمد على التشابه بين نتائجه ونتـائج غـيره فى بعض البحوث العلمية (١) • ومن الهين دفع هذا الاتهام بقول يثبته التاريخ وهو أن تقدم العلوم فى أى عصر ، اذا وصـل الى درجة معينة يهيىء الفرص لاستكشافات لا بد من الانتهاء اليها • ثم انه مما لا ريب فيه أن الثقافة قد يسودها فى زمن من الأزمان تيار فكرى واحد ، فتتفق نزعات العلوم ، ويصل العلماء الى حقائق مشتركة ونتائج متشابهة دون أن يتعاونوا فى البحث ، أو يكون بينهم أى اتصال • وقد اتهم ديكارت بعد وفاته بالاختلاس العلمى ليبنتز ونيوتن ، ومن أعجب المصادفات أن البعض اتهم ليبنتز باختلاس استكشاف نيوتن فى الرياضة وأن البعض الآخر ينكر على نيوتن فضل التقدم ويعـزو الاستكشاف الى الفيلسوف الألمانى ، مع أننا اذا تأملنا فى حـركة العلوم الرياضية فى القرن السابع عشر أيقنا أنها كانت لا بد أن تنتهى الى هذه الاستكشافات (٢) ثم ان نظرة واحدة الى ما يقوله ديكارت عن هارفى فى المقال عن المنهج (٣) تكفى لنفى القول بأنه كان كثير التحقير لمعاصريه •

ورأينا اذن ، هو رأى كل العلماء الباحثين فى ديكارت أى أنه لم يختلس الاستكشافات العلمية القليلة العدد التى استكشفها أيضا معاصروه ، اذ أنه انتهى اليها بفضل منهجه ، وبرهن عليها بأصول فلسفته • ثم ان نظرة منتبهة فى تاريخ حياته وأخلاقه ، بل فى نفس صورته ، تستطيع أن تقنعنا أن الرجل لم يكن من أهل المهازل ، وهيهات أن يقع الرجل الذى حبس حياته على البحث عن علم يرقى بالطبيعة الانسانية الى أسمى مرتبة لها فى الكمال أن

---

(١) ميلو Milaud مسئلة صدق ديكارت ص ٣٠٢و٣٠٣

(٢) ميلو نفس الموضع ص ٣٠٤

(٣) ص ٨٦

يقع فى خطأ خلقى هو من أدنى ما تنحط اليه الطبيعة الانسانية من درجات النقص ٠

نظرة في فلسفة ديكارت

يطلق ديكارت كلمة الفلسفة على مجموع العلوم ويشبهها بشجرة ؛ أصلها علم ما بعد الطبيعة؛ وساقها علم الطبيعة ؛ والفروع الخارجة من هذه الساق هى سائر العلوم التى يمكن حصرها فى ثلاثة هي : الطب والميكانيكا وعلم الأخلاق » (١) ٠

والواجب علينا اذن لكى نعرض فلسفته ، ان نبسط آراءه فى هذه العلوم وما يتشعب منها ، وان نثبت للقراء ما كان ديكارت يبدى العناية باثباته ؛ أى كيف تقوم نظرياته العلمية على أنظاره فى علم ما بعد الطبيعة ، وكيف يسير فى الاستكشاف والبرهان وفقا لقواعد منهجه ، ولكننى أكتفى ، تواضعا، فى شرح فلسفته بالكلام عن مذهبه فى علم ما بعد الطبيعة ، لانه فى نظره أول العلوم وأساسها : ثم أتبع هذا بتحليل منهجه ، ثم انتهى بشرح آرائه فى علم الاخلاق لانه تبعا لتصنيفه للعلوم نهاية الفلسفة ويعتمد على معرفة كاملة بكل العلوم ٠

ما بعد الطبيعة أو نظرية المعرفة

ـ ٣ ـ

المبدأ الأول

بحث ديكارت عن مبدأ عقلى لا يكون موضع شك ليقيم عليه فلسفته وعلمه ، وقال « ان ارشميدس لم يطلب الا نقطة ثابتة غير متحركة ليزحزح الكرة الارضية من مكانها ولينقلها الى موضع آخر،

---

(١) مبادىء الفلسفة ٦ المقدمة

وعلى هذا النحو يكون لى الحق فى أن اتصور آمالا سامية اذا كنت من التوفيق بحيث أجد شيئا واحدا يقينيا لا يقبل الشك » (١)٠

واذا كان من المستحيل أن توجد فى الكون هذه النقطة الثابتة غير المتحركة التى تصلح ان تكون تكأة ، أو محور ارتكاز كما يقال، لنقل الكرة الارضية من مكانها على نحو ماتخيل أرشميدس ، فانه لم يكن مستحيلا على ديكارت ان يجد هذه التكأة العقلية التي استطاعت ان تكون قاعدة قام عليها علم ثابت قوى ٠

من المعروف أن من الفلاسفة من قال بنفى كل معرفة يقينية، وهؤلاء هم اللاأدريون الذين ذهبوا الى أنه يستحيل على العقل الانسانى أن يدرك الحقيقة الجازمة ٠ وكان مذهبهم شائعا فى فرنسا فى عصر الفيلسوف وقد اطلع على مقالاتهم وعنى بها جد العناية وقرأ منتانى (٢) وتأثر به الى حد بعيد ، وقد بين الاستاذ جلسون فى تعليقه على المقال عن المنهج وجوه الشبه بين كثير من عبارات ديكارت وعبارات منتانى ، وقال الاستاذ برنشفيك فى ذلك انه يقتبس عبارات منتانى دون ان يشعر بحاجة الى ذكر مصدرها كما كان يفعل عند اقتباس عبارات التوراة أو الانجيل (٣) ، وكما نفعل نحن عند اقتباس آيات القرآن ٠

وشاء ديكارت أن يبدأ بالشك فى البحث عن مبدئه العقلى، وأن يجارى اللاأدريين فى غلوهم ، فاعترف بأنه شاهد أن الحواس قد خدعته فى بعض الاحايين « ومن الحزم ألا نثق البتة تمام الثقة فى الذين خدعونا مرة واحدة » (٤) ، ثم أقر بأننا نتصور فى الحلم

---

(١) التأملات الثانية ١٣

(٢) هو ميشيل ده منتانى Montagne الكاتب الفرنسي صاحب الرسائل المشهورة . كان فيلسوفا وعنى عناية كبيرة بعلم الاخلاق وهو مشهور بلا أدريته ومع ذلك كان مخلصا فى دينه عاش من سنة ١٥٣٣ الى سنة ١٥٩٢ ميلادية

(٣) الرياضة وما بعد الطبيعة عند ديكارت ١٧ ص ٣٧٩

(٤) التأملات الاولى ١٢

أشياء نحسبها اذ ذاك حقيقية فاذا استيقظنا تبدد الحلم وتبين لنا أن ما رأيناه أثناء النوم لم يكن من الحقيقة فى شىء ، ومعنى هذا أن كثيرا من الصور والافكار التى تتوارد أمامنا فى اليقظة ترد علينا بنفسها أثناء النـــوم دون أن تكون اذ ذاك حقيقية ، واذن ما الذى يمنع أن تكون تصوراتنا فى اليقظة مثل تصوراتنا فى النوم كلها خيالات وأوهام ؟ وفرض فرض اللاأدريين أن الذاكرة ، وهى خزانة التجـارب والمعـارف ، لا يمكن الاطمئنان اليها ، وقال أيضـا : « •• ولأن من الناس من يخطئون فى التفكير ، حتى فى أبسط أمور الهندسة ، ويأتون فيها بالمغالطات ، فانى لما حكمت بأننى كنت عرضة للزلل مثل غيرى ، نبذت فى ضمن الباطلات كل الحجج التى كنت أعتبرها من قبل فى البرهان » (١) •

يتبين من هذا أنه شاطر اللاأدريين فيما لهم من أســـباب التشـــكك ، ومع ذلك ذهب الى أبعد مما ذهبـوا اليه وفرض أن شيطانا خبيثا مضللا قويا يستعين بكل ما فى وسعه من الحيل على تضليله ، وقال : ان السماء والهواء والارض والالوان والاشكال والأصوات وسائر الاشياء الخارجية لا تكون اذن الا أوهاما وأحلاما استخدمها فى سبيل تضليلى وان ما أعتبر نفسى حاصلا عليه من أيد وعيون ولحم ودم ليس الا مجرد اعتقاد باطل (٢) •

ومن طبيعة المذهب اللاأدرى انه لا يقيم علمـا ، وقد عرف ديكارت ذلك خير معـرفة وقال : انا اذا سلمنـا بهذه الفـروض السابق ذكرها تصبح العلوم الطبيعية محضى خيالات لأن موضوعها يقع فى ميدان المكان والحركة وهما مع هذه الشكوك لا يكونان الا من أوهام النفس • ولكن ديكارت لم يكن قط لا أدريا ، لان مقصده ، هو كما عرفنا ، البحث عن قاعدة أمينة يقيم عليها صرح العلم ،

---

(١) المقال عن المنهج ص ٥٠

(٢) التأملات الاولى ١٢

أى ايجاد مبدأ ضرورى لا يقبل الشك ، وفى ذلك يقول « ماكنت فى ذلك (الشك) مقلدا اللاأدرية الذين لا يشكون الا لكى يشكوا، ويتكلفون أن يظلوا دائما حيارى ، فاننى على العكس ، كان مقصدى لا يرمى الا الى اليقين ، والى أن أدع الارض الرخوة والرمل ، لكى أجد الصخر او الصلصال » (١) ٠

يصل ديكارت الى مبدأ يقينى عندما يقول ان هذا الشيطان الخبيث مهما بلغ من القوة لا يستطيع منعى من التوقف فى التصديق ولا يقدر على أن يفرض على شـــيئا (٢) ، واذن فأنا حر غير مجبر على الاخذ بتضليله ولا خاضع لسلطانه ، ولا يقــدر على أن يمنع كونى موجودا ما دمت أرى اننى شىء من الاشياء (٣) ، ولــكن أى شىء أكون ؟ اننى انتهيت بنفسى الى حقيقة كونى موجودا بمجرد التفكير واذن فأنا شىء مفكر ، وبعبارة أخرى أنا أفكر ، اذن فأنا موجود Je pense, donc je suis

«ولما انتبهت الى أن هذه الحقيقة : أنا أفكر ، اذن فأنا موجود ، كانت من الثبات والوثاقة (واليقين) بحيث لا يستطيع اللاأدريون زعزعتها ، بكل ما فى فروضهم من شطط بالغ ، حكمت أنى أستطيع مطمئنا ان آخذها مبدأ أول للفلسفة التى كنت أتحراها » (٤) ٠
وقد بينت فى صفحة ٥١ التعليقة حرف (ا) ماذا يقصد ديكارت بكلمة التفكير٠ وبينت فى التعليقة حرف (ب) ص٥١ و٥٢ أن القضية ليست قياسا ، كما أن مجرد شرح استدلالاته للوصول اليها على نحو ما شرحتها الآن معتمــدا على التــأملات يكفى لعدم اعتبارها قياسا ، ويجب ان يضاف الى كل هذا أن الفكر يشتمل على عمليتى

---

(١) المقال عن المنهج ص ٤٥ و ٤٦
(٢) التأملات الاولى ١٣
(٣) التأملات الثانية ١٢
(٤) المقال عن المنهج ص ٥١ و ٥٢

البداهة التى تشتمل على الأوليات الضرورية والقياس الذى يطلقه ديكارت على النظريات (١) ، واذن تصح ان تكون القضية مبدءا أول وسنرى كيف وفق ديكارت الى أن يقيم عليه كل فلسفته ٠

ـ ٤ ـ
التمييز بين النفس والبدن

أول شيء يستنتجه ديكارت من مبـدئه أنا أفكر ، اذن فأنا موجود هو تمييزه بين النفس والجسم ٠ والنفس عنده هى الجوهر الذي يحل فيه الفكر مباشرة (٢) ، والجسم هو الجوهر المتحيز الذى يتخذ شكلا ووضعا (٣) ٠ وله فى التمييز بين النفس والبدن حجج ثلاث نبدأ فى بسـطها بالحجة التى وردت فى المقـال عن المنهج ؛ ومجملها أنه بعد أن تأكد أنه موجود مفكر قال انه يسـتطيع أن يفرض أن لا جسم له ، وأن يغفل وجود السـماء والأرض والهواء وكل شيء يقع فى المكان ، ولكنه مع ذلك يظل واثقا من وجود نفسه واذن تكون الأنية أو النفس موجودة مع فرض أن البدن غير موجود، واذن فهى شيء متميز عنه ، لا يستلزم وجودها مكانا ولا تتوقف على أى مادة (٤) ٠

وقد اعتبر الكثيرون هذه الحجة خاصة بديكارت ، أى انه أول من ذكرها ؛ وقد أثبت من أقوال هؤلاء قول هملان ٠ ولكنى أثبت

---

(١) انظر الفصل الخاص بالمعرفة وص ٣ التعليقة ١

(٢) الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ الحد السادس وانظر في ص ٥٦ التعليقة الاولى تعريف الجوهر

(٣) **التأملات الثانية والردود على الاعتراضات الثانية** ١٢ الحد السابع

(٤) انظر ص ٥٢ وما بعدها **مبادىء الفلسفة** ٦ ج ١ الفقرة الثامنة

فى التعليقات نصوصا لابن سينا يتبين من مقارنتها بكلام ديكارت أن الفيلسوف العربى سبق أبا الفلسفة الحديثة الى هذه الحجة (١) ومع أن المستشرق فورلانى بين امكان اطلاع ديكارت على كلام ابن سينا ، الا أننا لا نشك أقل شك فى أن الفيلسوف انما وصل الى هذه الحجة منتقلا من مبدئه أنا أفكر ، اذن فأنا موجود انتقالا منطقيا وهذا واضح جد الوضوح فى المقال عن المنهج ، وفى مبادىء الفلسفة حيث يشرح فى الفقرة السابعة من الجزء الاول مبدأه الاول ويبسط هذه الحجة فى الفقرة الثامنة تحت عنوان « بيان أن التمييز بين النفس والبدن يعرف بعد هذا مباشرة » بل ان نفس المبدأ ينطوى فى الواقع على هذه الحجة بحيث لا يبقى أى داع للارتياب فى أن ديكارت لم يأخذها عن سابقيه •

وموجز الحجة الثانية فى التمييز بين النفس والبدن أن البدن مثل كل الأجسام قابل للقسمة ولكن النفس واحدة لا تتجزأ ؛ ونحن نورد فيما يلى ترجمة للنص الذى يودعه هذا الحجة :

« •• ان الاختلاف عظيم بين النفس والبدن فى أن البدن بطبيعته قابل دائما للقسمة ، وان النفس غير قابلة للقسمة على الاطلاق اذ أنه فى الواقع عندما أنظر فيها ، أى عندما أنظر فى نفسى، من جهة أننى شىء يفكر ، فاننى لا أستطيع أن أميز فى نفسى أجزاء ما ، ولكننى أعرف وأتصور تصورا جد واضح أننى شىء واحد تام على الاطلاق • ومع أن النفس كلها تبدو متحدة مع البدن كله ، فانه اذا فصلت عنه ساق أو ذراع أو أى جزء آخر ، فاننى أعرف خير معرفة ، أنه لم يفصل ، من أجل هذا ، أى شىء من نفسى • وان قوى الارادة ، والاحساس ، والتصور الخ لا يمكن أن يقال عنها قولا صحيحا انها أجزاء النفس ، لان النفس التى تتصرف بتمامها فى الارادة ، وتتصرف بتمامها فى الاحساس والتصور ،

---

(١) أنظر التعليقات ص ٥٣ ــ ٥٥

هى واحدة بعينها · ولكن الامر على نقيض هذا فيما يتعلق بالاشياء الجسمية أو المتحيزة لانني لا أقدر على أن أتخيل منها شيئا واحدا، مهما كان صغيرا ، لا يسهل على تجزئته فى الوهم ، أو لا يقسمه عقلى بسهولة كبيرة الى أقسام كثيرة وبالتالى لا أعرف أنه غير قابل للقسمة » (١) ·

ويوجد ما يشبه هذه الحجة عند أفلاطون الذى يقول بأنه من الضرورى ، لجمع الصور الحسية المختلفة والمعانى والمقارنة بينها ، أن يوجد مبدأ واحد بسيط هو النفس (٢) · وكذلك لم تكن الحجة مجهولة عند العرب فى العصور الوسطى ، اذ أن ابن سينا كتب فصلا عن وحدة النفس ، يظهر فيه تأثير أفلاطون وهو يقول فيه ان قوى النفس المختلفة يجب ان تجتمع كلها عند ذات واحدة هى المبدأ لها ، وأن قوى الشهوة أو الحس والغضب (وهذه لغة افلاطون فى تقسيمه قوى النفس) تؤدى الى مبدأ واحد ، وليس المراد من قولنا اننا أحسسنا فغضبنا أن شيئا منا أحس وشيئا منا آخر قد غضب ولكن المراد أن الشىء الذى أدى اليه الحس هذا المعنى عرض له ان غضب (٣) ·

وكذلك حكى ابن حزم عن بعض الفلاسفة أن « النفس عند هؤلاء جوهر قائم بنفسه حامل لاعراضه لا متحرك ولا منقسم ولا متمكن أى لافى مكان » (٤) ·

وكذلك عرض الغزالى عشرة براهين للفلاسفة فى القول بأن

---

(١) التأملات السادسة ١٢

(٢) هملان مذهب ديكارت ٣ ص ٢٥٨

(٣) النجاة ص ٣١٠ ـ ٣١٥ طبعة القاهرة ١٣٣١

(٤) الفصل فى الملل والنحل ج ١ ص ٢٧ طبعة القاهرة ١٣٤٧

النفس جوهر غير متحيز ولا منقسم (١) • ومع أنه لا ينكر هذا المذهب « انكار من يرى أن الشرع جاء بنقيضه » الا أنه ينكر على الفلاسفة « دعواهم دلالة مجرد العقل عليه والاستغناء عن الشرع فيه » وأهم مافى هذه البراهين العشرة هو أنه قد يحل فى النفس من العلم ما لايقبل القسمة مثل الكليات المجردة واذن يكون محله وهو النفس غير منقسم •

والحجة الثالثة هى قوله بوجود معقولات خالصة غير محتاجة لتدركها النفس الى وجود مادة ، ومعنى هذا استغناء النفس فى هذا الادراك عن الصورة التى تدركها الحواس (وهى آلات جسمية) ويحفظها الخيال (وله عند علماء العصور الوسطى وعند ديكارت آلة جسمية أيضا أنظر ص ٩١ و ٩٢) • وانما تدرك النفس هذه المعقولات بالنور الفطرى • وهو يعنى بهذه المعقولات الأوليات البسيطة مثل هذه القضية : اذا ساوى شيئان كل منهما شيئا ثالثا كانا متساويين (٢) • واذن يكون هذا برهانا على استقلال النفس عن البدن •

وأقواله فى هذه الحجة قليلة وهو ينقض فيها دعوى الماديين القائلين بأن الفكر من عمل المخ (٣) • وكانت هذه الحجة هى حجة الروحيين فى العصور الوسطى وقد استعان بها كما استعان بسابقتها ليثبت تميز النفس عن البدن • ويلاحظ أنه صبغهما بصبغة مذهبه ، ولم يأخذهما على صورتيهما الأولى ويكفى أن يتأمل القارىء مقدار الفرق بين الثانية على نحو ما يبسطها وبينها على نحو

---

(١) مقاصد الفلاسفة ص ٢٩٢ وما بعدها طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ وتهافت الفلاسفة ص ٣٠٤ وما بعدها من طبعة بويج Bouyges بيروت سنة ١٩٢٧ وص ٧١ وما بعدها طبعة القاهرة سنة ١٣٢١

(٢) راجع القواعد لقيادة العقل القاعدة الثانية عشر

(٣) هملان مذهب ديكارت ص ٢٦٠ لاسيما التعليقة الثانية

ماهي عليه عند أفلاطون وفلاسفة العرب ليتبين مقدار عمل ديكارت ·

ويستنتج من هذا التمييز بين النفس والبدن أنهـا ليست عرضة للفناء مثله وانها خالدة لا تقبل الموت معه (١) · وهو لايبرهن على خلود الروح ببراهين خاصة ، مع عنايته الشديدة بهذه المسألة حتى انه ليجعلها من الموضوعات التى تكون علم ما بعد الطبيعة (٢)، وذلك لانه يرى أنها من اختصاص الدين والوحى ، ومن رأيه أن الحقائق الدينية التي يأتى بها الوحى هى فوق الفهم ، ومن الحكمة ألا تسلم الى ضعف الاستدلالات العقلية (٣) ·

- ٥ -
اثبات وجود الله

بعد أن يثبت ديكارت تميز النفس عن البدن بالحجة الأولى ، ينتقل الى البحث عما ينبغى لقضية من القضايا لتكون يقينية ، أى الى البحث عن معرفة ما يتكون منه اليقين · يقول انه وجد قضية عرف أنها يقينية ويعني بها مبدأه الأول أنا أفكر ، اذن فأنا موجود ، ثم يلاحظ أنه لا شيء فيها يجعله يثق من أنه يقول الحق الا كونه يدرك ما يقول ادراكا واضحا متميزا (٤) ، واذن فهو يستطيع الاطمئنان الى أن يتخذ قاعدة عامة أن الأشياء التى تتصورها تصورا قوى الوضوح والتميز هي جميعا حقيقية (٥) ، أى واقعية ســواء من

---

(١) المقال عن المنهج ص ٩٨

(٢) مبادىء الفلسفة ٦ المقدمة

(٣) المقال ص ١٢

(٤) انظر حده للمعرفة الواضحة والمعرفة المتميزة في ص ٣١ التعليقة الاولى

(٥) المقال ص ٥٨ ومطلع التأملات الثالثة ١٢

جهة الوجود أو الماهية (التعقل) ، اذ أنه يرى أن الماهيات والصور الذهنية على العموم هى موجودات لانها تقوم فى الذهن وتفكر فى النفس (١) .

بعد ذلك ينتقل الى اثبات وجود الله ويختص . فى البرهان على هذا حجج ثلاث نوجز شرحها على حسب ترتيبها فى المقال (٢) .

الأولى : فكر فى شكوكه واستنتج منها أنه ليس تام الكمال، لأن المعرفة شيء أكمل من الشك ما دام الشك قصورا عن ادراك الحقيقة ، ولكن معرفته أنه ليس تام الكمال تفيد تفكيره فى شيء تام الكمال (٣) ، واذن فهو يريد أن يعرف أنى جاءه هذا التفكير . هنا يستعين ديكارت بمبدأ العلية ويقول ان علة تفكيره فى شيء أكمل منه يجب أولا — أن تكون موجودة ، ثانيا — أن يكون فيها من الكمال أكثر مما فى المعلول (٤) . واذن يستحيل أن تكون الصورة الذهنية للكمال التام مستمدة من العدم ، كما يستحيل أن تكون مستمدة من نفسه ، واذن لابد أن تكون قد ألقيت اليه بواسطة كائن طبيعته أكثر كمالا ، بل ولها من ذاتها كل الكمالات . هذا الكائن هو الله .

الثانية — بما أنه عرف أنه موجود غير تام الكمال ، اذن فهو ليس الكائن الوحيد فى الوجود ، اذ لا بد لوجوده من علة ، لأنه لو كان هو علة وجود نفسه ، لكان يستطيع أن يحصل من نفسه على

---

(١) أنظر ص ٧٠ والتعليقة الثانية في نفس الصفحة وفي الصفحة التالية

(٢) أنظر القسم الرابع من ص ٥٨ الى ص ٦٥ مع التعليقات عليها

(٣) أو غير منتهاه . أنظر ص ٦١ التعليقة الثانية لبيان سبق معنى غير المتناهى على معنى المتناهى

(٤) يقرب من هذا قول السهروردى « المعلول لا يكون أشرف من العلة » اقتبسه الاستاذ هرتن HORTEN في كتابه Die spekulative u. positive Theologie des Islam ص ١٨٣ ليبزج سنة ١٩١٢

كل ما يعرف أنه ينقصه من الكمالات ، لان الكمال ليس الا محمولا من محمولات الوجود ، والذى يستطيع ان يهب الوجود يستطيع ان يهب الكمال . واذن تكون علة وجوده ذاتا لها كل ما يتصور من الكمالات وهذه هى ذات الله .

الثالثة — نظر الى الهندسة ولاحظ أن كل ما يعزوه الناس الى براهينها من يقين انما يقوم على أنها تتصور بوضوح وتميز تبعا لقاعدته العامة . ولكن لا شىء فى هذه البراهين يؤكد لنا وجود موضوع الهندسة الذى هو الكم المتصل المتحرك ، فمثلا اذا فرضنا مثلثا نستطيع أن نثق بفضل البرهان الهندسى أن زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتين ، ولكن هذا لا يستطيع أن يجعلنا على ثقة من أن فى العالم مثلثا ، على حين أنه عند امتحان ما عندنا من صورة ذهنية لموجود تام الكمال ، نرى أن الوجود داخل فيها على نحو ما يدخل فى الصورة الذهنية لمثلث أن زواياه الثلاث مساوية لقائمتين . ومحصل هذا كله أن معنى الكمال المطلق ، أو معنى غير المتناهى يشتمل على معنى الوجود . واذن يبيح لنا القول بأن الله حاصل على كل الكمالات أن نستنتج أنه موجود وان نثق من ذلك أكثر من ثقتنا فى أى برهان هندسى .

***

بعد ذلك يقول ديكارت ان قاعدته العامة : الأشياء التى نتصورها تصورا جد واضح وجد متميز هى جميعا حقيقية ، ليست ثابتة الا لأن الله كائن أو موجود (١) ، وأنه على نحو ما أثبت ، مصدر الجود والصدق ، ومن المستحيل أن يخدعنا ، ويقول أيضا « ان معرفة الله والنفس جعلتنا على ثقة من هذه القاعدة » (٢) . ولكننا لاحظنا أنه

---

(١) المقال ص ٧٠

(٢) المقال ص ٧١

أثبت وجود الله معتمدا على قاعدة وضوح المعـانى وتميزها ، ومعنى ذلك أنه ارتكب ما يسمى فى المنطق بالدور ٠

لم يفت معاصرو ديكارت أن يلاحظوا ذلك، وكان ممن انتقدوه جاسندى الذى كتب اليه «انك تسلم بأن الصورة الذهنية الواضحة المتميزة حقيقية ، لأن الله موجود ، ولأنه خالق هـذه الصورة وهو ليس خادعا ،وأنت تسلم من جهة أخرى أن الله موجود وبأنه خالق حق لانك حاصل على صورة ذهنيـة له متميزة واضحة ٠ ان الدور واضح » (١) ٠ وقد رد الفيلسوف على كل المعترضين بما لا يتعدى المعنى التالى « ثم اننى بينت بوضوح لا بأس به فى ردودى على الاعتراضات الثانية ، أننى لم أقع فى الخطأ المسمى بالدور ، عندما قلت اننا لسنا على ثقة من أن الأشـياء التى نتصورها تصورا شديد الوضوح والتمييز هى جميعا حقيقية الا لأن الله كائن أو موجود ، وأننا لسنا متأكدين من أن الله كائن أو موجود الا لأننا نتصور ذلك بوضوح وتميز شديدين ، وذلك بتمييزى بين الاشياء التى نتصورها فى الواقع تصورا واضـحا جدا وبين الاشـياء التى نتـذكر أننـا تصورناها فيما سبق بوضوح شديد ذلك لأنه ، أولا ، نحن على ثقة من أن الله موجود لأننـا نوجه انتبـاهنا الى الحجج التى تثبت لنـا وجوده ٠ ولكن يكفى بعد ذلك أن نتذكر أننا تصورنا شيئا تصورا واضحا لنكون على ثقة من أنه حقيقى ، وهذا لا يكون كافيـا اذا لم نعرف أن الله موجود ، وأنه لا يمكن أن يكون خادعا » (٢) ٠

ومعنى هذا أنه يميز بين المعرفة البديهية وبين المعرفة النظرية التى تحتاج الى الذاكرة، والاخيرة هى التى لايمكن أن تكون صحيحة الا لأن الله موجود وأنه حق ٠ ونحن نكتفى فى نقض اتهامه بالدور

---

(١) الاعتراضات الخامسة ١٢

(٢) الردود على الاعتراضات الرابعة ١٢

بدفاعه عن نفسهويضطرنا تعمد الايجاز الىاغفال دفاع غيره والمسائل التى يثيرها الجدل فى هذا الموضوع ٠

— ٦ —

منهج ديكارت

(أ) تحليل المعرفة أو البداهة والقياس

بحث ديكارت عن منهج واحد من المستطاع استخدامه فى كل البحوث ، مهما اختلفت موضوعاتها ، لأجل الوصول الى الحقيقة ٠ ومن أجل هذا نظر فى العلوم التى درسها ووازن بين حججها وبراهينها فوجد أن أكثرها تأكدا ويقينا هى براهين الرياضيات ولما كان يعتقد بأن العقل الانسانى واحد ، فانه لم يجد سببا لهذا الاختلاف بين العلوم فى مراتب اليقين ، الا اختلاف المناهج التى يسلكها الباحثون فى العلوم المختلفة ،وأيقن أنه لو طبق على كل علم المنهج الذى يتبعه الرياضيون فى الوصول الى براهينهم ، لبلغت العلوم درجة الرياضة من حيث استقرار النتائج ولم يبق شىء يبرر اختلاف العلماء ومجادلاتهم ٠

صمم ديكارت عزمه على أن يعرف كيف يتصرف العقل فى طريقة البرهان الرياضى ، أى أنه عزم على أن يحلل المنهج الرياضى الى عناصره العقلية ، فلم يتعسر عليه أن يشاهد أنه ينحصر فى استنباط النتائج استنباطا عقليا ، أى فى القياس Déduction ولكن القياس لا يبدأ من غير أن يسبقه عمل عقلى آخر ، اذ أنه لكى يكون يقينيا وبرهانيا بالمعنى الصحيح ، يجب أن يبدأ سيره من أشياء بسيطة يسلم بها العقل ، والعمل الذى به يفرض العقل على

نفسه هذه الاشياء البسيطة يسمى البداهة Intuition (١) وهو يرى أنه ليس للمعرفة الصحيحة غير سبيلين هما البداهة والقياس (٢) • وهو يقول في حده للبداهة : « لا أعني بالبداهة الاعتقاد في شهادة الحواس المتغيرة ، أو أحكام الخيال الخادعة ••• ولكني أعني بها تصور النفس السليمة المنتبهة تصورا هو من السهولة والتميز بحيث لا يبقى أي شك فيما نفهمه ، أي التصور الذي يتولد في نفس سليمة منتبهة عن مجرد الانوار العقلية » وعلى

---

(١) يستعمل بعض أساتذة الجامعة المصرية كلمة « الحدس » ترجمة لكلمة Intuition • ونحن لم نأخذ بهذا الاستعمال لسببين : الاول لأن كلمة الحدس تثير كثيرا من الشبهة اذ أنها تفيد عند مناطقة العرب « حركة الى اصابة الحد الاوسط اذا وضع المطلوب أو اصابة الحد الاكبر اذا أصيب الاوسط ، وبالجملة سرعة الانتقال من معلوم الى مجهول كمن يرى تشكل استنارة القمر عند أحواله قربه وبعده عن الشمس فيحدس أنه يستنير من الشمس » (ابن سينا النجاة ص ١٣٧) • وهذا مخالف كل المخالفة لما يعنيه ديكارت بال intuition كما سيأتي بيانه عن قريب • وقد ترجم الاستاذ هرتن HORTEN كلمة الحدس في معناها المذكور بكلمة Scharfsinn أي الامضاء في الفهم ، كما أن الاستاذ أورد معانيها المختلفة وأورد مايقابل هذه المعاني من كلمات في اللغة الالمانية ولم يترجمها بكلمة intuition الا عندما يكون المقصود بها « النفس القدسية » أي عندما تصبح الكلمة من لغة الصوفية الذين يخالفون الفلاسفة فيما لهم من معان ومقاصد (أنظر Die spekulative u. positive Theologie des Islam ص ١٤٨ و ٢٩١ وراجع أيضا الجرجاني **التعريفات** عند كلمة النفس القدسية) • والسبب الثاني أن لكلمة intuition في الفلسفة الاوربية معاني متعددة ويعني ديكارت بها معنى خاصا رأينا أنه يطابق مفهوم كلمة « بداهة » في اللغة العربية واستعملناها باعتبارها العمل العقلي الخاص بادراك البديهي ، وهو كما يعرفه صاحب **كشاف الاصطلاحات** « يطلق على معان منها مرادف للضروري المقابل للنظري • ومنها المقدمات الاولية وهي ما يكفي تصور الطرفين والنسبة في جزم العقل به وبعبارة أخرى مايقتضيه العقل عند تصور الطرفين والنسبة من غير استعانته بشيء » ج ١ ص ١٥٨

(٢) **القواعد لقيادة العقل** القاعدة الثانية عشرة

هذا النحو يستطيع كل انسان أن يرى بالبداهة أنه موجود وأنه يفكر ، وأن المثلث محدود بثلاثة خطوط ، وأنه ليس للكرة الا سطحا واحدا ، وغير ذلك من الحقائق المشابهة التى هى أكثر عددا مما يعتقد فى العادة » (١) ٠

وتختص البديهة بادراك الأشياء البسيطة ، والبسيط عند ديكارت ما ليس له أجزاء فاما أن يعرف كله أو يجهل كله ، وعلى ذلك تكون البداهة هى العمل الذى به نعرف المبادىء الأولى (٢) ٠

ويفيد القياس عنده النظر على العموم أى كل أنواع الاستنباط وهو يعرفه بأنه العملية التى يستنبط بها شىء من شىء آخر (٣) ومعنى ذلك المرور من حد الى حد آخر يتلوه أو ينتج عنه مباشرة وبالضرورة ٠

ويلاحظ أنه بالبداهة تعرف الطبائع البسيطة ، ولكن المركبة تدرك بالقياس ، ثم ان القياس متتابع ، ولكن البداهة وقتية (٤) ، والقياس يستمد ماله من يقين من الذاكرة ، بينما تمتلك البداهة يقينا حاضرا (٥) ٠ ثم ان البداهة لا غنى عنها فى القياس عند الانتقال من حد الى حد ، بل ويرى الاستاذ هملان أن استنباط النتيجة هو بداهة وهو يذهب فى ادماج القياس بالبداهة الى حد قوله ان نظرية ديكارت فى المعرفة تتلخص فى القول بأن المعرفة هى ادراك طبائع بسيطة ببداهة لا تضعف وادراك الروابط بين هذه الطبائع البسيطة ، التى ليست فى ذاتها الا طبائع بسيطة (٦) ٠

---

(١) نفس الكتاب القاعدة الثالثة

(٢) نفس الكتاب القاعدة الثانية عشرة وهنكان **منهج ديكارت** ٢ ص ٧٦٢

(٣) **القواعد لقيادة العقل** القاعدة الثانية

(٤) هملان **مذهب ديكارت** ٣ ص ٨٠

(٥) هنكان **منهج ديكارت** ٢ ص ٨٦١

(٦) هملان **الكتاب المذكور** ص ٨٢ و ٨٧ و ٨٨

(ب) القواعد الاربع

بعـــد أن أوجزنا شرح التحليـــل الديكارتى للعمليتين اللتين يقوم بهما فى سبيل المعرفة : العقل بأقوى معناه Le Bon Sens نريد الآن أن نلم بقواعد منهجه التى سردها فى القســـم الثانى من **المقال عن المنهج** ·

يعنى ديكارت بالمنهج «قواعد وثيقة سهلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يؤخذ الباطل على أنه حق ، وتبلغ بالنفس الى المعرفة الصحيحة بكل الاشياء التى تستطيع ادراكهـــا ، دون أن تضيع فى جهود غير نافعة ، بل وهى تزيد فى ما للنفس من علم بالتدريج » (١) ·

وهو يرى أنه كلما اتجهنا نحو البســـاطة وكلما اقتصرنا فى نشـــاطنا العلمى على النور الفطرى كان وصـــولنا للحقيقة آمن وأيسر · وذلك لانه يقول ان النفس تشتمل على شىء الهى أودعت فيه البذور الأولى للأفكار النافعة ، واذا أثقلت هذه البذور بالدروس المعقدة ، لم يجن منها الا ثمرات غثة لا يرجى منها نفع دائم أو خير مقيم (٢) · ومن هذه الناحية قال انه شـــاهد أن تعدد القوانين فى الدولة كثـــيرا ما يهيىء المعـــاذير للنقائص (٣) ، وعلى ذلك رأى أن يستبدل بتعليمات المنطق الكثيرة المعقدة أربع قواعد سهلة بسيطة من المستطاع تطبيقها بنجاح فى كل أنواع البحوث النظرية ·

الاولى وتسمى قاعدة اليقين ونصها هو « ألا أقبـــل شيئا على أنه حق ، ما لم أعرف يقينـــا أنه كذلك : بمعنى أن أتجنب بعناية التهور ، والسبق الى الحـــكم قبل النظر ، وألا أدخل فى أحكامى الا

---

(١) **القواعد لقيادة العقل ١** القاعدة الرابعة

(٢) **نفس الموضع** وراجع للوقوف على مراده ببذور الافكار صفحة ١٠٣ من المقال مع التعليقة الواردة فى نفس الصفحة ·

(٣) أنظر صفحة ٢٩ و ٣٠ والتعليقة الواردة فى تينك الصفحتين

ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز ، بحيث لا يكون لدى أي مجال لوضعه موضع الشك » (١) ٠

وفي اعتقادي أن المعرفة التي تنطبق عليها هذه القاعدة هي البداهة لأن المعرفة البديهية تمتاز بالبساطة والوضوح والتمييز ، ثم لانها ، كما سبق القول في القسم الاول من هذا الفصل، تشتمل على يقين حاضر ، أي الاعتقاد الجازم بأن موضوع المعرفة هو كذا مع الاعتقاد في نفس الوقت بأنه لا يمكن أن يكون الا كذا (٢) ، مثل القول بأن للمثلث ثلاثة أضلاع ، وأنه اذا تساوى شيئان كل منهما ساوى شيئا ثالثا كانا متساويين وغير ذلك ٠

القاعدة الثانية تسمى بقاعدة التحليل وبها ينبغي أن تقسم المعضلة التي تدرس الى أجزاء بسيطة على قدر ماتدعو الحاجة الى حلها على خير الوجوه (٣) والواقع أن هذه القاعدة متصلة بالتالية ، حتى ان ديكارت جعلها في القواعد (وهي مكتوبة قبل المقال) قاعدة واحدة حيث قال « ينحصر المنهج بأجمعه في أن نرتب وننظم الاشياء التي ينبغي توجيه العقل اليها لاستكشاف بعض الحقائق ٠ ونحن

(١) أنظر ص ٣٠ و ٣١ وراجع التعليقات في تينك الصفحتين لشرح مايقصده ديكارت بالتهور والسبق الى الحكم قبل النظر والجلاء والتميز

ومما يجدر بالذكر أنني اخترت كلمة التهور ترجمة لكلمة Précipitation لانني راعيت الاصل التاريخي لهذا المعنى ، اذ أن القديس توماس الا كيني سبق ديكارت الى هذا المعنى في علم الاخلاق فقال عنه انه رذيلة تقابل فضيلة التروى والمشورة التي هي تابعة لفضيلة الحزم ٠ وعلى ذلك يكون التهور عند القديس توماس من عيوب الارادة وعند ديكارت من عيوب العقل أنظر جلسون **التعليق** ٤ ص ١٩٨ و ١٩٩

(٢) أنظر لتعريف اليقين **كليات أبي البقاء** ص ٢٥ طبعة القاهرة سنة ١٢٨١ هـ **وكشاف الاصطلاحات** صفحة ١٥٤٧ وقارن ذلك بما جاء في معجم **الفلسفة** ١١ للاستاذ لالاند تحت كلمة Evidence

(٣) **المقال** ص ٣١

فتتبع هذاالمنهج خطوة خطوة ، اذا حولنا بالتدريج القضايا الغامضة المبهمة الى قضايا أبسط ، واذا بدأنا من الادراك البديهى لأبسط الاشياء كلهاex omnium simplicissima rum intuitu فاننا نجتهد أن نرقى بنفس الدرجات الى معرفة سائر الأشياء » (١) ٠

القاعدة الثالثة تسمى بقاعدة التأليف أو التركيب ويعبر عنها بقوله : « أن أسير أفكارى بنظام ، بادئا بأبسط الامور وأسهلها معرفة كى أتدرج قليلا حتى أصل الى معرفة أكثرها تركيبا ، بل وأن أفرض ترتيبا بين الامور التى لا يسبق بعضها الآخر بالطبع»(٢) ٠ وقد ذهب الاستاذ هملان الى أن هذه القاعدة هى أساس المنهج الديكارتى ، وأنها أظهر القواعد أثرا عند تطبيق ديكارت لمنهجه على المعضلات (٣) ، كما أن الاستاذ برنشفيك ينبه الى أن كل الذين درسوا ديكارت ومنهم جلسون لم يعنوا بقوله « كى أتدرج قليلا قليلا » العناية الواجبة اذ ما الذى يميز المعادلات الرياضية غير التدرج شيئا فشيئا ؟ ويرى أن ديكارت يقصد من هذه العبارة التعبيرعن أمنيته الكبيرة وهى تطبيق المنهج الرياضى على كل العلوم٠ ثم ان ديكارت نفسه، كما رأينا فى النص الذى اقتبسناه من القواعد يشير بأهمية هذهالقاعدة حتى ليقول ان المنهجبأجمعه ينحصر فيها٠ وهو يرى أيضا أن العالم الذى لا يتبع هذه القاعدة فى الترتيب مثله كمثل الرجل الذى يريد أن يرقى منزلا من أسفله الى أعلاه فيحاول أن يثب وثبة واحدة ، ضاربا الصفح عن السلم المجعول لهذه الغاية، أو غير مبصر اياه (٤) ٠

والقاعدة الأخيرة تسمى بقاعدة الاستقراء التام أو الاحصاء أو

---

(١) القواعد لقيادة العقل ١ القاعدة الخامسة

(٢) المقال ص ٣١ و ٣٢ مع التعليقات عليها

(٣) هملان مذهب ديكارت ٣ ص ٧٠ و ٧١

(٤) القواعد ١ الخامسة

التحقيق ، وهو يعرضها فى هذه العبارة الموجزة : « أن أعمل فى كل الاحوال من الاحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلنى على ثقة من أنى لم أغفل شيئا » (١) .

والغرض من هذه القاعدة تكميل العلم وذلك بأن نمر بحركة فكرية متصلة على كل الموضوعات التى تتصل بغرضنا ، وأن نحيط بها فى احصاء كاف ومنهجى (٢) وفى الواقع انه قد تتعدد حدود الاستدلال فى مسألة من المسائل بحيث يصبح من المستحيل أن نصل بالبداهة الى اقامة علاقة بين الحد الاول والحد الاخير أى أن الوصول الى النتيجة لا يكون من عمل البداهة . واذن فوظيفة هذه القاعدة هى مراجعة الصلات أو الروابط الموجودة بين الحلقات التى تكون سلسلة الاستدلالات ، فاذا تأكدنا من وثاقة اتصالها جاز لنا أن نحكم حكما صحيحا ويصبح هذا الحكم بالغا من اليقين ما تبلغه البداهة . ويجب أن تكون عملية الاستقراء التام متصلة غير منقطعة، اذ لو أننا أهملنا حلقة من الحلقات التى تتكون منها سلسلة الاستدلالات لانقطعت السلسلة ولما تبقى شىء من اليقين . ثم يجب أن يكون الاستقراء التام وافيا حتى نستطيع به أن نبلغ اليقين ، اذ أننا فى هذه القاعدة عرضة لتضليل الذاكرة ، واذن يجب مع احاطتنا بكل سلسلة القضايا أن ننتبه الى تميز كل واحدة عن الأخرى حتى لا يتطرق الغموض والابهام الى معرفتنا (٣) .

ويرى مما سبق أن قواعد المنهج الثلاث الاخيرة كلها متصلة بعضها مع بعض ففى عملية الاستقراء التام نجد التحليل والتركيب

---

(١) المقال ص ٣٢ والتعليقة الثانية في نفس الصفحة . وأنا أنبه هنا الى انه يعنى بقوله « كل الاحوال » حالتى التحليل والتركيب ، أى فى القاعدة الثانية والثالثة .

(٢) القواعد ، عنوان القاعدة السابعة

(٣) القواعد ، القاعدة السابعة

كما أن الاستقراء التـام يحقق التحليل والتركيب ويساعدهما على الاستكشاف • وكذلك رأينا أنه أدمج التحليل والتركيب فى قاعدة واحدة فى كتابه القواعد •

- ٧ -
الأخـلاق

بعد أن شرحنا مذهب ديكارت فى علم ما بعد الطبيعة ، الذى هو فى رأيه أول العلوم ، لانه يشتمل على مبادىء المعرفة الصحيحة، وبعد أن تكلمنا عن منهجه الذى يحتوى على تحليل وسائل المعرفة ، وبيان الطرق التى تؤدى بالعقـل الى بلوغ الحقيقـة فى كل بحث ، على نحو ما يفعل الرياضيون فى الوصول الى أوثق براهينهم ، نريد الآن أن نتكلم قليلا عن مذهبه فى علم الاخلاق الذى هو عنـده آخر مراتب الحكمة والعلوم ، اذ يستلزم البحث فيه احاطة تامة بسـائر أنواع المعرفة • ونحن، فى سبيل الايجاز، نعتذر للقارىء على تركنا الكلام عن رياضياته وطبيعياته فى هذه المقدمة ، مكتفين بالقليـل الذى كتبه عنها فى **المقال عن المنهج** وبتعليقاتنا عليها •

نحن نعرف الآن مبلغ حمـاسة ديكارت فى رغبتـه أن يجدد الفلسفة والعلوم ، وقد رأى الفيلسوف أن يبنيها على أساس جديد قوى بدل أن يكتفى بترقيع البناء القديم القائم على أساس ضعيف• وفى سبيل هذا تخلص من كل الآراء القديمة التى وجد أنها موضع شك ، حاشا ما يختص بالدين لان حقائقه موحى بها ، وأخذ يبحث بعد هذا عن قواعد قوية للعلم وعن طريقة قويمة لتكوينه • ولـكنه تمثل بالحكمة القديمة : **الحياة أولا ثم الفلسفة** Primo vivendi, deinde philosophare • وقال اننـا اذا شئنا تجديد المسكن الذى نقيم فيه ، وجب علينا قبل هدمه أن نجد منزلا آخر نأوى اليه أثناء العمل فى مسكننا • وكذلك لما كانت السعادة والنجاح فى الحيـاة

العملية لا يجتمعان مع الشك والتردد ، فقد رأى أن يضع لنفسه قواعد للاخلاق مؤقتة (١) ٠

وقد بينت فى تعليقاتى على مطلع القسم الثالث من **المقال** ماذا يقصد ديكارت بقوله **قواعد مؤقتة** ٠ ومما يؤسف له أن الكثيرين فهموا من هذا التعبير أنه كان ينوى العدول عنها ، والواقع مخالف لذلك ، اذ أنه يسميها أخلاقا مؤقته لانه لم يكن قد انتهى من بنائه لهيكل العلوم بعد، وهو يرى ان موضع الاخلاق فى قمة هذا الهيكل ٠ واذن لو أنه كتب شيئا عن الاخلاق قبل أن ينتهى من كل العلوم لكان اسم هذا الشىء مؤقتا ٠ وتعتبر هذه القواعد مؤقتة أيضا لأنها كافية للانسانية قبل أن تبلغ علومها غاية الكمال ٠ وقد كان ديكارت على ثقة من أن ما بقى له من الحياة لن يتسع لتطبيقه منهجه على كل العلوم ، أى لتجديدها ، ولكنه مع ذلك كان شديد العناية بعلم الاخلاق حتى قال صديقه كليرزليه « ان نصيب الاخلاق من تفكيره كان أكبر الموضوعات نصيبا » (٢) ٠

تتلخص أخلاق ديكارت المؤقتة فى ثلاث قواعد (٣) :

الاولى : أن يطيع الانسان قوانين بلاده وأن يحترم عاداتها ، مع الثبات على الديانة التى نشأ عليها ، وأن يدبر شئونه فى سائر الامور تبعا لاكثر الآراء اعتدالا ، التى أجمع على الرضاء بها أعقل الذين يعيش معهم ٠

الثانية : أن يكون أكثر ما يستطيع ثباتا فى أعماله ، وأن يتجنب الشك والتردد فى سياسته ، مثله فى هذا مثل المسافرين الذين يضلون فى غابة ، اذا اتبعوا وجهة واحدة فى سيرهم خرجوا

---

(١) المقال عن المنهج ص ٣٧ والتعليقات في ص ٣٧ و ٣٨

(٢) بايبه حياة السيد ديكارت BAILLET La Vie de Monsieur Descartes ج ١ ص ١١٥

(٣) المقال من ص ٣٧ الى ٤٣

من الغابة ونجوا ، أما اذا ضربوا فيها ههنا مرة ، وها هنا مرة أخرى أو وقفوا فيها ضعف أملهم فى النجاة والسلامة ٠

الثالثة : أن يجتهد فى مغالبة نفسه ، وحد رغباته وشهواته لا فى مغالبة الحظ أو مقاومة القدر ٠ لأن أفكارنا ملك لنا نستطيع أن نتحكم فيها كما نشاء وبهذا نستطيع الا نأسف لحرماننا من الاشياء التى لا نقدر على نوالها ٠ وعلى هذا النحو نستطيع أن ننعم بالغنى والقوة والحرية وكل أنواع السعادة ٠

ولا أريد أن أكرر هنا ما كتبته تعليقا على هذه القواعد ٠ ولكننى أنبه الى تمييز ديكارت بين عمل العقل فى النظريات وعمله فى الاخلاق والاشياء العملية : فى النظريات يطرح كل ما يحتمل أقل شك ويتخلص من كل ما ليس الا محتملا ٠ أما فى الاخلاق فانه اذا عزم على عمل واتضح له وهو فى أثناء تنفيذه أنه مخطىء فى رأيه فان العقل يأمره أن يستمر فى عمله حتى ينتهى الى النتيجة (١) ٠ واذا تساوت الآراء أمامه فى الرجحان عليه أن يتمسك ببعضها وألا يعتبرها بعد هذا موضعا للشك باعتبارها متصلة بالعمل بل علينا أن نعتبرها جد حقيقية ووثيقة لأن العقل الذى ألزمنا بها هو نفسه كذلك (٢) ٠

كنا نريد أن نتكلم عن تأثير ديكارت فى العمران وكيف صدرت عن فلسفته كل المذاهب الفلسفية الحديثة ولكن المجال لا يتسع لمثل هذا ونرجو أن نقدر على ذلك فى عمل آخر ان شاء الله ٠ والآن فلنقدم للقراء كتابه **المقال عن المنهج** ٠

---

(١) المقال ص ٤٠

(٢) ص ٤١

المقال عن المنهج

في سنة ١٦٣٧ ظهر في ليدن ، احدى مدن هولندا الكبيرة ، كتاب مقال عن المنهج لاحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم • ويليه علم انكسار الأشعة وعلم الأنواء والهندسة وهي تجارب لهذا المنهج •

وكان نص العنوان كما يلي :

DISCOURS DE LA METHODE
Pour bien conduire sa raison et chercher la vérité
dans les sciences
plus
LA DIOPTRIQUE, LES METEORES
ET LA GEOMETRIE
Qui sont des essais de cette METHODE

ولم يظهر اسم المؤلف على الكتاب ، لانه كان عدوا للشهرة ، ثم لان خلو الكتاب من اسم مؤلفه كان أمرا مألوفا في هذا الزمن ، ولكن الظاهر أن الكتاب لم يقرأه قارىء في هذا العهد دون أن يعرف أن مؤلفه رينه ديكارت الفيلسوف الفرنسي الذي هجر وطنه ، واعتزل أهله ومعارفه ، وطلب الوحدة في هولندا ليفكر في هدوء واطمئنان لا يكدرهما أحد • وكان ديكارت ينوي ان يجعل عنوان المقال ، **مشروع علم شامل يستطيع ان يرقى بطبيعتنا الى أعلى مرتبة لها من مراتب الكمال** ، ولكنه شم رائحة الغرور تنبعث من هذا العنوان فعدل عنه وآثر الذي ظهر به الكتاب •

ولكن **المقال عن المنهج** لم يكن الا مدخلا للرسائل الثلاث التي تتلوه ، لهذا ما كاد معاصرو ديكارت ينتهون منه على نحو ما ينتهي القراء من مقدمة أي كتاب ، حتى تخطوه الى ما بعده فاستفادوا من

الرسائل مايستفيد أهل العلم من أحدث البحوث التى تمد المعارف بجديد ، وتزيد فى الثروة العقلية للانسان • على أن الطبيعيات التى أمدها فيلسوفنا ببحثيه عن انكسار الاشعة وعن الانواء ، والرياضيات التى اشترك فى بنائها بهندسته ، قد تجاوزت الآن تصوراته ولم يعد لهذه البحوث أكثر من قيمتها التاريخية أما **المقال** فقد تحول انتباه الناس اليه ، وأخذ يبدو لهم كلما تهذب الفكر الحديث وترقى فى وعيه بنفسه ، أنه يشتمل على أصح حد للفلسفة، وتعيين غاياتها فى العمران ، وبيان ما تختص به من أنحاء وطرق •

وما زال المقال ، كلما أمعن فى درسه طلاب العلم : يجدون فيه أشياء جديدة ؛ حتى لقد قال عنه عالم ألمانى هو الدكتور ينكمن K. Jungmann عندما يقرأ الانسان **فاوست** جويته لا بد أن يتذكر **المقال عن المنهج** لديكارت اذ يظهر فى العملين نفس النزعة غير المتناهية التى تطمح فى النفس الانسانية الى مزيد من الرقى والكمال » (١) •

وعزا الكثيرون الى هذا الكتاب الذى لم يكن الا مجرد مقدمة كل النهضات الفلسفية فى القرنين السابع والثامن عشر ، وذهب البعض الى أنه أساس المدنية الحديثة اذ جعلوا منه أصل الثورة الفرنسية فقال الاستاذ اميل بوترو E. Boutroux ان الثورة الفرنسية وليدة **المقال عن المنهج** لان المجتمع قد تجدد فى سنة ١٧٨٩ باسم مبدأ اليقين العقلى الديكارتى (٢) وكذلك استشهد الكاتب الكبير بول بورجيه Bourget على أن الافكار تحكم العالم بأن الثورة الفرنسية تصدر بأجمعها عن تصور الفلسفة الديكارتية للانسان (٣) • والمقصود بهذا التصور تحديد ديكارت للانسان بأنه شيء يفكر •

---

(١) رينه ديكارت مبحث في عمله ١٦ ص ٨ من الترقيم الرومانى

(٢) دروس في تاريخ الفلسفة ١٣ ص ٢٩٢ و ٢٩٣

(٣) قصة التلميذ Le Disciple ص ٤٩

ومنذ صدر المقال فى ليدن سنة ١٦٣٧ الى الآن وهو يعاد طبعه ويترجم الى اللغات المختلفة حتى لقد ترجم الى اللغة التركية • بل ان اللغات الاوربية الكبيرة تحتوى فى آدابها على أكثر من ترجمة واحدة له • وكثرت عناية العلماء والباحثين بشرحه والتعليق عليه • وأوفى هذه التعاليق هو ما نشره الاستاذ جلسون سنة ١٩٢٥ اذ يقع فى نحو الخمسمائة صفحة من القطع الكبير لا يشغل منها النص الا ثمانيا وسبعين ، طبعت بحروف كبيرة بخلاف التعليق فحروفه عادية • ومن الادلة على قيمة المقال أنه يدرس فى كل جامعات أوربا فى حجرات الدرس وهو مقرر أيضا على طلبة السنة الثالثة من قسم الفلسفة فى جامعتنا المصرية •

ولما رأيت عظيم العناية فى مصر وفى الشرق العربى بالاطلاع على الثقافة الغربية ، وشاهدت رغبة العقلاء فى مشاركة الأمم التى فاقتنا فى الحضارة فى المعارف التى يعتمد عليها هذا التفوق ، اقتنعت أن من الواجب على أن أنقل الى العربية هذا الكتاب الصغير فى حجمه، الكبير فى قيمته ، العظيم فى آثاره • وكان من الاسباب التى بعثتنى على اختيار هذا الكتاب والنهوض بترجمته مع صعوبة عبارته وتعسر نقله الى لغة أخرى هو رغبتى فى أن أعرض لقراء العربية نموذجا واضحا للفلسفة الصحيحة ولن يرى قراء العربية غموضا فى معانى ديكارت ، لأن فلسفته مثل للوضوح ، ثم انه لم يكن يكتب لطبقة معينة ، أو أمة خاصة ، أو جيل واحد ، بل كان يكتب فلسفة للجميع « حتى للأتراك (١) » كما يقول •

***

وأحب أن أنبه هنا الى أنى أخذت فى الترجمة والتعليق

(١) أعمال ديكارت مطبوعة أدام وتانرى ج ٥ ص ١٥٩ وتدل كلمة الاتراك في لغة هذا العصر على المسلمين عموما

بمبدئين : **الأول** : محافظتي على وحدة اللغة العربية وأعني بهذا أنني استعملت فى ترجمة الاصطلاحات الفلسفية الاوربية عين الاصطلاحات التى استعملها من قبل فلاسفة الاسلام للدلالة على نفس المعانى ، وأما الاصطلاحات الديكارتية فانني بحثت لها عن كلمـــات عربية خالصة تؤدى معناها ، ثم أردفتها فى التعليقات بتحديد ديكارت نفسه لمفهومها . **والمبدأ الثاني** : المحافظة على تجانس الادب العربى . وأقصد بهذا أننى اجتهـــدت فى أن لا أدع الكتاب الذى أنقله الى العربية غريبا فى الادب العربى الفلسفى ؛ ذلك بأننى اجتهدت فى أن أقرب بين كثير من المعانى الواردة فى **المقال عن المنهج** وبين معان لفلاسفة الاسلام فيها قول . وليس هذا من الغرابة فى شىء ؛ اذ أن ديكارت لم يخلق الفلسفة جمـلة واحدة ، بل استمد فى بنائه الفلسفى بعض الانقاض القديمة من فلسفتى الاغريق والعصـــور الوسطى ؛ وقد عرف العرب فلســفة الاغريق وترجموا ما وصـلهم منها الى لغتهم ؛ وشرحوه ونقدوه وزادوا عليــه وكذلك فعل علماء العصور الوسطى بما أخذوه عن العرب .

***

وأخيرا أقول اننى اعتمدت فى الترجمة على مطبوعة الاستاذين أدام Adam وتانرى Tannery لأعمـــال ديكارت التى نشرت فى باريس من ســـنة ١٨٩٧ الى ســـنة ١٩١١ برعاية وزارة المعـــارف الفرنسية ويقع **المقال عن المنهج** فى الجزء السادس منها من ص ١ الى ص ٧٨ وقد احتفظت بترقيم هذه الصفحات ووضعها على هامش الترجمة ، وأذكر أيضـــا أننى تصفحت الترجمة اللاتينية التى قام بها أتين دى كورسل Etienne de Courcelles (١) وقد راجعها

(١) ظهرت هذه الترجمة للمقال وانكسار الأشعة والأنواء فى امستردام سنة ١٦٤٤ وعنوان المقال كما يأتى =

ديكارت بنفسه وزاد فيها على النص الفرنسي بعض الزيادات أثبت
منها الكثير ووضعته بين قوسين هكذا (   ) ، وكذلك راجعت أثناء
النقل ، الترجمة الانكليزية للاستاذ فيتش Vietch (١) والترجمة
الالمانية للدكتور بوشناو Buchenau (٢) ، أما التعليقات والكتب
التى استفدت منها فهى مذكـورة فى بيان المراجـع والذى لم يرد
وصفه فى هذا البيان لقلة وروده فى الكتاب وصفته عند ذكره في
التعليقات أو فى النهاية مع المراجع ·

وانى أرجو من الله أن يوفقنى فى خدمة اللغة والوطن بأن أنقل
الى العربية ما أقدر على نقله من أهم ما كتبه أبطال الفلسفة الحديثة.

القاهرة في : ١٤ شوال سنة ١٣٤٨
١٥ مارس سنة ١٩٣٠

محمود محمد الخضيرى

Benati Descartes specimena philosophia. Dissertatio de Methodo recte regendae rationis, & Veritatis in scientiis investigandae

وهو منشور في المجلد السادس من الاعمال الكاملة

(١) Discourse on Method ومعها ترجمة لكتب أخرى لديكارت نشرت
في لندن وادنبرة عند William Blackwood وأولاده ، الطبعة السادسة عشر ١٩٢٥

(٢) Abhandlung uber die Methode في المجلد الاول من ترجمة أعمال
ديكارت الفلسفية التي نشرها في ليبزغ Felix Meiner

مقـــال عن المنهج

لأحكام قيادة العقل وللبحث
عن الحقيقة في العلوم ..

مقدمة

اذا بدا هذا المقال طويلا جدا بحيث لا يقرأ كله دفعة واحدة ، فمن المستطاع تقسيمه الى ستة أقسام : فى القسم الأول أنظار فى العلوم مختلفة • وفى الثانى أصول القواعد للمنهج الذى بحث عنه المؤلف • وفى الثالث بعض قواعد الأخلاق التى استنبطها من ذلك المنهج • وفى الرابع الأدلة التى يثبت بها وجود الله والنفس الانسانية وهى أركان مذهبه فيما بعد الطبيعة • وفى الخامس ترتيب مسائل الطبيعيات التى بحث فيها ، لا سيما تفسير حركة القلب وبعض معضلات أخرى تختص بالطب ثم التفرقة بين نفسنا ونفس الحيوان • وفى القسم الاخير بيان الأمور التى يعتقد المؤلف بالحاجة اليها للسير بدراسة الطبيعة الى أبعد مما انتهت اليه ، وبيان الأسباب التى بعثته الى الكتابة •

القسم الأول

العقل (١) هو أحسن الاشياء توزعا بين الناس (بالتساوى) اذ يعتقد كل فرد أنه أوتى منه الكفاية ، حتى الذين لايسهل عليهم أن يقنعوا بحظهم من شىء غيره ، ليس من عادتهم الرغبة فى (٢) الزيادة لما لديهم منه • وليس براجح أن يخطىء الجميع فى ذلك ، بل الراجح أن يشهد هذا بأن قوة الاصابة فى الحكم ، وتمييز الحق من الباطل ، وهى فى الحقيقة التى تسمى بالعقل أو النطق ، تتساوى بين كل الناس بالفطرة ، وكذلك يشهد بأن اختلاف آرائنا لا ينشأ من أن البعض أعقل من البعض الآخر ، وانما ينشأ من أننا نوجه أفكارنا فى طرق مختلفة ، ولا ينظر كل منا فى نفس ما ينظر فيه الآخر لانه لا يكفى أن يكون للمرء عقل ، بل المهم هو أن يحسن

---

(١) التعبير الفرنسوى الذى استعمله ديكارت هو Bon sens وقصد به القوة اللازمة لاجادة الحكم أى لتمييز الحق من الباطل في النظرى والعملى • وللعقل عملان فكريان أساسيان وهما البداهة Intuition والقياس Déductio n (راجع القاعدة الثالثة من القواعد لقيادة العقل (١) وهانكان : منهج ديكارت (٢) فى مجلة ما بعد الطبيعة وعلم الاخلاق نوفمبر سنة ١٩٠٦ ص ٧٦٠ وانظر فى مقدمتنا شرح معنى البداهة والقياس عند ديكارت) • ومما يجدر بالذكر أنه وجد بين أوراق ديكارت بعد وفاته كتيب عنوانه Studium bonae mentis اى درس العقل وقد نقل هذا العنوان الى الفرنسوية مترجم حياته بايبه BAILLET كما يأتى L'étude du bon sens ou de l'art de bien comprendre أى درس العقل أو فن اجادة الفهم ، ويرجح أن تلك الكتابة كانت مشروع المقال عن المنهج (راجع هملان مذهب ديكارت (٣) ص ٣٦)

استخدامه • وان أكبر النفوس لمستعدة لأكبر الرذائل مثل استعدادها لأكبر الفضائل ، والذين لا يسيرون الا جد مبطئين يستطيعون حين يلزمون الطريق المستقيم أن يسبقوا كثيرا من يعدون، ويبتعدون عنه •

أما أنا فلم أدع قط أن نفسى أكمل من نفوس الغير ، بل كثيرا ما تمنيت أن يكون لى من سرعة الفكر ، أو من وضوح الخيال وتميزه ، أو من سعة الذاكرة وحضورها ، مثل ما لبعض الناس • ولست أعرف فضائل غير هذه تعين على تكميل النفس : لانى أميل الى الاعتقاد بأن النطق ، أو العقل ، مادام هو الشيء الوحيد الذى (٣) يجعلنا أناسا ويميزنا عن سائر الحيوان ، هو بأكمله فى كل انسان ، وانى أميل فى ذلك الى اتباع الرأى الشائع بين الفلاسفة الذين يقولون انه لا زيادة ولا نقصان الا فى الاعراض (١) ، ودون الصور الجسمية (٢) أو طبائع (٣) الافراد (٤) من نوع واحد (٥) •

ولكنى لا أخشى أن أقول ما أعتقده من أننى كنت كثير التوفيق،

---

(١) جمع عرض وهو ما يتعلق بذات ما دون أن يلزمها فى تعريف ماهيتها

(٢) جمع صورة ويقصد بها ديكارت « مبدأ باتحاده مع المادة يتكون جسم طبيعى ويحل فى نوع معين » (جلسون فى تعليقه على المقال عن المنهج (٤) ص ٨٩)

(٣) جمع طبيعة ، وهى مبدأ أول وعلة لكل حركة وسكون ذاتيين للذى تكون فيه تلك الطبيعة (انظر تعريف أرسطو للطبيعة المقتبس فى تعليق (٤) جلسون ص ٩٠ وتعريف ابن سينا لها فى رسالة الحدود وهى فى مجموعة تسع رسائل فى الحكمة • وبتعريف أعم « هى القوة التى فى الشيء فتجرى بها كيفيات ذلك الشيء على ما هى عليه ، وان أوجزت قلت هى قوة فى الشيء يوجد بها على ماهو عليه » ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ج ١ ص ١٥ طبعة القاهرة سنة ١٣١٧

(٤) جمع فرد وهو مالا تنطبق كل صفاته مجتمعة على غيره

(٥) يقصد ديكارت بالنوع هنا الكلى المقول على كثيرين مختلفين فى العدد دون الحقيقة فى جواب ما هو ، وذلك هو النوع الحقيقى

اذ ألفيت نفسي منذ الحداثة (١) فى بعض الطرق التى قادتنى الى أنظار وحكم ، ألفت منها منهجا ، به يبدو لى أن عندى وسيلة لزيادة معرفتى بالتدريج ، وان أسمو بها قليلا الى أعلى درجة (٢) يسمح ببلوغها ما فى عقلى من ضعف ، وما فى مدى حياتى من قصر ، ذلك لانى جنيت من ثمرات ذلك المنهج (٣) ما جعلنى أحاول دائما فى الاحكام التى أكونها عن نفسى أن أميل الى جهة الحذر ، أكثر من ميلى الى جهة الغرور ، ولما نظرت بعين الفيلسوف الى فعال الناس ومقاصدهم لم يكد يظهر لى أن شيئا منها عبث وعديم النفع ، على أن التقدم الذى أظننى تقدمته فى البحث عن الحقيقة ، قد بلغ بى غاية الرضا ومهد لى فى المستقبل آمالا تجعلنى أرى أنه اذا كان من مشاغل الناس من حيث هم ناس (٤) ما هو خير وذو خطر ، فلى أن أجرؤ على القول بأنه هو العمل الذى تخيرته .

---

(١) يقول بابيه فى كتابه عن حياة ديكارت : انه صنع ـ وهو لا يزال فى كلية لافليش ـ منهجا غريبا للمناقشة الفلسفية ، وهذا المنهج ـ على حسب بسط المترجم له ـ هو منهج رياضى صرف ينحصر فى معالجة المسائل كما يفعل أصحاب الهندسة وذلك بتقديم البديهيات ثم الانتقال الى تعريفات ثم ايراد البراهين . (راجع نص بابيه المقتبس فى كتاب هملان مذهب ديكارت (٣) ص ٣٤) وهذه بعض محاولات ديكارت ، قبل شتاء سنة ١٦١٩ ، للبحث عن منهج للاختراع (انظر المقدمة)

(٢) كان العنوان الذى يريد ديكارت وضعه على المقال هو مشروع علم شامل يستطيع أن يرفع طبيعتنا الى أعلى درجة لها فى الكمال (راجع كتابه الى صديقه مرسن Mersenne فى مارس سنة ١٦٣٦ فى المجلد الاول من الاعمال الكاملة طبعة ادام وتانرى ص ٣٣٩)

(٣) يقصد استكشافه للهندسة التحليلية وهى توفيق بين علمى الهندسة والجبر وكذلك اثباته وجود الله بالبراهين التى سيذكرها فى القسم الرابع وكذلك آراءه فى الطبيعيات وسيشير اليها فى القسم الخامس

(٤) يقصد الافراد العاديين الذين يهبهم الله قدرة فوق ما لغيرهم من بنى الانسان بحيث يقومون بالمعجزات

وعلى كل حال فقد أكون مخدوعا ، وقد لا يكون الا قليلا من النحاس والزجاج ذلك الذى أعتبره ذهبا وماسا • فاننى لأعلم مبلغ الخطأ الذى نحن عرضة له فيما يمسنا من الامور ، ومبلغ الحذر الذى يجب أن تكون أحكام أصحابنا موضعا له ، عندما تكون فى مصلحتنا• (٤) ولكننى سأجتهد أن أبين فى هذا المقال ، ما هى الطرق التى تبعتها ، وأن أمثل حياتى فيه كأنها فى لوح تصوير ، حتى يستطيع كل أن يحكم فيها حكمه ، وحتى يكون علمى بمختلف الآراء فيها بما يصل الى من صدى ، وسيلة جديدة لتعليمى ، أضيفها الى ما اعتدت أن أستعين به من الوسائل •

واذن ليس غرضى أن أعلم المنهج الذى يجب على كل فرد اتباعه لكى يحكم قيادة عقله ، ولكن غرضى هو أن أبين على أى وجه حاولت أن أقود عقلى • وان الذين ينصبون أنفسهم لاسداء النصائح، يلزمهم أن يعتبروا انفسهم أحذق ممن يسدونها اليهم ، واذا زلوا فى أدنى الأمور ، استحقوا الملام • ولكن ، لما لم يكن غرضى من هذا الكتاب الا ان أجعله تاريخا ، وان شئت فقل قصة ، قد يكون فيها أمثلة تحتذى ، وقد تلقى فيها ايضا أمثلة غيرها كثيرة يحق للمرء ألا يقتدى بها ، فانى آمل أن يكون هذا الكتاب نافعا للبعض ، من غير أن يضر أحدا ، وان يرضى عنى الجميع لصراحتى •

غذيت بالآداب منذ طفولتى ، وأقنعت أنه مستطاع بواسطتها تحصيل علم بين يقينى بكل ما هو نافع فى الحياة ، فاشتدت رغبتى فى تعلمها • ولكننى ماكدت أنتهى من تلك المرحلة من الدراسة ، حيث كانت العادة قبول الانسان عند نهايتها فى مرتبة العلماء ، حتى غيرت رأيى كل التغيير • ذلك بأننى وجدت نفسى يحيرنى من الشكوك والضلالات ، مابدا لى معه أننى لم أكتسب من اجتهادى فى التعليم، الا تبينى شيئا فشيئا جهالتى • على أنى كنت مدرسة من أشهر(٥) مدارس آوربا كنت أظن أنه يجب أن يكون فيها علماء ، اذا كان فى

أى موضع من الأرض علماء (١) • ولقد تعلمت فيها كل ما كان يتعلم غيرى ، بل اننى لما لم أقنع بما كانوا يعلموننا من العلوم ، تصفحت كل ماوصل الى من كتب فى العلوم التى يعتبرونها اعجب العلوم وأندرها (٢) وكنت أيضا أعرف مايحكم به الآخرون على ، ولم أشهد قط انهم ينزلوننى دون منزلة رفاقى مع أن بعضهم كان يعد لأن يشغل مناصب أساتذتنا • ثم انه كان يخيل الى أن عصرنا فى ازدهاره وفى خصبه بالعقول القوية ، لايقل عن أى عصر من العصور السالفة • وهذا أورثنى حرية فى أن أحكم بنفسى فى كل من عداى وان ارى ان ليس فى الدنيا من العلم ما ينطبق على ماكنت قد صيرت من قبل الى القصد اليه (٣) •

وعلى كل حال فاننى ما غمطت حق ما يشتغلون به فى المدارس من الدروس وانى لأعلم أن اللغات التى تعلم فيها لازمة لفهم الكتب القديمة وأن طلاوة القصص توقظ النفس ، وأن حوادث التاريخ المذكورة تسمو بها ، وإذا قرئت بتمحيص فإنها تعين على تكوين الحكم (٤) ، وأن قراءة كل الكتب الجيدة هى كمحاضرة مؤلفيها

---

(١) يقصد مدرسة لافليش الملكية التى أسسها اليسوعيون فى عهد هنرى الرابع عام ١٦٠٤ • وديكارت يشهد بفضل تلك المدرسة فى كتاب له الى بعض أصدقائه يقول فيه « ويجب أن أنسب ذلك الشرف الى أساتذتى بأن اقول بأنه ليس فى العالم مكان أحكم بأن الفلسفة تعلم فيه خيرا مما تعلم فى مدرسة لافليش» أعمال ديكارت ج ٢ ص ٣٧٨

(٢) يعنى بالعلوم العجيبة السحر وأحكام النجوم والكيمياء (كما كانت قديما) وغيرها من العلوم التى لا يطلع على خفاياها الا القليل ويعنى بالعلوم النادرة ماعز على العامة مناله

(٣) يقصد بذلك « أن عدم كفاية العلم الذى تلقيته هو السبب الوحيد فى تضليلى اذ لا يمكن تعليله بنقص فى المدرسة التى تعلمت فيها ولا فى أساتذتى ولا فى نفسى ولا فى زمانى » (تعليق ٤ جلسون ص ١١٠)

(٤) يقصد بالحكم القوة اللازمة لتمييز الحق من الباطل (انظر التأملات الرابعة (١٢))

الذين هم خير أهل القرون الماضية بل هى محاضرة معتنى بهـا ، لايكشفون لنا فيها الا عن صفوة أفكارهم وأن للبلاغة قوة وجمالا لا يضارعان • وأن للشـعر رقة وحـلاوة رائعتين جدا وأن فى (٦) الرياضيات اختراعات جد دقيقة ، وتفيد كثيرا فى ارضاء النفوس المتطلعة وفى تسهيل كل الفنون ، وتوفير جهد الناس ، وأن الكتب الباحثة فى الاخلاق تشتمل على كثير من التعالم وعلى مواعظ كثيرة تدعو الى الفضيلة وهى مفيدة جدا ، وأن علم أصول الدين يهدى الى طريق الجنة ، وأن الفلسفة تعطينا وسيلة للقول فى كل شىء بما هو أدنى للحق ، ولـكسب الاعجاب ممن أقل منا علما (١) ، وأن التشريع (٢) ، والطب والعـلوم الأخرى تأتى بالجاه والثروة للذين يتعلمونها ، وأخيرا فمن الخير أن نخبرها جميعا حتى أكثرها خرافة وبطلانا ، لنعرف قيمتها بالعدل ونحذر الخديعة فيها •

ولكنى كنت أعتقد أننى أنفقت الكفاية من الوقت فى اللغات ، بل وفى قراءة الكتب القديمة ، وأيضا ما فيها من تواريخ وقصص : فان محاضرة أهل العصور الأخرى تكاد تكون كالسفر ، وانه لمفيد أن نعرف شيئا عن أخلاق الامم المختلفة ، حتى يكون حكمنا على أخلاقنا أصح ، وحتى لانظن أن كل ما خالف عاداتنا هو سخرية ومخالف للعقل ، كما هو دأب الذين لم يروا شيئا (٣) ولكن اذا أسرف المرء فى صرف الوقت فى السفر فانه ينتهـى الى أن يصير غريبا فى بلده ، ومن أسرف فى التطلع الى ما كان يحدث فى العصور (٧) الخالية ظل فى العادة شديد الجهل بما يقع فى زمانه • وفوق

(١) يقصد بالفلسفة فلسفة العصور الوسطى وهو يسوق قوله تهكما بها

(٢) يعنى علوم القوانين والحقوق ـ وقد كان ديكارت طالبا فى الحقـوق بجامعة بواتييه ولبث فيها سنتين من سنة ١٦١٤ الى سنة ١٦١٦ ونال منها اجازة القانون المدنى والدينى فى ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٦ • راجع شارل آدام حياة ديكارت ص ٤٠ مذكرة أ •

(٣) يقصد الذين لا تتجاوز معارفهم حدود بلادهم

ذلك فان القصص تجعلنا نتخيل ممكنا ما ليس ممكنا من الحوادث، بل وان أصدق التواريخ اذا لم يغير من قيمة الاشياء ولم يزدها ، كي يجعلها أجدر بأن تقرأ ، فانه على الأقل يكاد يهمل دائما أدنى الظروف شأنا وأقلها شهرة : ومن ثم فان ما يبقى لا يبدو كما هو، والذين يتخذون مما يستنبطونه منها أسوة لاخلاقهم يكونون عرضة للوقوع فى الغلو الذى وقع فيه فرسان قصصنا ، وللتطلع الى ما فوق طاقتهم ٠

كنت عظيم التقدير للبلاغة ، وكنت مولعا بالشعر ؛ ولكنى رأيت أن كليهما أقرب أن يكون من المواهب النفسية، لا من ثمرات الدرس (١) والذين لهم الحجة البالغة ، الذين يرتبون أفكارهم على أحسن وجه ، كى يجعلوها جلية ومفهومة ، يقدرون دائما على الاقناع بما يرون ، ولو كانوا لا يتكلمون الا بكلام العامة ، ولم يتعلموا قط علم الخطابة ٠ والذين لهم الأخيلة الرائعة ، ويعرفون كيف يعبرون عنها بأحسن المجازات وأحلى الأساليب ، هم خيرة الشعراء ، وان كان فن الشعر مجهولا لديهم ٠

كانت تعجبنى الرياضيات على الخصوص ، وذلك لما فى براهينها من الوثاقة والوضوح ، ولكنى لم أكن ألحظ فائدتها

---

(١) هذه فكرة عزيزة لدى ديكارت وهو يأخذ بها منذ سنة ١٦١٩ (راجع المقدمة التعليق على ختام الجزء الأول وأرجح انها ترجع الى سقراط الذى يقول « ان انتاج الشعراء يرجع الفضل فيه ، لا الى علمهم ، ولكن الى هبة طبيعية ، أو الى الهام الهى شبيه بالهام الأنبياء والعرافين » أفلاطون دفاع سقراط ص ٢٢ (أعمال أفلاطون فى مجموعة الجامعات الفرنسية المجلد الأول ص ١٤٦ ــ ١٤٧) ٠ ويقول سقراط فى نفس الصفحة انه طلب الى بعض الشعراء تفسير بعض شعرهم فكانوا لا يفهمونه جيدا ، ويأخذ أفلاطون بنفس الفكرة في حواريه فيدر ويون ويقول أن شعر الشعراء حى من آلهة الشعر انهم ينشدونه دون تمام فهمه

الحقيقية ، الا فى الصناعات الميكانيكية (١) كنت أعجب أن تكون أسسها البالغة فى متانتها وقوتهـا لم يشيد فوقها بناء أسمى ، وبالعكس فاننى كنت أشـبه كتابات القدماء (فى الجاهلية) (٢) الباحثة فى الاخلاق بقصور جد رائعة وفخمة ، لم تشيد الافوق(٨) الرمل والطين • وانهم ليرفعون الفضائل الى أعلى أوجها، ويظهرونها أحق بالاجلال من كل شىء فى العـالم ؛ ولكنهم لا يرشدوننا الى تعرفها ارشادا كافيا ؛ وكثيرا ما يكون الذى يدعونه بأجمل الاسماء، انما هو فقد العواطف والاحساس (٣) أو الكبرياء (٤) أو اليأس (٥) أو قتل القريب (٦) •

وكنت أجل علومنا الدينية ، وأطمع كغيرى فى الجنة ، ولكن لما علمت علما مؤكدا أن الطريق اليها ليس ممهدا لأجل الجهلاء أقل مما هو ممهد لأعلم العلماء (٧) ، وان الحقائق الموحى بها ، والتى

---

(١) كان يهتم في عصر ديكارت بتعليم الرياضيات لتطبيقها في الاعمال مثل مساحة الأراضى وهندسة ميادين الحرب وفى المقاييس والموازين المختلفـة وفى استعمال الآلات الصناعية وغير ذلك

(٢) فى النص الفرنسى Les anciens païens ويقصد بهم كتاب ماقبل المسيحية • ويظهر من الجملة التالية انه لايقصد غير الرواقيين لأن الذى يذكره وينكره من الاخلاق هو من تعاليم بعضهم

(٣) كان الرواقيون يدعون الى الا يكون للأهواء العواطف أى تأثير على الحكيم كما انه يجب ان يتحمل كل الالات الحسية دون الاهتمام بها

(٤) كان الرواقيون يرفعون رتبة الحكيم فوق كل رتبة ويساوونه بالاله

(٥) وكان بعضهم يبيح الانتحار ، اذا اقتنع المرء باليأس من هناءة الحياة، فيكون الموت فى زعمهم خلاصا من الالام

(٦) في النص الفرنسي Parricide ومعناها الآن قتل الأب ولكنها في زمن ديكارت كانت تفيد قتل القريب على العموم ، ويحتمل أنه يشير الى قتل بروتس لقيصر ، وقول الثانى للاول عند ما تلقى منه الطعنة القاتلة « وانت أيضـا ، يابنى Tu quoque, fili mi »

(٧) الوصول الى الجنة يكون بالايمان والايمان ليس من عمل العقـل (راجع التعليقة التالية)

تهدى الى الجنة هى فوق فهمنا ؛ لم يكن لى أن أجرؤ على أن أسلمها لضعف استدلالاتى ورأيتأن محاولة امتحانها امتحانا موفقا تحتاج لأن يمد الانسان من السماء بمدد غير عادي وأن يكون فوق مرتبة البشر (١) ٠

ولن أقول عن الفلسفة ، الا أنه لما رأيت أن الذين كانوا يتدارسونها هم خيرة العقلاء ، ممن عاشوا منذ عصور كثيرة ، ومع ذلك ليس فيها بعد أمر لا يجادل فيه ، أى ليس مشكوكا فيه ، فانني لم أكن قط من الغرور بحيث آمل أن أنال فيها من التوفيق خيرا من الآخرين ، ولما تأملت ما قد يكون فى المسألة الواحدة ، من آراء مختلفة ، يؤيدها رجال علماء ، على أن الحق فيها لا يكون الا واحدا ، فانني اعتبرت كل ماليس الا راجحا يكاد يكون باطلا(٢)

أما العلوم الاخرى التى كانت تأخذ أصولها من الفلسفة ، فقد كان حكمى فيها أنه لا يستطاع اقامة بناء قوي على قواعد ليست على شيء من المتانة ٠ ولم يكن ما تغرى به من الجاه والكسب(٣) بكاف ليبعثنى على تحصيلها ، فانني لم أكن أشعر ، بفضل من الله ، انني فى حالة تضطرنى الى أن أجعل من العلم صنعة لتحسين رزقى ومع

---

(١) يقصد بالمدد غير العادى الوحى الذى يفيضه الله على بعض الناس ممن يختصهم ، وهم بذلك يرتفعون فوق مستوى الانسانية العادى ٠ ولقد أحصي ديكارت أربعة أصول للعلم كما كان في زمانه وهى ١ ــ الافكار الجلية بذاتها التى تحصل بدون تفكير ٢ ــ ما يحصل بواسطة الحواس ٣ ــ معاشرة الناس ٤ ــ قراءة الكتب الجيدة ٠ ثم يقول ان الحكمة كلها لا تكتسب الا بتلك الوسائل الاربع أما الوحى الالهى فانه لايوصلنا الى العلم بالتدريج ، شأن تلك الطرق ، بل يسمو بنا مرة واحدة الى عقيدة معصومة من الخطأ (راجع رسالته الى من ترجم الى الفرنسية كتابه مبادىء الفلسفة)

(٢) يقصد ما لايعتمد فى اثباته على البرهان الصحيح الذى يوقع اليقين ، وانما يعتمد على القياس الجدلى الذى يوقع تصديقا شبيها باليقين

(٣) يشير الى الجاه الذى ينتج عن درس الفقه والقوانين ، والى الكسب الذى ينتج عن درس الطب

أنه لم يكن من دأبى أن أكون كلبيا (١) يحتقر المجد فاننى مع ذلك لم أكن أعبأ الا قليــلا بمجــد لم أكن لآمل قدرة على تحصــيله الا بالباطل (٢) ٠

أما العلوم الباطلة ، فلقد كنت أعتقد اننى بلغت من عرفان قيمتها حدا لا أكون معه عرضة للخديعة بوعود الكيماوى أو بتكهنات المنجم ، ولا بتضليلات الساحر ، ولا بالتصنع أو الزهو ممن ديدنهم أن يظهروا بأكثر مما يعلمون ٠

من أجل هذا فاننى ما كدت أن تسمح لى السن بالتحلل من ربقة معلمى حتى هجرت كل الهجر دراسة الآداب ٠ واذ صممت على ألا ألتمس علمــا الا ما اشتملت عليه نفسى (٣) أو ما كان فى الكتاب الكبير ، كتاب العالم ، فاننى أنفقت بقية شبابى فى السفر ،

---

(١) أى من اتباع المذهب الكلبى ، نسبة الى ديوجينيس الكلبى ، ويرجح الاستاذ جلسون أن تكون فى تلك العبارة اشارة الى جواب ديوجينيس نفسه الى الاسكندر المقدونى « الذى أريده منك : هو أن تنحرف كيــلا تمنع عنى الشمس » (انظر التعليق (٤) ص ١٤٠)

(٢) يشرح النص اللاتينى ذلك بما زاد فيه على الاصل الفرنسى وهو «أى نظرا لما فى هذه العلوم من معارف غير صحيحة » (أعمال ديكــارت ج ٦ ص ٥٤٤)

(٣) فى ذلك يظهر ديكارت اعتقاده بعدم كفاية العلم الذى كان موجودا فى زمنه فى الكتب ، وعلى ذلك فهو يبحث عن طريقة أخرى لاستكشاف علم جديد ، وهنا يرى أن تلك الطريقة هى فى التفكير بعقله الحر المستقل ، لأنه كان يعتقد أن بذور العلوم كائنة فينا ، وأن الحقيقة تثوى فى نفوسنا كما تثوى النار فى حجر الصوان . ولعله كان يريد بذلك تقليد الشعراء الذين يعتمدون على الاختراع ، أى على استخراج الحقائق من عقولهم ، وفى ذلك ينحصر فضل الشعر أكثر من اعتمادهم على تحصيل مادة أشعارهم من الكتب ، أو من محاضرة غيرهم ٠ (راجع ميلو Milaud أزمة صوفية عند ديكارت عام ١٦١٩ (٩) فى مجلة مابعد الطبيعة والاخلاق المجلد الثالث والعشرين ج ٤ ص ٦٠٧ — ٦٢١) وأرجح أن ديكارت عزم على ذلك عام ١٦١٦ بعد انتهائه من درس الحقوق فى جامعة بوأتيه وقبل ابتدائه فى الرحلات كما يظهر من النص

وأن أتصل بقصـــور وبجيوش وأغشى اناسا من مختلف الامزجة والدرجات ، وفى جمع التجارب المختلفـة ، وأن ابتلى نفسى فيما ساق الى الحظ من مصادفات ، وأن أفكر أينما كنت فى الامور التى كانت تعرض لى تفكيرا يمكننى من أن أستخلص منها فائدة • فقد كان يبدو لى أننى أستطيع أن أجد من الحقائق ، فى التفكير الذى يفكره كل انسان فى الامور التى تهمه ، والتى سرعان ما تؤذيه (١٠)عاقبتها ، ان كان قد أخطأ فى الحكم، مالا يوجد فى تفكيرات أحد النظار من رجال الآداب وهو بين جدران حجرته فيما يمس أمورا نظرية ليس لها فى الخارج أثر(١) ، ولا تكون له منها نتيجة ، الا ما قد يدركه من غرور بها على مقدار بعدها عن العقل ، بســبب ما بذل من الفكر والحيلة كى يجعلها شبيهة بالحق ، وكانت رغبتى شديدة دائما فى أن أتعلم كيف أميز الحق من الباطل ، كى أكون على بصيرة فى أعمالى ولكى أسير على هدى فى حياتى •

فى الحق أنى حينما كان جهدى مقصورا على ملاحظة أخلاق الناس فانى لم أجد فيها موضعا ليقين ، ولحظت فيها من التبـاين نحو ما لحظته من قبل فى آراء الفلاسفة • وقد كان أكبر ماحصلته من فوائدها ، اننى لمـا رأيت أمورا كثيرة ، تبدو لنا من الشطط والسخرية ، ومع ذلك فان أمما عظيمة تجمع على قبولها والرضاء عنها ، فاننى تعلمت ألا أعتقد اعتقادا جازما فى شىء ما يحكم التقليد أو العادة وكذلك تخلصت شيئا فشيئا من كثير من الاوهام ، التى تستطيع أن تخمد فينا النور الفطرى(٢) وتنقص من قدرتنا على

---

(١) في ذلك يهاجم ديكارت طرق التفكير في العصور الوسطى ، ويتهكم على عقم الجدل الذى كان يقتصر عليه العلماء

(٢) يقول ديكارت فى مبادىء الفلسفة (٦) فى الفقرة الثلاثين من الجـزء الاول « وينتج من ذلك أن ملكة المعرفة التى وهبها الله لنا ، والتى نسميها بالنور الفطرى ، لا تتصور مطلقا أى شىء ما لم يكن حقيقيا من حيث هى تتصوره ، أى=

التعقل • ولكن بعد أن أنفقت بعض السنين في الدرس على تلك الحال في كتاب العالم ، وفي الاجتهاد في تحصيل بعض التجربة ، فانني عزمت في بعض الايام أن أبحث أيضا في نفسي وأن أصرف قواي العقلية كلها في اختيار الطرق التي يجب أن أسلكها(١) وقد لقيت في هذا على ما يبدو لي نجاحا لم أكن لألقاه لو انني لم أفارق (١١) قط بلادي ولا كتبي •

= مادامت تعامله بوضوح وتميز ، الخ » . وكذلك ان لديكارت حوارا وهذا عنوانه الطويل « البحث عن الحقيقة بواسطة النور الفطري ، الذي يعين وهو خالص وحده ، وبدون أن يستعين بالدين أو بالفلسفة ، الآراء التي يجب أن يراها رجل شريف فيما يختص بكل الامور التي تشغل فكره ، وينفذ الى أسرار أعجب العلوم (٧) » ويشار اليه للايجاز بالبحث عن الحقيقة فقط .

(١) سيساعد ما يلي ذلك ، أي مطلع القسم الثاني ، على تعيين ذلك الوقت الذي عزم فيه ديكارت ذلك العزم . ويتفق الشراح على أن هذا كان في يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ، والاعتماد في ذلك على قول ديكارت في رسالة أوليمبيكا (١) وهي من كتابات ديكارت بالقرب من ذلك التاريخ وقد طبعت في المجلد العاشر في مطبوعة أدام وتانرى) انه وجد في ذلك اليوم قواعد علم عجيب Mirabilis scientiae fundamenta على أن هناك خلافا في تقدير ذلك الاستكشاف والرأي الذي نأخذ به أنه استكشف يومئذ منهجه بأكمله ، اذ ليس عند ديكارت الا منهج واحد وكل ما استكشفه في علوم الطبيعة وما بعد الطبيعة والرياضة لم يكن الا نتيجة لتطبيق منهجه ، والاستاذ آدم يرى أن في ذلك اليوم اهتدى ديكارت الى بعض استكشافاته الرياضية المهمة على أنه لا يعين ذلك الاستكشاف كما أنه لايجزم برأيه (راجع اعمال ديكارت ج ١٢ ص ٥٠) . أما الاستاذ ميلو فيرى أن كل تلك الآراء باطلة وأن ديكارت اهتدى في ذلك اليوم الى وجوب العدول عن كتب الاقدمين والاقتصار في البحث عن الحقيقة « التي توجد في نفسنا بذورها كما يوجد شرر النار في حجر الصوان » على الاستعانة بالنور الفطري ، أو بالالهام الذي يشبه الهام الشعراء أو بالبداهة . (راجع مقالة أزمة صوفية عند ديكارت عام ١٦١٩ . ولكنا رأينا فيما سبق أن ديكارت عزم على العزم الذي يتصوره الاستاذ ميلو عام ١٦١٦ بعد انتهائه من المدارس وقبل بدئه في الرحلات ، واذن فلابد أنه بعد رحلاته قد =

القسم الثانى

كنت اذ ذاك فى ألمانيا ، عنـدما استدعتنى الحروب التى لم تنته فيها بعد ، ولما كنت فى عودتى من تتويج الامبراطور(١) الى الجيش ، ألجأنى بدء الشتاء الى قرية(٢) ، لم أجد فيها شيئا من السمر ملهيا ، على أنه لم يكن عندى ، لحسن الحظ ، ما يقلقنى من هم أو هوى ، وكنت ألبث اليوم كله وحدى فى حجرة دافئة ، حيث كانت لى كل الفرصة لتوجيه همتى للفكر • وكان من أول ما فكرت فيه أننى لاحظت أنه كثيرا ما تكون الاعمال المؤلفة من أجزاء كثيرة ، صنعتها أيدى حذاق مختلفين ، ليس فيها من الكمال مثل ما فى الاعمال التى صنعها واحد ، كذلك نرى المبانى التى بدأها مهندس واحد وأتمها هى فى العادة أجمل منظرا وأحسن نظاما من تلك التى اجتهد فى ترقيعها الكثيرون ، وذلك باستخدام جدر قديمة بنيت

= اهتدى الى شىء آخر كما يتبين من كلامه فى آخر القسم الأول ، وعى ذلك يبطل قول ميلو (راجع تفصيل ذلك فى المقدمة)

(١) المقصود بالحروب حروب الثلاثين عاما التى انتهت بمعاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨ والامبراطور هو فرديناند الثانى الذى توج قيصرا فى ٩ سبتمبر سنة ١٦١٩ (راجع كينو فيشر KUNO FISCHER حياة ديكارت وعمله ومذهبه ص ١٧٤ وما يليها من الطبعة الخامسة ، هيدلبرج سنة ١٩١٢

(٢) نزل ديكارت أولا فى أولم Ulm حيث زار الرياضى فاولهابر Faulhaber وبقى هناك بضعة شهور • ولكن عزلته الحقيقية كانت فى نيوبرج Neuburg والمدينتان على نهر الدانوب (راجع فيشر الكتاب المذكور ص ١٧٥)

من قبل لغايات أخرى كما فى تلك المدن العتيقة ، التى لم تكن فى البدء الا قرى ، ثم أصبحت بتعاقب الزمان ، مدنا كبيرة ، فانها فى لعـــادة قبيحة التأليف اذا قورنت بالمدن المنظمة ، التى يخططها مهندس واحـد وهو حر فى براح خال • ومع أنتـا اذا نظرنا الى عماراتها كل على حدة ، فكثيرا ما نجد فيها من الفن مثل ما فى عمارات المدن الأخرى أو أكثر ، ثم اذا رأينا كيف نظمت ، نجدها هنا بناء عظيما ، وهناك بناء صغير ، على وجه يجعل الطرق معوجة وغير متساوية ، فسوف نقول ان الأقرب أنه الحظ ــ لا ارادة أناس (١٢) تصرفوا بعقولهم ــ هو الذى وضعها كذلك ، وعلى كل حال اذا لاحظنا أنه كان يوجد دائما من العمال من يوكل اليهم ملاحظة أن يكون فى المبانى الخاصة مستمتع للجمهور ، عرفنا أنه من العسير أن نقوم بأعمال كاملة مادام كل عملنا هو تكميل عمـل الغير • وكذلك ظننت أن الامـم التى كانت فى زمن من الازمنة نصـــف متوحشة ، ولم تأخذ بالمدنية الا قليلا قليلا ، لم تسن قوانينها الا حسبما كانت تضطرها اليه أضرار الجرائم والمنازعات ، هذه الامم لا تكون حاصلة على نظام يبلغ من الاحكام مبلغ ما عند الامم التى منذ بدء اجتماعها ، قد اتبعت شرائع مشرع حكيم • كذلك يكون جد يقين أن هيكل الدين الصحيح ، الذى شرع الله وحده أحكامه ، يجب أن يكون خيرا فى النظـام من كل ما عداه الى الحـــد الذى لا يبارى • واذا تحدثنا عن الشئون الانسانية فانى أعتقد أنه اذا كانت اسبرطة قديما ذات مجد زاهر ، فليس السـبب فى ذلك صلاح كل قانون من قوانينها على حده ، لان كثيرا منها كان شديد الشذوذ ، بل كان مخالفا للاخلاق الطيبة ، ولكن السبب أنه لما كان مبدعها شخصا واحدا ، فقد كانت جميعا ترمى الى غاية واحدة • وكذلك فقد رأيت أن علوم الكتب وعلى الاقل ما كان منها حججه

ليست الا جدلية(١) ، وليس له برهان ، فانها لما كانت قد ألفت وزيد فيها قليلا قليلا من آراء رجال كثيرين مختلفين فانها ليست قريبة من الحقيقة قرب الاستدلالات البسيطة التى يكونها بالفطرة رجل عاقل فيما يعرض من الامور • وكذلك رأيت أيضا أنه نظرا لاننا كنا جميعا أطفالا قبل أن نصير رجالا ، وأنه كان يلزمنا فى زمن طويل أن نظل تحكمنا أهواؤنا ومعلمونا ، وكان أحدهما فى الغالب يناقض الآخر ، وربما لم يكن كلاهما لينصحنا دائما أحسن النصائح ، فانه يكاد يكون مستحيلا أن تخلص أحكامنا ، أو أن تكون قوية كما كانت تكون، لو أننا استعملنا عقلنا تمام الاستعمال منذ ميلادنا ، ولم نسير قط الا بواسطته •

وفى الحق انا لا نشاهد أن بيوت مدينة تهدم جميعها لغير غرض الا أن يعاد بناؤها على نظام آخر ، وأن تجعل طرقها موفورة الجمال ولكن المشاهد غالبا أن كثيرين يهدمون بيوتهم ليعيدوا بناءها ، بل يضطرون أحيانا الى ذلك عندما تكون من نفسها على خطر السقوط ، وعندما تكون قواعدها غير ثابتة • وقياسا على ذلك أيقنت أنه غير معقول فى الحقيقة أن يضع بعض الناس خطة لاصلاح دولة بتغيير كل شيء فيها بادئا بالأسس، وأن يقلبها رأسا على عقب ليقومها ، أو أن يصلح أيضا مجموعة العلوم ، أو النظام المقرر فى المدارس لتعليمها ، ولكن فيما يختص بكل الآراء التى قبلتها واعتقدت بها حتى يومئذ فانى لم أكن لأقدر على خير من انتزاعها جملة واحدة من اعتقادى ، وذلك لكى أحل محلها فيما بعد ، اما غيرها خيرا منها ، أو أعيدها نفسها بعد أن أكون قد سويتها بميزان العقل • ولقد رسخ فى اعتقادى أننى أكون بهذه الوسيلة أكثر (١٤) توفيقا فى سياسة حياتى مما لو لم أبن الا على أسس عتيقة ، ولم

(١) أى العلوم التى تعتمد على الجدل ، وهو ما كان يغلب على استدلالات المشتغلين بالفلسفة فى العصور الوسطى • وهذه العلوم لاتصل بتلك الاقيسة الى مراتب اليقين مثل علوم الرياضة

أعتمد الا على مبادىء استسلمت للاذعان لهـا فى شبابى دون أن أختبر قـط ان كانت صادقة • فانى وان عرفت فى ذلك شتى المصاعب ، فهى مع ذلك لم تكن لا تداوى ، ولم تكن أيضا لتقارن بالمصاعب التى تقوم عند اصلاح ما يمس الجمهور من أحقر الامور، ان هذه الاجسام الهائلة لعسير رفعها اذا هوت ، أو المحافظة عليها اذا تزعزعت ، وسقوطها لا يكون الا مروعا •

أما ما فى نظم الدول من عيوب ، ان كان فى نظمها عيوب ، (وان الخلاف بينها ليكفى لاثبات وجود عيوب فى الكثير منها) فان التطبيق قد لطفها كثيرا بلا ريب ، بل هو جنب من عيوبها وتلافى منها رويدا رويدا مالم يكن مستطاعا بالحكمة • وأخيرا ، فان تلك العيوب تكاد تحتمل دائما أكثر مما يحتمل تغييرها : كما ان الطرق الكبيرة ، التى تتلوى بين الجبال ، تصبح قليلا قليلا سهلة وممهدة، وذلك لكثرة التردد عليها ، وخير أن يتبعها السائر من أن يذهب فى طريق أكثر استقامة متسلقا فوق الصخور منـحدرا الى بطون الوهاد •

من أجل هذا لم أكن لأقر فى شىء تلك الامزجة المرتبـكة القلقة التى لم يدعها نسب ولا مكانة لادارة الشئون العامة ، وهى (١٥)لاتبرح تعمل الفكر فى وضع خطط جديدة للاصلاح • ولو انه تبادر الى ذهنى أن فى هذه الكتابة أقل ما يمكن أن أتهم معه بذلك الجنون ، لندمت كثيرا على السماح بنشرها • فان مطلبى لم يتجاوز قط الاجتهاد فى اصلاح أفكارى الخاصة ، وأن أبنى على أساس كله ملك لى • واذا كان عملى قد بلغ بى من الرضاء ماجعلنى أشهدكم هنا انموذجا منه(١) ، فما كنت لهذا أريد أن أنصح أحدا بتقليده • وربما كان للذين ميزهم الله فى تقسيم فضله مقـاصد اسمى ،

---

(١) لان المقال هو فى الحقيقة انموذج لعمل ديكارت بأكمله

ولكننى أخاف كثيرا ألا يكون هذا العمل بالنسبة لكثيرين الاشطط في الاقدام • ليس مجرد العزم وحده على التخلص من كل الآراء التى اعتقد بها المرء من قبل ، مثالا يجب على كل فرد أن يحتذيه ، ويكاد الناس بالنسبة لعقولهم ألا يكونوا الا صنفين وذلك لا يصلح فى شيء لكليهما •

هذان الصنفان هم أولا الذين لاعتقادهم فى أنفسهم من الحذق فوق مالهم لا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم من التهور فى أحكامهم(١) ، ولا يملكون من الصبر ما يستطيعون به سياسة أفكارهم كلها بنظام ، ومن ثم فانهم اذا اتخذوا حرية الشك فى المبادىء التى تلقوها ، والابتعاد عن الطريق العام ، فانهم لن يقدروا على ملازمة الصراط الذى يجب سلوكه للسير الاقوم ، وسيظلون فى ضلال كل حياتهم •

ثم آخرون اوتوا حظا من العقل، أو من التواضع ، كى يحكموا بأنهم أقل قدرة على تمييز الحق من الباطل من اناس يصلحون أن يكونوا لهم معلمين ، فهم أولى بأن يقنعوا باتباع آراء هؤلاء من أن يبحثوا بأنفسهم عما هو أحسن •

أما أنا فلقد كنت أكون بلاشك فى عداد هؤلاء الاخيرين لو(١٦) لم يكن لى الا أستاذ واحد ، أو لم أكن عرفت الخلاف الذى كان فى كل زمان بين آراء أكبر العلماء • ولكننى لما كنت قد تعلمت ، منذ أيام المدرسة ، أنه لا يمكن أن نتخيل أمرا مهما بلغ من الشذوذ والبعد عن التصديق ، الا وقد قال به أحد الفلاسفة(٢) ، ثم اننى

---

(١) التهور هو أحد مصادر الخطأ عند ديكارت ، وهو ينحصر فى الجزم بالحكم قبل تبين اليقين فيه أى فى التهافت الى المطالب قبل تحقيق المقدمات

(٢) كلمة مشهورة لشيشرون هذه ترجمة نصها اللاتينى « لا يوجد قول مخالف للعقل لم يقل به من قبل بعض الفلاسفة » (راجع جلسون التعليق على المقال ص ١٧٨)

عرفت فى رحلاتى أن كل الذين لهم عواطف مخالفة لعواطفنا كل المخالفة ، ليسوا من أجل هذا برابرة ولا متوحشين ، ولكن الكثيرين منهم يستخدمون العقل مثلنا أو أكثر منا • ولما تأملت فى أن الرجل نفسه ، بنفس عقله ، اذا نشأ منذ طفولته بين فرنسويين أو ألمانيين ، فانه يصبح مختلفا عما كان يكون ، لو أنه عاش دائما بين صينيين أو كانيباليين (١) ، وكيف ان الشىء الواحد حتى فى أزياء الملابس ، الذى أعجبنا منذ عشر سنين ، والذى ربما يعجبنا أيضا قبل أن تمضى عشر سنين ، يبدو لنا الآن شاذا ومضحكا : بحيث تكون العادة والتقليد هما اللذان يؤثران فى آرائنا أكثر من أى علم يقينى ، وعلى كل حال فان موافقة الكثرة ليست دليلا ذا شأن على الحقائق التى يتعسر كشفها ، فانه أقرب الى الاحتمال أن يجدها رجل واحد من أن تجدها أمة بأسرها : واذن فلم أكن لأستطيع أن أختار رجلا (٢) كانت تبدو لى أفكاره واجبة التفضيل على آراء الآخرين ، ووجدتنى كأننى مضطر الى أن أتولى بنفسى توجيه نفسى •

(١٧) ولكن ، كان مثلى كمثل رجل يسير وحده فى الظلمات ، فصممت على أن أسير الهوينى ، وأن أستعين بكثير من الاحتياط فى كل الامور ، فلو لم أتقدم الا قليلا جدا ، كنت على الاقل قد سلمت من الزلل • حتى ولم أشأ ألبتة أن أبدأ بأن أنبذ جملة أى رأى من الآراء التى قد تكون استطاعت فى بعض الاوقات أن تتسرب الى اعتقادى ، دون أن يقودها اليه العقل ، من قبل أن أكون قد صرفت ما يكفى من الزمن لوضع مشروع للعمل الذى أتولاه ، ولأن أتحرى المنهج الحق للوصول الى معرفة كل الامور التى يكون عقلى أهلا لها

---

(١) Des Cannibales هم أكلة اللحوم البشرية ؛ وفى النص اللاتينى استبدلت بها كلمة أمريكيين Americanos والمقصود بالطبع سكان أمريكا الاصليون قبل الفتح الاوربى .

(٢) أى من مؤسسى المذاهب الفلسفية من اليونان القدماء

ولما كنت أحدث سنا(١) ، اشتغلت قليلا بالمنطق من بين أقسام الفلسفة ، وبالتحليل الهندسى(٢) والجبر من بين أقسام

(١) المرجح أنه يقصد زمان وجوده في مدرسة لافليش ، لان النص الذى يسبق هذا مباشرة يوضح لنا أن ديكارت كان يتكلم عن أوائل عهده باستكشاف المنهج أى عام ١٦١٩ ، وإذن فعندما يقول « لما كنت أحدث سنا » فهو يعنى ما قبل ذلك التاريخ . ثم انه سيأخذ في نقد الفلسفة والرياضيات التى كانت تعلم في المدارس ، ومنها مدارس اليسوعيين التى كان هو في احداها

(٢) ينحصر التحليل باعتباره جزءا من علم الهندسة ، لا كمنهج للاستدلال والبرهان ، فى حل المسائل بتحويلها جزئيا الى مسائل أخرى أبسط وأعم ، فمثلا لايجاد النقطة المتساوية البعد عن ثلاث نقط ، فانه يجب أن تكون تلك النقطة أولا متساوية فى البعد عن نقطتين ، أى أن تكون على العمود المقام من منتصف المستقيم الذى يصل النقطتين ، ولايجاد النقطة المطلوبة يجب أولا ايجاد المحل الهندسى الذى هى جزء منه (راجع هملان مذهب ديكارت ٣ ص ٥٥ و ٥٦) . أما اذا كان التحليل باعتباره منهجا للاستدلال ، فهو مايقول عنه اقليدس انه يفرض أن المطلوب ثابت ، ثم ينتقل منه بطريق الاستنتاج حتى يوصل الى قضية أخرى ثابتة قبل ، وبذلك يتم البرهان على المطلوب (راجع لالاند مقالة التحليل Analyse في المعجم الفلسفى ١١) وهذا المعنى هو مايرجح هملان ، ص ٥٦ وأستاذنا المسيو لالاند أنه مقصود ديكارت . أما المسيو جلسون غيرى أن معاصرى ديكارت لا يرون أن التحيل كمنهج للاستدلال ، يقابل التحليل يتتبع ذلك وأن ينظر بعناية في كل مايحويه ، فان فهمه للشيء الذى برهن عليه باعتباره جزءا من علم الهندسة (انظر التعليق ٤ ص ١٨٣) ويشرح ديكارت نفسه التحليل باعتباره منهجا بقوله : « فى التحليل يستنبط المعلوم من المجهول وذلك بفرض المجهول معلوما والمعلوم مجهولا » هذا النص ذكره أولا رافيسون Ravaisson بدون اشارة الى موضعه ، ويتبعه فى ذلك كثير من المؤرخين (انظر هملان ص ٧٩ و ٨٠) ويقول فيه أيضا « يظهر التحليل حقيقة ما وصل به الى الشيء تبعا المنهج ، ويبين كيف تتوقف المعلولات على العلل ، بحيث اذا شاء القارىء أن يتتبع ذلك وأن ينظر بعناية في كل مايحويه ، فان فهمه للشيء الذى برهن عليه كذلك ، لن يكون أقل كمالا ، ولن يجعل ذلك الشيء أقل اختصاصا به ، مما لو أنه هو الذى توصل اليه واستكشفه بنفسه » (الردود على الاعتراضات ١٢) وميزة التحليل البارزة التى توافق روح الفلسفة الديكارتية هى ما أبداه ليبنتز في علم الجوهر الفرد (مونادو لوجيا) بقوله «عندما تكون حقيقة لازمة ، =

الرياضيات ، وهى ثلاثة فنون أو علوم كان يبدو لى أنها لا بد أن تمد مشروعى بشىء ولكننى ، عند امتحانها تبينت ، فيما يختص بالمنطق أن أقيسته وأكثر تعليماته الاخرى هى أدنى أن تنفع فى أن نشرح للغير مانعرف من الأمور ، لا فى تعلم تلك الأمور (١) بل هى كفن لل (٢) ، ينفع فى أن نتكلم فيما نجهل من غير تمييز ،

= فان الانسان يستطيع ايجاد حجتها بالتحليل ، ذلك بتحليلها الى أفكار وحقائق أبسط حتى يصل المرء الى الافكار والحقائق الاولية » (الفقرة ٣٣ . انظر الكتابات الفلسفية philosophische schriften طبعة جرهاردت ج ص ٦١٢)

(١) درس ديكارت في كلية لافليش منطق المدرســة وقرأ فيها المدخل لفورطريوس (ايساغوجى) ومقولات أرسطو (قاطيفورياس) وكذلك تحليل القياسى (أنالو طيقا الاولى) والبرهان (أنالو طيقا الثانية) والعبارة (بارامينياس) (راجع بيان الكتب التى كان مقررا درسها في هملان مذهب ديكارت ٣ ص ١٣ و ١٤ وجلسون التعليق ٤ ص ١١٨) . وهو يأخذ على منطق المدرسة أى على القياس (سولوجسموس) انه عقيم لا يساعد على الاختراع ، لانه اذا وضعت المقدمات وكان الحد الاوسط في مكانه ، فان استخراج النتيجة لا يحتاج الى أكثر من تعبير لغوى وبعبارة أخرى فان النتيجة لا تقوم بأكثر من أن تنقل ، تبعا لأخس المقدمتين ، وعلى حسب موضع الحد الاوسط ، قولا هو من قبل صادق على الحد الاوسط وبين الثبوت له ، وبذلك لا يضيف القياس شيئا الى معرفتنا. أما قول ديكارت بأن أقيسة المنطق تنفع فى أن نتكلم فيما نجهل دون حكم ، ومعنى الحكم عنده تمييز الحق من الباطل ، فالمرجح أنه يوجه باعتراضه الى منطق الماصدق ، لأن الحكم باعتبار الماصدق لا يستلزم انتباها كثيرا من النفس ، أما باعتبار المفهوم فلا يتسنى الحكم دون انتباه العقل الى معانى الحدود .

تذنيب * لكل حد ماصدق وهو الافراد التى يطلق عليها ذلك الحد ، فمثلا ماصدق انسان هو زيد وعمرو وكل الاشخاص الانسانية ، وللحد أيضا مفهوم وهو المعنى الذى يفيده ذلك الحد ، فمثلا مفهوم انسان هو كونه حيا وحيوانا ومن أهل السلسلة الفقرية ومن ذوى الثدى الخ .

(٢) هو رايموند لل Lulle العالم الفيلسوف الكيماوى الرحالة المبشر. وهو من أعجب شخصيات العصور الوسطى ، ولد في بالما بجزيرة ماجوركا سنة ١٢٣٥ ومات مرجوما في ٣٠ يونيه سنة ١٣١٥ . وقد تعلم علوم العرب لفتهم فى =

ومع أن ذلك العلم يشتمل في الحقيقة على تعليمات كثيرة جدا صحيحة ومفيدة ، فان فيه أيضا غيرها ، اما ضارة واما عديمة النفع ، وهي مختلطة بها بحيث يكاد يكون فصلها عنها من المتعسر ، مثل استخراج ديانا أو منيرفا من قطعة من الرخام لم تنحت بعد (١) ثم انه فيما يختص بتحليل الاقدمين وبجبر المحدثين ، ففوق انها لا تتسع الا لأمور مجردة جدا ، وتبدو كأنها لاتطبيق لها : فان الاول مقصور دائما على النظر في الاشكال ؛ بحيث لايقدر على اعمال الفهم دون اجهاده للخيال (٢) ، وفي الاخير يتقيد بقواعد ورموز جعلت منه فنا (١٨) مبهما وغامضا يحير العقل ، بدلا من ان يكون علما يثقفه • وهذا

= الاندلس كي يدعو المسلمين الى المسيحية ، ويظهر أن جرأته وحماسه الفائقتين كانتا تشفعان له في غض أمراء المسلمين عنه والتسامح معه . وله مؤلفات كثيرة جدا يقول البعض انها تبلغ أربعة آلاف كتاب وقد ضاع أكثرها (أنظر تاريخ حياته وموجزا عن مؤلفاته في رسالة زويمر Zwemer ريموند لل أول مبشر بين المسلمين القاهرة سنة ١٩١٥) . ولرايموند لل مؤلفات بالعربية ، أمكن أخيرا احصاء ثمانية منها ، على أنها غير موجودة (انظر مجلة الدروس الاسلامية Rev. des études islamiques السنة الأولى (١٩٢٧ الكراسة الاولى ص ٣٥) .

ويعنى ديكارت بفن كل ما هو معروف بالفن الكبير Ars magna وقد صنعه لل للتغلب على صعوبتين في منطق أرسطو : الاولى استكشاف المقدمات أو المبادىء اللازمة للوصول الى نتيجة مبرهنة علمية ، والثانية ايجاد الحد الاوسط اذا وجد الطرفان ، وهو يلجأ في هذين المشكلين الى فنه الكبير الذى يجعل من الفكر آلة مسخرة بحيث حق لديكارت أن يحكم عليه حكمه (انظر لشرح الفن الكبير مقالة لل في معجم العلوم الفلسفية Dictionnaire des sciences philosophiques تحت ادارة فرانك FRANCK وكذلك برهييه BREHIER تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٧٠٠ ومايليها من الطبعة الاولى باريس سنة ١٩٢٦ ومابعدها) .

(١) ديانا هى ابنة جوبيتر كبير الآلهة عند الاغريق والرومان ، وكانت ملكة الغابات ، وميترفا وتسمى أيضا بلاس أثينا كانت آلهة الحكمة والفنون

(٢) أنظر التعليقات على كلمة الخيال فى الكلام على قوى النفس في القسم الخامس

ما كان سببا فى انى فكرت فى وجوب البحث عن منهج آخر يكون مع احتوائه على مزايا تلك العلوم الثلاثة ، خاليا من عيوبها • وكما أن كثرة القوانين كثيرا ما تهيىء المعاذير للنقائص (١) ، بحيث تكون الدولة خيرا حكما ونظاما ، عندما لايكون لديها من القوانين الا قليل جدا ، فتصبح هذه القوانين مراعاة بدقة كثيرة ، كذلك اعتقدت انه بدلا من هذا العدد الكبير من المبادىء التى يتألف منهـــا المنطق ، فالاربعة التالية حسبى بشرط أن يكون عزمى على ألا أخل مرة واحدة بمراعاتها صادقا ودائما •

الأول ألا أقبل شيئا ما على أنه حق ، ما لم أعرف يقينا انه

---

(١) يرى هملان فى ذلك النص اعترافا من ديكارت بالنقص فى كتابه القواعد ا الذى لم يكمله ديكارت على حسب مشروعه لانه كان ينوى جعله في ست وثلاثين قاعدة • ولكنه بين أيدينا في واحدة وعشرين فقط ، واذن فيظن هملان في قوله « ان كثرة القوانين كثيرا ماتهيىء المعاذير للنقائص » اشارة الى ذلك النقص (أنظر مذهب ديكارت ٣ ص ٤٨) • ولقد أهتم ديكارت منذ حداثته بالبحث عن قواعد عامة قليلة العدد لقيادة العقل في تحرى الحقيقة وفي ذلك من أقواله والتى يرجع تاريخها الى عهد شبابه قوله : « ان أحكام العلم هى ارجاعه كل شيء الى قليل من القواعد العامة » (انظر ص ١٣ من اعمال ديكارت غير المطبوعة ١٤ نشرها الكونت فوشيه دى كارى Foucher de Careil في باريس ١٨٥٩ — ١٨٦٠)

ثم اننا نرى أن ديكارت يقتصر فى المقال على أربع قواعد فقط ، بينما يبسط في كتابه القواعد ا واحدة وعشرين قاعدة ومع ذلك فهى ناقصة ، ولا تزيد في شيء عن قواعد المقال ، وهذا راجع الى أن المقال كتب بعد القواعد ولو انه انشر قبله (انظر جلسون التعليق ٤ ص ١٩٦) وهناك رأى آخر قديم يقول به الاستاذ ناتورب Natorp في كتابه المشهور نظرية المعرفة عند ديكارت ١٥ ص ١٦٥ ومحصله أن القواعد الاثنتى عشرة الاولى فى كتاب القواعد هى شرح لقواعد المقال الاربع (أنظر يونجمان Jungmann رينيه ديكارت ، مبحث في عمله ١٦ ص ٤ و٥)

كذلك : بمعنى أن أتجنب بعناية التهور (١) ، والسبق الى الحكم قبل النظر (٢) ، وألا أدخل فى احكامى الا ما يتمثل امام عقلى فى جلاء وتميز (٣)، بحيث لا يكون لدى أى مجـال لوضـعه موضع الشك •

الثانى : أن أقسم كل واحدة من المعضلات التى سأختبرها ، الى اجزاء على قدر المستطاع ، على قدر ما تدعو الحاجة الى حلها على خير الوجوه (٤) •

الثالث : أن أسير أفكارى بنظام ، بادئا بأبسط (٥) الأمور

---

(١) التهور وبالفرنسية Précipitation ويعنى به ديكارت الحكم قبل أن يصل العقل الى يقين كامل وقد شرحناه سابقا ص ١٢٥ تعليقه رقم ١

(٢) السبق الى الحكم قبل النظر وبالفرنسية Prévention وهو في نظر ديكارت أول مصادر الخطأ ، ويقصد به أن يكون للمرء في بعض المسائل أحكام يأخذ بها قبل فحصها بعقله المستقل ، وهذه الاحكام اما أن تكون مأخوذة من زمن الطفولة عند ما يكون الاتصال بين النفس والبدن وثيقا جدا بحيث يكاد العقل لا يفكر في أبعد مما يحس البدن (أنظر مبادىء الفلسفة ٦ ج ١ الفقرة ٧١) واما أن تكون تلك الاحكام السابقة للتفكير الشخصي مأخوذة عن السلف بالنقل دون نقد

(٣) «أسمى المعرفة جلية اذا كانت حاضرة وظاهرة أمام نفس منتبهة» مبادىء الفلسفة ٦ ج ١ الفقرة ٤٥ . أما المعرفة المتميزة فهى ما كانت ذات حدود معينة بحيث لا تختلط مع غيرها ، ويرى ديكارت أن المعرفة تصح أن تكون جلية وغير متميزة مثل شعور المرء بألم موجع فان المعرفة هنا حاضرة وظاهرة ولكنها غير متميزة لاضطراب حكم المرء فى طبيعة الألم ولكن العكس لا يصح (راجع المبادىء ٦ ج ١ فقرة ٤٦)

وتسمى تلك القاعدة الاولى بقاعدة اليقين .

(٤) تسمى هذه القاعدة التحليل

(٥) البسيط هو ما ليس له أجزاء وهو اما يعرف كله أو يجهل كله (أنظر القواعد (٦) : الثانية عشر)

وأسهلها معرفة (١) كي أتدرج قليلا قليلا حتى أصل الى معرفة أكثرها تركيبا ، بل وان أفرض ترتيبا بين الامور التى لا يسبق بعضها الاخر بالطبع .

والاخير ، أن اعمل فى كل الاحوال من الاحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلنى على ثقة من اننى لم أغفل شيئا (٢)

هذه السلاسل الطويلة من الحجج ، وكلها بسيطه وسهلة ، التى اعتاد أصحاب علم الهندسة الاستعانة بها للوصول الى أصعب براهينهم ، يسرت لى أن اتخيل أن كل الاشياء ، التى يمكن أن تقع فى متناول المعرفة الانسانية تتتابع على طريقة واحدة ، وانه اذا تحامى المرء قبول شىء منها على أنه حق مع انه ليس حقا ، واذا حافظ دائما على الترتيب اللازم لاستنباط بعضها من بعض ، فانه لا يمكن أن يوجد بين تلك الاشياء ما هو من البعد بحيث لا يمكن

---

(١) هذا الاصطلاح « أسهل الامور معرفة » غامض عند أرسطو وفي العصور الوسطى وهو يفيد من جهة مانعرفه أحسن معرفة ، ومن جهة أخرى أكثر الامور قبولا للمعرفة مطلقا وبالطبع ، أو أكثرها قبولا للفهم (أنظر روبان Robin الفكر اليونانى La pensée grecque ص ٣٠٥ وكذلك برنشفيك Brunschvigg الرياضة ومابعد الطبيعة عند ديكارت ١٧ . وهذه القاعدة الثالثة تسمى قاعدة التأليف و التركيب .

(٢) تسمى تلك القاعدة بقاعدة الاستقراء التام Enumération وهو عند ديكارت ينحصر في « تحرى كل ما يتصل بمسئلة ما ، وينبغى أن يجتهد في ذلك التحرى ويعنى به بحيث يمكن أن يستنبط منه بيقين أننا لم نهمل شيئا بخطأ منا » القواعد ١ القاعدة السابعة ومع أن ديكارت يطلق على تلك العملية اسم « الاستقراء » فانها في الواقع كما يقول هملان (ص ٧٣) « قياس في طريق التكوين » . وهو يختلف عن الاستقراء القديم في أنه مع تأسيسه علاقات بين الحدود أ وب وبين ب وج وبين ج ود وبين دوس يساعد على اقامة علاقة واحدة بين أ وس وبذلك يكون الاستقراء الديكارتى وسيلة لزيادة المعرفة والاستكشاف Ars inveniendi (راجع هانكان منهج ديكارت ٢ ص ٧٧٢)

ادراكه ، او من الخفاء بحيث لا يستطاع كشفه • ولم يعينى كثيرا البحث عن الشيء الذى تدعو الحاجه الى البدء به لاننى عرفت من قبل أنه يكون بأبسط الاشياء وأسهلها معرفه ، ولما لاحظت انه بين كل من بحثوا من قبل عن الحقيقة فى العلوم ، ليس الا الرياضيين هم الذين استطاعوا أن يجدوا بعض البراهين ، اعنى بعض الحجج الوثيقة اليقينية ، فاننى لم اشك فى انه بنفس تلك الاشياء كانوا يدرسون ، على انى لم آمل منها أى فائدة أخرى ، غير تعويد عقلى على أن يألف الحقائق ، وألا يقنع البتة بالحجج الباطلة • ولكننى لم اعزم قط ، لاجل هذا ، على تعلم كل هذه العلوم الخاصة التى يسميها الجمهور بالرياضيات ، وللاحظتى انه مع أن موضوعاتها متباينة(٣٠) فانها تتفق جميعا ، فى انها لا تبحث الا عما فيها من النسب المختلفة أو المقادير ، فكرت فى انه خير ان اقتصر على درس هذه المقادير على العموم ، وألا افرضها الا قائمة بالموضوعات التى تعين على تسهيل معرفتى لها بل من غير أن اقصرها عليها البتة كى تزيد قدرتى على تطبيقها فيما بعد على كل ما عداها من الموضوعات التى توافقها (١) ولما لاحظت بعد ذلك أننى ، لمعرفة تلك المقادير ، محتاج فى بعض الاحايين الى أن اعتبرها كل واحد على حدة ، وفى احايين أخرى الى أن أكتفى بتذكرها ، او الى ان اجمع عددا كثيرا منهـــا (فى وقت واحد) ، فكرت انه لكى يحسن النظر فى كل واحد منها على حدة وجب على أن افرضها خطوطا (مستقيمة) ، لاننى لم أجد شيئا ابسط منها ولم أقدر ان اعرض لخيالى وحواسى ما هو أكثر تميزا منها ، ولكن لاجل تذكرها ، او لجمع الكثير منها (فى وقت واحد) ،

---

(١) « هذا هو العزم على درس النسب فى ذاتها باستقلالها عن كل مادة تتعلق بها » وذلك ما سيؤدى بديكارت الى اختيار الخطوط كرموز للتعبير عن كل المقادير» جلسون التعليق ٤ ص ٢١٨ ومعنى هذا تفكير ديكارت فى العلم الذى استحدثه وهو الهندسة التحليلية التى سيتحدث عنها فى الصفحة الآتية.

وجب على أن افسرها برموز أكثر ما تكون ايجازا (١) ، وبهذه الوسيلة ، استعير خير ما فى التحليل الهندسى والجبر ، وأصحح كل عيوب احدهما بالآخر (٢) .

وفى الحقيقة فانى استطيع ان أقول ان المراعاة الدقيقة لهذا العدد القليل من المبادىء الذى اخترته قد هونت على كثيرا حل كل المسائل التى يتناولها هذان العلمان، حتى انه فى شهرين أو ثلاثة مضيتها فى اختبارها، وكنت قد بدأت بأبسط الامور واعمها، وكل حقيقة وجدتها كانت قاعدة اعانتنى فيما بعد على وجود أخرى ،(٣١) فاننى لم انته فقط الى حل كثير منها كنت أجده فيما قبل معضلا جدا بل بدا لى أيضا قبيل النهاية ، اننى قادر أن أحدد، حتى فى المسائل التى أجهلها ، بأى الطرق ، والى أى حد ، يستطاع حلها ، وفى هذا ربما لا أظهر لكم رجلا فارغا ، اذا لاحظتم أنه ليس للشىء الواحد الا حقيقة واحدة ، فمن وجدها فقد عرف من هذا الشىء كل مايستطاع عرفانه ، فمثلا اذا قام طفل تعلم الحساب بعملية جمع حسب قواعده ، فانه يستطيع أن يثق أنه وجد فيما يختص بحاصل جمع المسئلة التى هو بصددها ، كل مايستطيع العقل الانسانى أن

(١) استعمل ديكارت حروف الهجاء كرموز موجزة للدلالة على الكميات المعلومة كما انه أول من استعمل الحرفين س X وى Y للدلالة على الكميات المجهولة . ونحن مع الذين يرون أن الـ س كرمز رياضي يدل على المجهول الذى يطلب العلم به هو من أصل عربى ، لأن العرب كانوا يستعملون للاشارة الى ذلك المجهول كلمة « شيء » وأخذها عنهم الاسبان ، ولما لم يكن في لغة هؤلاء ما يقابل حرف الشين ، استعاضوا عنها بالسين X) أنظر كازانوفا Casanova تعليم العربية في الكوليج ده فرانس ص ٢١ باريس سنة ١٩١٠ ومحمود الخضيرى العرب والرياضة في مجلة الزهراء ج ٦ م ٤ شعبان ١٣٤٦

(٢) لأن ديكارت باستحداثه الهندسة التحليلية بفضل تطبيق منهجه قد جمع بين مزية الهندسة بدرس الخطوط ــ وهذا تيسير للدرس لما فيه من استعانة بالخيال ــ وبين مزية الجبر بالايجاز في الرموز

يجده . لأن المنهج الذى يعلم المرء اتباع الترتيب الصحيح ، واحصاء كل الظروف بدقة فى الشىء الذى يتحراه ، يشتمل على كل ماجعل قواعد علم الحساب موثوقا بها .

ولكن أكثر ما أرضـــانى من ذلك المنهج ، هو ثقتى أننى بواسطته استعمل العقل فى كل أمر ، ان لم يكن على الوجه الأكمل، فعلى خير ما فى استطاعتى على الأقل ، ذلك فوق اننى كنت أشعر فى تطبيق ذلك المنهج أن عقلى كان يتعود شيئا فشيئا على تصور ما يتصوره على وجه أشد وضوحا وأقوى تميزا ، وأننى اذ لم أقصر هذا المنهج على مادة معينة ، فقد كان لى الأمل أن أطبقه تطبيقا مفيدا أيضا على معضلات العلوم الأخرى كما فعلت بمعضلات علم الجبر (١) وليس معنى هذا أننى اقتحمت بادىء الرأى امتحان كل ما يعرض من معضلات العلوم ، لأن هذا نفسه مخالف للنظام الذى يوجبه المنهج (٢) . ولكن لما لاحظت أن مبادىء تلك العلوم يجب أن تكون (٢٢)مقتبسة كلها من الفلسفة ، التى لم أكن وجدت فيها بعد شيئا يقينيا ، فكرت فى أنه يجب على أن أحاول أولا أن أقرر فى الفلسفة أصولا يقينية ، ولما كان هذا أهم شىء ، والتهور والتسبق الى الحكم قبل النظر أخوف ما يخاف فيه ، وجب على ألا أصمم على المضى فيه ما لم أبلغ من العمر سنا أنضج من سنى يومئذ (٣) وكانت ثلاثة

---

(١) في النص اللاتينى « كما فعلت بمعضلات الهندسة أو الجبر » أعمال ديكارت الكاملة مطبوعة أدم وتانرى ج ٦ ص ٥٥٢

(٢) أى للمبدأ الثالث المسمى بقاعدة التأليف (أنظر جلسون التعليق ص ٢٢٦)

(٣) يقصد شتاء ١٦١٩ حيث كان في منعزله وحيث اهتدى الى منهجه لاول مرة ، ومن المعروف أن ديكارت مولود سنة ١٥٩٦

وعشرين عاما ، وما لم أكن أنفقت قبلا زمنا كثيرا فى اعداد نفسى له سواء كان ذلك بأن أنزع من عقلى كل الآراء الفاسدة ، التى كنت تلقيتها قبل ذلك ، أو بأن أجمع التجارب الكثيرة ، كى تكون فيما بعد مادة استدلالاتى وأن أروض نفسى دائما على المنهج الذى الزمت نفسى به ليتزايد رسوخى فيه .

القسم الثالث

ثم انه لما كان لا يكفى قبل البدء فى تجديد المسكن الذى نقيم فيه أن نهدمه ، وأن نحصل مواد العمارة والعماريين ، أو أن نعمل بأنفسنا فى العمارة ، وأن نكون عدا ذلك قد وضعنا له الرسم بعناية بل يجب أيضا أن يكون لنا مسكن آخر نستطيع أن نأوى اليه فى راحة أثناء العمل فى ذلك المسكن ، وكذلك ، لكى لا أظل مترددا فى أعمالى ، حينما يجبرنى العقل على ذلك فى أحكامى ، ولكى لا أحرم نفسى منذ الآن من أسعد حياة أقدر عليها ، فاننى وضعت لنفسى قواعد للأخلاق مؤقتة (١) لا تشتمل الا على ثلاث حكم أو أربع أدلى اليكم بها :

---

(١) أى غير نهائية . والحقيقة أن هذا التعبير أدى الى خلاف كبير بين مؤرخى الفلسفة الديكارتية ، لأن ديكارت يقول في تنبيهه الذى صدر به المقال انه استنبط قواعد الاخلاق الواردة فى القسم الثالث من منهجه ، وكذلك يقول فى القسم السادس ص ٦١ أنه يقيس أخلاقه على منهجه على أنه يقرر هنا وفى أمكنة أخرى أن هذه الاخلاق مؤقتة . ويعرفنا مخطوط جوتنجن (وقد نشره لاول مرة الاستاذ آدم سنة ١٨٩٦ ثم ظهر في الاعمال الكاملة فى المجلد الخامس) بأن ديكارت كتب قواعده الاخلاقية وهو نادم وذاك خشية أن يتهمه المشتغلون بالعلم وغيرهم بأنه لادين له ولا ايمان ، وكذلك خشية أن يسيئوا فهم منهجه ، وقد كتب الى صديق له في أول نوفمبر سنة ١٦٤٦ يقول لو أنه وضع أخلاقا نهائية لما أبقى له الناقدون راحة ما ، لأن طبيعياته لم تنل القبول عند أولى الامر ، كما ان البعض اتهمه باللاأدرية لانه نقض أقول اللاأدريين ، وقال عنه البعض الآخر انه ملحد

الأولى أن أطيع قوانين بلادى وعوائدها ، مع ثبات فى محافظتى على الديانة التى أنعم الله علىّ بأن نشأت فيها منذ طفولتى (٢٣)، وأن أحكم نفسى فى كل أمر آخر ، تبعا لأكثر الآراء اعتدالا ، وأبعدها عن الافراط ، والتى أجمع على الرضاء بها فى العمل ، أعقل الذين سأعيش معهم ، لأننى ، لما بدأت منذ ذلك الحين ألا أقيم لآرائى الخاصة أى اعتبار — وذلك لأنى أردت أن أختبرها جميعا — أيقنت أنه ليس فى استطاعتى أن أعمل خيرا من اتباعى لآراء أعقل الناس ، ومع أنه ربما كان بين الفرس والصينيين من هم ذوو عقول كعقولنا ، فقد بدا لى أن الأنفع هو تدبير أمرى تبعا للذين أعيش معهم ، ولأجل أن أعرف ما هى حقيقة آرائهم ، كان واجبا علىّ أن أعنى بما يعملون لا بما يقولون ، ليس السبب فى ذلك هو أن فساد أخلاقنا جعل قليلين يرضون أن يقولوا كل ما يعتقدون . بل ولأن كثيرين يجهلون هم أنفسهم ما يعتقدون ، وذلك لأنه لما كان عمل العقل الذى به يعتقد المرء بشىء ما ، مخالفا لما به يعرف

مع انه أثبت وجود الله ، وغير ذلك (انظر الاعمال الكاملة ج ٤ ص ٥٣٦) ومن المعروف أن ديكارت فى تصنيفه للعلوم في مقدمته لمبادىء الفلسفة ٦ جعل الاخلاق في قمة العلوم وقال انها تستلزم معرفة كاملة للعلوم الأخرى ، ولما كان ديكارت لم يستطع اتمام طبيعياته ولا أن يطبقها على الميكانيكا والطب فانه لم يستطع وضع أخلاقه النهائية مع عنايته الكثيرة بعلم الاخلاق (راجع هملان الكتاب المذكور قبلا ٣ الفصل الرابع والعشرون وبوترو Boutroux العلاقة بين الاخلاق والعلم فى فلسفة ديكارت فى كتابه دروس فى تاريخ الفلسفة ١٣ ص ٢٩٩ وما يليها) على أننا نعتقد أنه لو أتم ديكارت مذهبه في الاخلاق لما نقض ما كتبه في المقال ، والذين قالوا ان ديكارت مال الى المذهب العقلى في الاخلاق فيما قاله عن الاخلاق بعد المقال لم يفطنوا الى أن ديكارت يفرق بين عمل العقل في العملى أى فى الاخلاق وعمله في النظرى مع تقريره دائما أن طبيعة العقل تقتضي ذلك وهذا ماسيوضحه فيما يتلو من القسم الثالث .

أنه يعتقد ، فكثيرا ما يوجد أحدهما بدون الآخر (١) ، ولم أتخير من بين الآراء الكثيرة المقبولة على سواء ، الا الأكثر اعتدالا . وذلك لأنها دائما أيسر فى العمل ، ويرجح أن تكون هى الاحسن ، اذ أن كل افراط من دأبه أن يكون سيئا ، وأيضـا لكى أكون أقل ميلا عن الطريق القويم عند الوقوع فى الخطأ ، لا كما لو اخترت أحد المذاهب المتقابلة وكان الذى يجب أن أسلكه هو المذهب الآخر . واعتبرت على الأخص من بين مذاهب الافراط كل الامانى التى ينقص (٢٤) بها المرء شيئا من حريته . ولم يكن ذلك لاستنكارى للقوانين التى ـ لكى تعالج زعزعة النفوس الضعيفة ـ تبيح عنـد حسن الغرض أو مراعاة لامن التجـار ، اذ كان الغرض لا سـيئا ولا حسـنا أن يتقيد المرء بنذور أو عقود تضطره الى الثبات على ذلك ، ولكن ذلك لأننى لما لم أشاهد فى العالم شيئا يبقى على حالة واحدة ، وأنه لما كنت ـ فيما يختص بنفسى ـ آمل أن أزيد أحكامى كمالا ، لا أن أنقصها ، فقد رأيت أننى آتى خطأ فادحا مخالفا للعقل ، اذ كان تحبيذى لأمر فى زمن ما يجعلنى مضطرا لأن أعتبره أيضا طيبا فيما بعد ، عند ما قد تزول عنه هذه الصفة ، أو عندما أكف عن اعتباره متصفا بها .

وكانت حكمتى الثانية أن أكـون أكثر ما أستطيع جزما وتصميما فى أعمالى ، وألا يكون استمساكى بأشد الآراء عرضة للشك ، اذا ما صحت عزيمتى عليها ، أقل ثباتا مما لو كانت من أشد الآراء وضوحا . أحتذى فى هذا مثل المسافرين الذين يجدون

---

(١) لأن عمل النفس الذى نحكم به أن الشيء خير أو شر يتعلق بالارادة ، وأن العمل الذى نعرف به أننا حكمنا كذلك خاص بالعقل . وليس غريبا جدا أن تكون وظيفتان احداهما تتعلق بالعقل والأخرى بالارادة مختلفتين ، وأن احداهما تستطيع أن تكون بغير الأخرى » تفسير بيير سلفان رجيس اقتبسه جلسون في تعليقه ص ٢٣٧ و ٢٣٨ .

أنفسهم قد ضلوا فى بعض الغابات عليهم ألا يضربوا فيها التواء ههنا مرة ، وهنا مرة أخرى ، وشر من ذلك أن يقفوا فى مكان واحد، ولكن عليهم أن يسيروا دائما أكثر ما يستطيعون استقامة نحو جهة واحدة ، وألا يغيروا اتجاههم لأسباب ضعيفة ، ولو لم يكن الا مجرد اتفاق ، هو الذى جعلهم فى بادىء الأمر يصممون على اختياره، (٣٥) لأنه بتلك الطريقـة ، فهم ان لم ينتهـوا الى حيث يرغبون ، فهم يبلغون على الأقل بعض الأماكن التى يرجح أن يكونوا فيهـا خيرا مما لو ظلوا فى وسط غابة • وكذلك فان أعمال الحياة ، لما كانت لا تحتمل غالبا تأجيلا ما ، فانها لحقيقة أكيدة جدا ، أنه اذا لم يكن فى استطاعتنا تمييز أصح الآراء ، فان الواجب علينا اتباع أكثرها رجحانا ، بل اذا لم نلاحظ تمايزا فى الرجحان بينها ، فانه يجب علينا مع ذلك ، أن نتمسك ببعضها ، وألا نعتبرها بعد ذلك موضعا للشك باعتبارها متصلة بالعمل ، بل علينا أن نعتبرها جد حقيقة ووثيقة ، لأن العقل الذى ألزمنا بها هو نفسه كذلك • وهذا كان كافيا لتخليصى منذ ذلك الحين من كل ندم وتأنيب ، وهما يثيران فى العادة وجدان النفوس الضعيفة المتقلبة التى تستسلم فى غير ثبات الى العمل ما تعتبره صالحا ؛ ثم تحكم فيما بعد بأنه سيىء •

وكانت حكمتى الثالثة أن أجتهد دائما فى أن أغالب نفسى لا أن أغالب الحظ ، وأن أغير رغباتى لا أن أغير نظام العالم ، وبالجملة أن أتعود الاعتقاد بأننا لا نقدر الا على أفكارنا ، قدرة تامة (١) ، بحيث اننا اذا فعلنا خير ما نقـدر عليه ، فيما يختص بالأمـور الخارجية عنا ، فان كل ما ينقصنا بعـد ذلك من أسباب النجاح ، هو بالنسبة الينا مستحيل على الاطلاق • وهذا وحده فيما بدا

---

(١) أفكارنا ملك لنا لانها تتبع تماما ارادتنا الحرة .

لى ، كان كافيا لأن يصدنى عن الطمع فى المستقبل فى شىء لا أناله ، ولأن يجعلنى راضيا(١)، لأنه لما كانت ارادتنا بطبيعتها لاتميل(٢٦) الا الى الاشياء التى يصور لها فهمنا أنها ممكنة بحال ما ، فمن المحقق اذن أنه اذا اعتبرنا كل الخيرات الخارجة عنا تتساوى فى تباعد من مثال قدرتنا ، فاننا لا نكون أشد أسفا على الحرمان من مزايا يبدو لنا أن ميلادنا استوجبها عند ما يكون حرماننا منها بغير خطأ منا ، أكثر من أسفنا على ألا تكون لنا ممالك الصين والمكسيك، وكذلك اذا عملنا بما يدعونه فضيلة الضرورة ، فلن نرغب فى أن نكون أصحاء ، اذا كنا مرضى ، أو فى أن نكون أحرارا ، اذا كنا فى سجن ، أكثر من رغبتنا الآن فى أن تكون لنا أجسام من مادة فيها من قلة الاستعداد للفساد مثلما فى الماس ، أو أن تكون لنا

---

(١) نرى في هذه الحكمة الثالثة مظهر التأثير الرواقى ، ولقد كان شائعا في القرن السادس عشر ، فديكارت رواقى مثل أبطال روايات كورنى Corneille (أنظر بوترو الكتاب المذكور قبلا ١٣ ص ٢٠٠) . والرأى المشهور هو أن ديكارت رواقى في اخلاقه ولكننا نرى رأى هملان الذى يقول انه ليس رواقيا كما تذهب الى ذلك كثرة أهل الرأى وأنه يختلف عن الرواقيين فيما يأتى (١) يقول الرواقيون بالجبر المطلق ونفي حرية الارادة (※) ، بينما يثبت هو الحرية للارادة بل ان الارادة عنده تكاد ترادف الحرية (٢) ان الرواقيين يرون أن المرء يرزح تحت قوى الوجود وهم يعتبرون كل لذة حسية تراخيا وضعفا ، بينما يتفاعل ديكارت بالشهوت ويكثر التصريح بما فيها من خير (٣) ان فلسفة الرواقيين هى فلسفة استسلام بينما يدعو ديكارت في القسم السادس من المقال الى فلسفة تجعلنا سادة الطبيعة وأربابها . (أنظر مذهب ديكارت ٣ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣)

(※) يقول الاستاذ أحمد أمين في كتابه الاخلاق « ... ففلاسفة اليونان كان بعضهم يرى أن الارادة حرة فى الاختيار كالرواقيين ألخ) ص ٦٠ و ٦١ من الطبعة الثالثة : القاهرة ١٣٤٤ ــ ١٩٢٥ والذى ينسبه الاستاذ للرواقيين . ليس من مذهبهم لانهم كانوا يقولون بالجبر المطلق ونفى حرية الارادة (راجع جانيه وسياى Janet et Seailles تاريخ الفلسفة مسألة الحرية ص ٢٣٠)

أجنحة نطير بها مثل الطيور .. ولكنني أعترف بأن المرء محتاج الى رياضة طويلة، والى تأملات كثير تكرارها، حتى يتعود على ان ينظر من هذه الوجهة الى كل الامور ، واني لأعتقد أن في ذلك ينحصر سر هؤلاء الفلاسفة (١) ، الذين استطاعوا في زمن سالف أن يخلصوا من سلطان الحظ وأن ينازعوا آلهتهم السعادة (٢) ، رغم الآلام والفقر . لانهم باشتغالهم الدائم في تأمل الحدود التي فرضتها عليهم الطبيعة (٣) ، اقتنعوا تمام الاقتناع أنهم لا يقدرون الا على أفكارهم ، وان اقتناعهم هذا كان وحده كافيا لمنعهم من أن تكون عندهم شهوة لأشياء أخرى . ولقد كانوا يتصرفون في أفكارهم تصرفا مطلقا ، بحيث كان لهم بذلك حق في أن يعتبروا أنفسهم أغنى ، وأقوى ، وأكثر حرية ، وأسعد من أي انسان آخر لم تكن له تلك الفلسفة ، ومهما حبته الطبيعة والحظ بما في الامكان فهو لا يتصرف قط ذلك التصرف في كل ما يريد . **(٢٧)**

ثم رأيت نتيجة لهذا النظام الاخلاقي ، أن أخبر مشاغل الناس المختلفة في هذه الحياة ، كي أجتهد في اختيار أفضلها ، وبدون أي رغبة مني في أن أقول شيئا عن مشاغل الآخرين ، فكرت في أنني لا أقدر على خير من أن أستمر في نفس ذلك الشغل الذي كنت فيه ، أي على أن أنفق كل حياتي في تثقيف عقلي ، وفي التقدم على قدر ما أستطيع ، في معرفة الحقيقة ، تبعا للمنهج الذي فرضته

---

(١) أي الفلاسفة الرواقيون .

(٢) يعرف السيد الشريف الجرجاني الفلسفة بأنها « التشبه بالاله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية » التعريفات ص ١١٣ طبعة استانبول ١٣٢٧ وهذا مطابق لقول الرواقيين الذين كانوا يرون أن الحكيم سعيد مثل الاله نفسه

(٣) أي النظام الذى أقامه الله في كل شيء في الوجود (راجع كتاب الى الاميرة اليزابث ١٨ أغسطس ١٦٤٥ في م ٤ ص ٢٧٣ من الاعمال الكاملة طبعة آدم وتانرى)

على نفسي • ولقد شعرت بلذات بالغة جدا ، منذ بدأت فى أن آخذ نفسي بهـذا المنهج ، لذات لا أعتقد أن من المستطاع أن يجـد المرء ما هو أعذب منها ولا أطهر في هـذه الحياة ، وبكشـفى كل يوم بواسطته عن حقائق يبدو لى أنها ذات شأن وأن غيرى من الناس مشتركون فى الجهل بها ، كان ما نلته من الرضاء ملء نفسى الى حد جعل ما بقى من الاشياء لا ينال منى منالا • وعدا ذلك فان الحكم الثلاث السـابقة لم تكن مؤسسة الا على مقصـدى فى أن أواصل تعليم نفسى : لأن الله بمنحه كلامنا بعض النور لتمييز الحـق من الباطل ، لم أكن لأعتقد البتة فى أنه يجب على أن أقتنع بآراء الغير لحظة واحدة ، لو لم أكن قد عزمت على استعمال حكمى الخاص فى اختيارها ، فى الوقت المناسب ، ولم أكن لأعرف أن أتخلص من الهواجس لدى اتباعها ، لو لم آمل ألا أضيع من أجل هذا ، أى (٢٨) فرصة للوصول الى ما هو أفضل• ان كان هناك ماهو أفضل• ثم اننى ما كنت لأعرف أن أحد رغباتى ؛ أو أن أكون راضيا ، لو لم أتبع طريقا به ، وأنا أرى أننى واثق من تحصيلى لكل المعارف التى أنا أهل لها، أرى نفسى كذلك بنفس الوسيلة واثقا من تحصيلى ما هو فى الحقيقة خير مما يدخل فى طاقتى ، بحيث لا تميل ارادتنا الى طلب شيء ، أو الفرار منه ، الا تبعا لأن فهمنا يمثله لها طيبا أو خبيثا ، ويكفى أن يجيد المرء الحكم لكى يجيد العمل ، وأن يحكم أحسن ما يستطيع ، ليسارع الى عمل أحسن ما يستطيـع عملا ، أى لكى يحصل على كل الفضائل ومعها، كل الخيرات الأخرى التى يمكن تحصيلها ، وعندما يتأكد المرء أن ذلك كائن ، فانه لايعجزه أن يكون راضياً •

وبعد أن استوثقت كذلك من هذه الحكم ، ووضعتها ناحية

مع حقائق الايمان ، التى لها دائماً المنزلة الاولى فى اعتقادى (١) .
حكمت بأن مابقى من آرائى، هو أن أعمل على التخلص منها، ولما كنت
عظيم الأمل فى أن أستطيع الانتهـاء من ذلك بمحاضرة الناس على
وجه أحسن ، مما لو ظللت محبوساً فى حجرتى التى وافتنى فيها
كل تلك الأفكار ، فقد أخذت فى السفر ولم ينته الشتاء بعد ، وفى
السنوات التسع التالية كلها (٢) لم أصنع شيئاً الا الطواف هنا
وهناك فى العالم ، مجتهدا أن أكون فيه متفرجا لا ممثلا ، فى كل
المهازل التى تمثل فيه ، ولما كنت أخص تفكيرى ، فى كل شيء بما يمكن
أن يجعله موضعاً للشك ، ويكون سبباً فى خطئنا ، فانني انتزعت
مع ذلك من عقلى كل الأخطاء التى استطاعت ان تتسرب اليه من
قبل وما كنت فى ذلك مقلدا اللاأدرية (٣) الذين لا يشكون (٢٩)
الا لكى يشكوا ، ويتكلفون أن يظلوا دائما حيارى، فانى على عكس
ذلك ، كان كل مقصدى لا يرمى الا الى اليقين ، والى أن أدع الأرض
الرخوة والرمل ، لكى أجد الصخر أو الصلصال ، والذى نجحت
فيه ، على ما يبدو لى ، بعض النجاح ، هو أننى لما اجتهدت فى كشف
البطلان أو الشك فى القضـايا التى كنت أمتحنها ، لابفروض

---

(١) أى جنبها عن الشك المنهجى الذى يقول به في التفكير النظرى ولكنه يستبعده عندما يكون الامر فى صدد الدين أو الاخلاق .

(٢) من سنة ١٦١٩ الى سنة ١٦٢٨ ولقد أفلح ، مع انهماكه في الاسفار كما يقول ، في تطبيق منهجه على بعض مسائل الطبيعيات والرياضيات (انظر هملان مذهب ديكارت ٣ ص ٤٧) .

(٣) يختلف شك ديكارت المنهجى عن شك اللاأدريين في أنه لا يدوم بل ينتهى عند الوصول الى اليقين بينما شك اللاأدريين دائم لا ينتهى قط . (هملان الكتاب المذكور قبلا ٣ ص ١٠٨) ثم ان اللاأدريين يرون استحالة العلم لانهم يشكون في كل شيء حتى في انهم يشكون ، بينما ديكارت قبل مبادىء قوية لامكان العلم ، وهى ترجع جميعا الى التسليم بوجود الله وانه مصدر الصدق والخير وسيوضح ذلك في القسم الرابع .

ضعيفة ، ولكن بحجج ويقينية ، لم أجد فى شىء منها ما كثر فيه الشك الى ألا استخلص منه نتيجة على حد من اليقين ، ولو لم تكن هذه النتيجة سوى أن القضية لا تحتوى على شىء يقينى ، وكما ان المرء وهو يهدم بيتا قديما ، يحافظ فى العادة على أنقاضه لى تنفع فى بناء بيت جديد ، كذلك فاننى بنفضى كل ما حكمت عليه من آرائى بأنها آراء ضعيفةالاساس، فاننى كنت أقوم ببعض الملاحظات وأحصل تجارب كثيرة (١) ، أفادتنى بعد ذلك فى تأسيس آراء أكثر يقينا • وزيادة على ذلك ، واصلت رياضة نفسى على المنهج الذى فرضته على نفسى ، لأنه عدا أنى عنيت بأن أوجه كل أفكارى على العموم تبعا لقواعده ؛ كنت أخصص بين حين وآخر ، بعض الساعات أنفقها علىالخصوص فى تطبيقه على بعض معضلات الرياضيات ، بل وأيضا على بعض المعضلات الاخرى التى كنت أستطيع تحويلها الى مايكاد يشبه معضلات الرياضيات ، وذلك بتخليصها من كل مبادئ العلوم الاخرى ، التى لم أجد فيها متانة كافية ، كما سترونني أفعل فى كثير من العلوم المبسوطة فى هذا السفر(٢)وكذلك فانىمنغير أنتكونحياتى فىالظاهر مخالفة(٣٠) لحياة من ليس لهم شغل ، الا أن يقضوا حياة حلوة بريئة فانهم يجتهدون فى أن يميزوا بين الملذات والرذائل ، والذين يلجئون الى كل الملاهى النزيهة لكى ينعموا بفراغهم دون ملل ، لم أغفل أن أستمر فى مطلبى ، وأن أستفيد فى معرفة الحقيقة ، فائدة ربما كانت أكثر مما لو لم أفعل شيئاً غير قراءة الكتب أو التردد على أهل الأدب •

---

(١) في الطبيعيات والرياضيات ومن أهمها التحقيق التجريبى لقانون الانكسار ..

(٢) أى في مبحث انكسار الاشعة وعلم الانواء وهما موضوعان عالجهما ديكارت مع الهندسة وأصدر الثلاثة في كتاب واحد سنة ١٦٣٧ مع المقال •

وعلى كل حال فقد انقضت تلك السنوات التسع قبل أن أستقر على رأى فى المعضلات التى هى فى العادة موضوع نزاع بين العلماء (١) ، وقبل أن أبحث عن قواعد أى فلسفة أكثر يقينا من الفلسفة الذائعة(٢)٠ وان تجربة الكثيرين من أهل العقول الفائقة، الذين التمسوا من قبل مطلبى، ولم يفلحوا فيه على ما بدا لى، جعلتنى أتخيل فيه الصعوبة ، بحيث ربما لم أكن لأجرؤ على الشروع فيه بتلك السرعة ، لو لم أر أن البعض قد أذاعوا أننى وصلت بالمطلب الى غايتى ، ولست أدرى على أى شىء أسسوا هذا القول، واذا كان لى أثر فى هذا القول بأقوالى فلا بد أن ذلك كان فى اعترافى – بما كنت أجهل – فى سذاجة أصرح مما اعتاده الذين درسوا قليلا ، وربما كان ذلك أيضا وأنا أبين أسباب شكى فى كثير من الأشياء التى يعتبرها الآخرون يقينية ولم يكن فى تمدحى بأى علم (فلسفى) ولكننى اذ كنت من الشمم بحيث آبى أن يحسبنى النـاس على ما (٣١)لست عليه رأيت وجوب الاجتهاد بكل طريقة فى أن أكون أهلا لما وهبنى الناس من صيت ، وقد مرت ثمانى سنوات كاملة منذ أن حملتنى تلك الرغبة على أن أبتعد عن كل الاماكن التى أجد فيها بعض من أعرفهم ، وأن أنعزل هنـا فى بلد (٣) وطد فيـه طول استمرار الحرب (٤) نظما (جيدة) ، حتى ان الجيوش التى يحتفظ

---

(١) أى علماء العصور الوسطى ٠

(٢) أى فلسفة العصور الوسطى المعتمدة على آراء أرسطو ٠

(٣) المقصود هولندا ٠

(٤) بدأت تلك الحروب بالثورة على اسبانيا طلبا للانفصال عنها سنة ١٥٧٢ وانتهت بمؤتمر منستر Munster سنة ١٦٤٨ ٠

بها فى ذلك البلد تبدو كأنها لا تستخدم الا فى أن ينعم النـــاس بثمرات السلام فى كثير من الطمأنينة ، وحيث استطعت فى غمرة شعب كبير جم النشاط ، يعنى بأعماله أكثر من تطلعه الى أعمال الآخرين ، بدون أن أحرم أى رخاء مما يوجد فى المدن الغاصـــة بالنـــازلين ، أن أعيش منفردا ومنعزلا كمـــا لو كنـــت فى أقصى الصحارى .

القسم الرابع

لست أدرى أن كان يجب علي أن أحدثكم عن تأملاتى الأولى هناك (١) ؛ لأنها أدخل فى عالم المجردات (٢) وأبعد عن متناول الجمهور بحيث قد لا يسيغها ذوق الناس جميعا . ومع ذلك ، لكى يستطاع الحكم فيما اذا كانت الاصول (٣) التى اعتبرتها هى على قدر من الوثاقة كاف ؛ وجدتنى شبه مضطر الى أن أتحدث عنها : لاحظت منذ زمان طويل أنه فيما يختص بالاخلاق (٤) ، فان المرء محتاج بعض الأحايين الى أن يتبع آراء يعرف أنها موضوع للشك ، كما لو كانت لا تحتمل شكا ، وقد سبق القول فى ذلك (٥) ولكن نظرا لرغبتى اذ ذاك فى أن أفرغ للبحث عن الحقيقة ، رأيت أنه يجب على أن أفعل نقيض ذلك ، وأن أنبذ كل ما أستطيع أن أتوهم فيه أقل شك ، على أنه باطل على الاطلاق ، وذلك لأرى أن كان لا

---

(١) في هولندا

(٢) في النص الفرنساوى Si métaphysiques وقد نقل جلسون عن معجم الاكاديمى الفرنسية (١٦٩٤) أن هذه الكلمة كصفة تفيد أحيانا معنى التجريد . أنظر التعليق ٤ ص ٢٨٣

(٣) فى النص اللاتينى « أصول فلسفتى »

(٤) في الفقرة التالثة من الجزء الاول من المبادىء ٦ التى عنوانها « في أنه لا يجب علينا أن نستعمل هذا الشك فى تصريف أعمالنا » يبسط ديكارت قولا شبيها بالذى يورده هنا :

(٥) في الحكمة الثانية من الاخلاق المؤقتة في القسم الثالث من المقال

(٣٣) يبقى فى اعتقادى بعد ذلك شىء لا يحتمل الشك • وكذلك لما كانت حواسنا تخدعنا أحيانا ، (١) أردت أن أفرض أنه ليس من شىء هو فى الواقع كما تجعلنا الحواس نتخيله • ولان من الناس من يخطئون فى التفكير ، حتى فى أبسط أمور الهندسة ، ويأتون فيها بالمغالطات (٢) ، فاننى لما حكمت باننى كنت عرضة للزلل مثل غيرى ، نبذت فى ضمن الباطلات كل الحجج التى كنت أعتبرها من قبل فى البرهان ، ثم لما رأيت أن نفس الأفكار ، التى تكون لنا فى اليقظة ، قد ترد علينا أيضا ونحن نيام ، دون أن تكون واحدة منها اذ ذاك حقيقية (٣) اعتزمت أن أرى أن كل الأمور التى دخلت الى عقلى ، لم تكن أقرب الى الحقيقة من خيالات أحلامى • ولكن سرعان ما لاحظت أنه ، بينما كنت أريد أن أعتقد أن كل شىء باطل ، فقد كان حتما بالضرورة أن أكون أنا صاحب هذا التفكير ، شيئا من الأشياء • ولما انتبهت الى أن هذه الحقيقة : **أنا أفكر ، اذن فأنا موجود** (٤) ، كانت من الثبات والوثاقة (واليقين) بحيث لا يستطيع اللاأدريون زعزعتها ، بكل ما فى فروضهم من شطط بالغ ، حكمت أنى أستطيع مطمئنا أن آخذها مبدأ أول للفلسفة التى أتحراها •

---

(١) يقول في التأملات الاولى ١٢ « شاهدت بعض الاحايين أن هذه الحواس تخدعنا ، ومن الحزم ألا نثق البتة تمام الثقة في الذى يخدعنا مرة واحدة »

(٢) المغالطة قياس فاسد : اما من حيث مادته ، واما من حيث صورته

(٣) الفرق لدى ديكارت بين الحلم واليقظة في حظهما من الحقيقة « أن الذاكرة لا تستطيع أن تصل الاحلام بعضها مع بعض ومع مجرى حياتنا كما هو شأنها فى وصل الاشياء التى تحصل لنا ونحن في اليقظة » التأملات السادسة ١٢

(٤) أ . معنى التفكير . يقول ديكارت في التأملات الثانية ١٢ « اننى شيء مفكر Res cogitans . وما هو هذا الشيء المفكر ؟ انه شيء يشك ويفهم ويثبت وينفى ويريد ولايريدويتخيل أيضا ويحس » وكذلك يقول في التأملات الثالثة ١٢ « اننى شيء يفكر ، أى يشك ، ويثبت ، وينفى ويعرف من الاشياء قليلا ويجهل

ثم لما اختبرت بانتباه ما كنت عليه ، ورأيت أننى قادر على أن أفرض أنه لم يكن لى أى جسم ، وأنه لم يكن هناك أى عالم ، ولا

= منها الكثير ، ويحب ، ويكره ، ويريد ولا يريد ، يتخيل أيضا ويحس» ويقول أيضا فى ردوده على الاعتراضات الثانية ١٢ التعريف الاول « أعنى بكلمة الفكر Pensée أو Cogitatio كل ما هو فينا بحيث نكون على وعى به مباشرة وهكذا فعمليات الارادة والفهم والخيال والحس هى أفكار ولكننى أوردت كلمة مباشرة عن قصد كى أبعد كل ما يتبع أفكارنا أو يعتمد عليها فمثلا ، الحركة الارادية هى في الحقيقة فكر باعتبار مبدئها ، ولكنها ليست فكرا بذاتها » ويقول كذلك في الفقرة التاسعة من الجزء الاول من المبادىء ٦ أعنى بكلمة التفكير Penser ، كل ما يحصل فينا بحيث ندركه مباشرة بأنفسنا ، ولهذا فليس الفهم والارادة والخيال وحدها ولكن الحس أيضا كلها تفكير » وبالجملة فالتفكير عند ديكارت معناه أن يكون المرء واعيا على العموم .

ب القضية من الوجهة المنطقية . زعم جاسندى Gassendi أن أنا أفكر، اذن فأنا موجود قياس ، وأن ديكارت أضمر مقدمته الكبرى وهى « وكل مفكر موجود » ❊ ، واذا كان الامر كذلك فلا يصح أن تكون تلك الحقيقة أنا أفكر اذن فأنا موجود مبدأ أول مادامت تعتمد على صحة المقدمة الكبرى المضمرة . على أن ديكارت أجاب عن ذلك الاعتراض بأن مبدأه ليس قياسا وانما هو بداهة أو «تبصر بسيط للنفس » ويرجع السبب في اعتبار ذلك المبدأ قياسا الى وجود كلمة اذن Ergo أو Donc فيه التى تستعمل عادة في القياس وقد حل اسبينوزا ذلك الاشكال باقتراحه التعبير عن هذا المبدأ بهذه العبارة Ego sum cogitans أى أنا مفكر (راجع هملان الكتاب المذكور قبلا الفصل التاسع وكينوفيشر حياة ديكارت ومذهبه ١٠ ص ٤٠١ وما يليها وجلسون في تعليقه ٤ ص ٢٩٢ ومابعدها وبرنشفيك المقال المذكور سابقا ١٧ ص ٣١٥)

(❊) يسمى ذلك النوع من القياس بقياس الضمير وهو بالفرنسية Enthymène « وهو قياس طويت مقدمته الكبرى اما لظهورها والاستغناء عنها كما جرت العادة في التعاليم كقولك خطأ أ ب ، أ ج خرجا من المركز الى المحيط فينتج أنهما متساويان وقد حذفت الكبرى واما لاخفاء كذب الكبرى اذا صرح بها كلية كقول الخطابى هذا الانسان يخاطب العدو فهو اذا خائن مسلم للثغر ولو قال وكل مخاطب للعدو فهو خائن لشعر بما يناقض به قوله ولم يسلم » ابن سينا النجاة ص ٩١ طبع القاهرة ١٣٣١

أى حيز أشغله ؛ ولكننى لست بقادر ، من أجل هذا ، على أن أفرض ، أننى لم أكن موجودا ؛ بل على نقيض ذلك ، فان نفس كونى أفكر فى الشك فى حقيقة الأشياء الأخرى ، يستتبع استتباعا جد واضح وجد يقينى أننى كنت موجودا ؛ فى حين أنه لو كففت عن التفكير وحده ، وكان كل ما بقى مما فرضته حقا ، لم يكن (٣٣) لى مسوغ للاعتقاد بأننى كنت موجودا (١) : ولقد عرفت من ذلك

---

(١) التفرقة بين النفس والبدن . هذه الحجة التى أوردها هنا ديكارت لبيان استقلال النفس عن البدن ، أى لاثبات أن وجودها غير متوقف على وجوده يراها البعض مستمدة من القديس أوغسطينوس Augustinus وأول من قال بذلك هو الدكتور أرنولد Arnauld فى الاعتراضات الرابعة١٢ ولكن ديكارت لم يجب عليه في هذا الشأن بأكثر من شكره على « المعونة التى أمده بها وذلك بتأييده بحجة القديس أوغسطينوس » الردود على الاعتراضات الرابعة ١٢ وكذلك أنظر كينوفيشر حياة ديكارت وعلمه ومذهبه ١٠ ص ٢٩٦ ومابعدها وجلسون فى تعليقه ٤ ص ٢٩٥ ومابعدها على أن القائلين بذلك لم يقولوا بأن ديكارت نقل عن القديس أوغسطينوس نقلا بل لم يزيدوا على ملاحظة بعض وجوه التشابه بين أفكار الفيلسوفين . وقد ظهر هذا التشابه ضئيلا جدا أمام البعض حتى أهمله ومن هؤلاء هملان الذى يقول « وجه ديكارت جهده الى معضلة التفرقة بين النفس والبدن وذلك بتناوله المسألة فى ذاتها واستعان لحلها بحجة لاتختص الا به Qui n'appartient qu'à lui مذهب ديكارت ٣ ص ٢٥٤ وهو يقصد تلك الحجة التى نعلق عليها الآن لان لديكارت حجتين غيرها لايجادل أحد فى أنه استمدهما من سابقيه (أنظر المقدمة)

على أننا نعتقد أن نفس حجة ديكارت التى يقول عنها هملان انها لاتختص الا به ، قد أوردها من قبله ابن سينا فى الشفاء فقال « فنقول يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعة وخلق كاملا لكنه حجب بصره عن مشاهدة الخارجات وخلق يهوى فى هواء أو خلاء هويا لايصدمه فيه قوام الهواء صدما مايحوج الى أن يحس وفرق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تتماس ثم يتأمل انه هل يثبت وجود ذاته فلايشك في اثباته لذاته موجودا ولايثبت مع ذلك طرفا من أعضائه ولا باطنا من أحشائه ولا قلبا ولا دماغا ولاشيئا من الاشياء من خارج بل كان يثبت ذاته ولايثبت لها طولا ولا عرضا ولا عمقا ولو انه أمكنه في تلك الحال أن يتخيل يدا =

= أو عضوا آخر لم يتخيله جزءا من ذاته ولا شرطا في ذاته . وأنت تعلم أن المثبت غير الذى لم يثبت والمقرب غير الذى لم يقرب فان للذات التى أثبت وجودها خاصية لها على أنها هو بعينه غير جسمه وأعضائه التى لم يثبت فاذن المثبتة له سبيل الى تنبه على وجود النفس شيئا غير الجسم بل غير جسم وانه عارف به مستشعر له وان كان ذاهلا عنه يحتاج أن يقرع عصاه » ص ٢٨١ ، ٢٨٢ من طبعة طهران . ويعود أيضا فيقول فى نفس الكتاب «ولنعد ماسلف ذكره منا فنقول : لو خلق انسان دفعة واحدة وخلق متباين الاطراف ولم يبصر أطرافه واتفق أن لم يمسها ولاتماست ولم يسمع صوتا جهل وجود جميع أعضائه ويعلم وجود انيته شيئا مع جهل جميع ذلك وليس المجهول بعينه هو المعلوم وليست هذه الاعضاء لنا فى الحقيقة الا كالثياب ...» ص ٣٦٣ . ويقول كذلك فى كتابه الاشارات والتنبيهات عند الكلام على النفس الارضية والسماوية «ولو توهمت ذاتك قد خلقت أول خلقها صحيحة العقل والهيئة وفرض أنها على جملة من الوضع والهيئة بحيث لاتبصر أجزاءها ولاتتلابس أعضاؤها بل هى منفرجة ومعلقة لحظة ما فى هواء طلق وجدتها قد غفلت عن كل شيء الا عن ثبوت انيتها » ص ١١٩ من مطبوعة فورجيه Forget في ليدن سنة ١٨٩٢ وكذلك جاء في لباب الاشارات النمط الثالث فى النفس الارضية والسماوية القسم الاول فى البحث عن ماهية جوهر النفس :

«※ (تنبيه) ※ المشار اليه بقولى أنا ليس بجسم ، لوجهين : الاول أن جميع الاجزاء البدنية فى النمو والذبول والمشار اليه بقولى أنا باق فى الاحوال كلها والباقى مغاير لغير الباقى . الثانى : أنى قد أكون مدركا للمشار اليه بقولى أنا حال ما أكون غافلا عن جميع أعضائى الظاهرة والباطنة فانى حال ماأكون مهتم القلب بمهم أقول أنا أفعل كذا وأنا أبصر وأنا أسمع وأنا جزء من هذه القضية فالمفهوم من أنا حاضر لى فى ذلك الوقت مع انى فى ذلك الوقتأكون غافلا عن جميع أعضائى والمشعور به غير ماهو غير مشعور به فأنا مغاير لهذه الاعضاء . وان شئت أمكنك أن تجعل هذا برهانا على أن النفس غير متحيزة لانى قد أكون شاعرا بجسمى أنا حال ماأكون غافلا عن الجسم فأنا وجب ألا يكون جسما» .

وقد بين الاستاذ فورلانى Furlani أن النصين اللذين اقتبسناهما من الشفاء كانا مترجمين الى اللاتينية وأن الفيلسوف غليوم أوفرنىAuvergne قد =

أننى كنت جوهرا (١) كل ماهيتــه (٢) أو طبيعته ليســت الا أن يفكر ، ولأجل أن يكون موجودا ، فانه ليس فى حاجة الى أى مكان ولا يعتمد على أى شىء مادى . بحيث أن الأنية ، أى (النفس (٣)

نقلهما عنه مع ذكر اسم ابن سينا . وقال الاستاذ فالوا Valois فى كتابه عن أوفرنى الصادر فى باريس ١٨٨٠ عند الكلام عن الفكرة التى ينقلها هذا الاخير عن ابن سينا «توجد هذه التعبيرات تقريبا فى المقال عن المنهج» (انظر ابن سينا ومبدأ ديكارت أنا أفكر ، اذن فأنا موجود Avicennae il Cogito, Ergo Sum di Cartesio فى مجلة الاسلاميات Islamica المجلد الثالث الكراسة الاولى ص ٥٣ — ٧٢ فى ليبزج ابريل سنة ١٩٢٧) .

(١) يقول ديكارت «عندما نتصور الجوهر ، فانما نتصور شيئا موجودا بحيث لايحتاج لاجل وجوده الا الى نفسه» المبادىء ج ١ الفقرة ٥١ وكذلك يقول: «يسمى جوهرا كل شىء يقوم فيه مباشرة كأنه فى موضوع ، ويوجد بواسطته شىء ما ندركه ، ومعنى ذلك أى خاصية ، سواء صفة أو نعت تحصل لها عندنا فكرة حقيقية» الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ التعريف الخامس . ويميز ديكارت دائما بين الجوهر المفكر وهو النفس والجوهر المتحيز وهو الجسم على العموم.

(٢) يستعمل ديكارت الماهية أو الطبيعة كمترادفين (أنظر جلسون التعليق؛ ص ٣٠٥) . ويعنى ديكارت بالماهية Essence « الشىء كما هو فى العقل » نص اقتبسه من الرسائل ليارد فى تعليقه على المبادىء ٦ الجزء الاول ص ٤٠ وهــذا مايطابق استعمال لفظة الماهية عند فلاسفة العرب .

(٣) فى النص الفرنسى وردت كلمة âme أى الروح ولكننا نقلنا هنا عن النص اللاتينى حيث جاءت كلمة Mens أى النفس ولم تأت كلمة Anima وهى ماتقابل فى اللاتينية كلمة âme فى الفرنسية . ولقد حــدد مايقصده بكلمة النفس فى التعريف السادس من الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ فقال : «الجوهر الذى يحل فيه الفكر مباشرة يسمى هنا بالنفس . وأنا أقول هنا النفس Mens ولا أقول الروح Anima ، لان الكلمة الاخيرة تدعو للبس ، اذ تطلق غالبا للدلالة على شىء جسمى» . (انظر جلسون التعليق ٤ ص ٢٠٧ و ٣٠٨) ويظهر أن هملان أخذ الكلمة Ame كما وردت فى المقال وقال ان ديكارت وقع باستعمالها فى خلط كبير وكان عليه أن يستعمل كلمة فكر أو معرفة بدلا من كلمة روح (راجع مذهب ديكارت ٣ ص ١٠٦) . على أننا نعتقد أن خطأ ديكارت لغوى محض وعذره فى ذلك حداثة عهد اللغة الفرنسية فى أيامه بالعلم ، والدليل=

التى أنابها ، هى متمايزة تمام التمايز عن الجسم ، بل وهى أيسر أن تعرف (١) وأيضا لو لم يكن الجسم موجودا البتة لكانت النفس موجودة كما هى بتمامها (٢) ٠

وبعد ذلك ، بحثت فيما يلزم للقضية كى تكون حقيقية ويقينية ؛ لأننى لما كنت وجدت قضية علمت أنها كذلك ؛ فكرت فى أنه واجب على أن أعرف مم يتكون هذا اليقين ٠ لاحظت أنه لاشىء فى هذه القضية : **أنا أفكر ، اذن فانا موجود** ، يجعلنى أثق من أنى أقول الحق ، الا كونى أرى بكثير من الجلاء لأجل التفكير ، فالوجود واجب : فحكمت بأننى أستطيع أن أتخذ قاعدة عامة ، أن الأشياء

على ذلك أنه لم يقع فى نفس الخطأ فى الترجمة اللاتينية التى راجعها وأقرها كما أن المترجم الفرنسى لكتابه المبادىء ٦ كثيرا مايستعمل كلمة Ame للدلالة على نفس المعنى المقصود فى المقال ٠ كما فعل فى الفترة الحادية عشرة من الجزء الاول ٠

(١) هذا القول نتيجة منطقية لمبدئه أنا أفكر ، اذن فأنا موجود ولتعريفه النفس بأنها جوهر مفكر فالنفس اذن أسهل معرفة من البدن لان البدن لايمكن معرفته الا بالنفس واذن فمعرفتها سابقة لمعرفته ٠ وهو يقول للتدليل على ذلك فى الفقرة الحادية عشرة من ج ١ من المبادىء ٦ « اذا كنت أقتنع أن هناك أرضا لانى المسها أو لانى أبصرها ، فمن ذلك عينه ، وبدليل أقوى بكثير ، يجب على أن أقتنع بأن فكرى كائن أو موجود ، حتى ولو جاز عدم وجود أرض ما فى العالم وانه لايمكن أن انيتى أى نفسى لاتكون شيئا ما حينما يحصل عندها ذلك الفكر». ارجع أيضا الى التأملات الثانية ١٢

(٢) يعتمد ديكارت فى ذلك على المبدأ الذى أثبته فى مذهبه وهو أن الاشياء التى نتصورها متمايزة جلية هى حقيقية وعلى ذلك فيفسر قوله بوجود النفس اذا فرض عدم وجود الجسم بما يأتى : (١) اثباته السابق على أننا عند اغفال الجسم نظل مدركين لوجودنا (أنظر ص ٥٢ و ٥٣) (٢) مادمنا ندرك الشىء جليا متميزا فهو حقيقى لانه يستحيل على الله أن يخدعنا ٠ (٣) التوحيد بين الحقيقة فى الذهن وفى الاعيان كما كان يقول بذلك علماء العصور الوسطى (راجع مبادىء الفلسفة ٦ ج١ الفقرة ٦٠ ومابعدها) ٠

التى نتصورها تصورا قوى الوضوح والتميز ، هى جميعا حقيقية ؛ غير أن هناك بعض الصعوبة فى أن نبين ما هى الاشياء التى نتصورها متمايزة .

وبعد ذلك ، فاننى لما فكرت فى شكوكى ، وأن مؤدى هذا أن ذاتى لم تكن تامة الكمال ، لاننى تبينت أن المعرفة كمال أكبر من الشك ، رأيت أن أبحث أنى تعلمت ان أفكر فى شىء أكمل منى ؛ وعرفت يقينا أن ذلك يجب أن يكون ذا طبيعة هى فى الواقع أكمل (١) . أما ما كان عندى من تفكيرات فى أشياء كثيرة (٣٤) أخرى خارجة عنى مثل السماء ، والارض ، والضوء ، والحرارة ، وألف شىء آخر ، فلم أتعب كثيرا فى معرفة من أين جاءت . ذلك لانى اذ لم ألاحظ فيها شيئا يجعلها فى نظرى أسمى مرتبة منى ، استطعت ان أعتقد أنها ، اذا كانت حقيقية (٢) فانها من توابع طبيعتى ، من جهة أن طبيعتى لها شىء من الكمال ، وأن هذه الأشياء ان لم تكن كذلك ، فاننى أكون استمددتها من العدم ، أى أنها كانت حاصلة عندى من جهة ما فى من نقص . ولكن الأمر لا يمكن ان يكون على هذا النحو فيما يختص بفكرة وجود أكمل من وجودى : لأن استمداد تلك الفكرة من العدم ، أمر جلى الاستحالة ؛ لأن التناقض الواقع فى أن الاكمل يكون لاحقا وتابعا لما هو أقل كمالا ، ليس أقل من التناقض الواقع فى انه يحدث شىء ما من العدم ، اذن فأنا لاأقدر أيضا على ان استمد هذه الفكرة من نفسى (٣) . وعلى

---

(١) هذا نتيجة لمبدأ العلية الذى يقبله ديكارت وهو «لايكون فى المعلول ماليس في العلة » الردود على الاعتراضات الثانية ١٢

(٢) يعنى بقوله حقيقية أن لها وجودا فى الاعيان أى موجودة فى الخارج

(٣) تصبح الفكرة التى يبسطها ديكارت فى هذه الصفحة مفهومة وواضحة اذا فطنا الى مبدئين ديكارتيين أساسيين . الاول : أن ديكارت يبدأ دائما لا من الشىء فى الخارج وانما يبدأ من نفسه أى بمعرفته للشىء وتفكيره فيه أنى أفكر Cogito . والثانى : أن للشيء وجودا عينيا (أى في الخارج بصرف النظر عن =

ذلك بقي أن تكون هذه الفكرة قد ألقيت الى من طبيعة (١) هي في الحقيقة أكثر مني كمالا ، بل ولها من نفسها كل الكمالات ، التى أستطيع أن أتصورها ، واذا أردت التعبير بكلمة واحدة ، عن تلك الطبيعة فان المراد بها الله ، وأضفت الى ذلك انه بما أنني قد عرفت بعض الكلمات التى ليس لى شيء منها ، فانني لست الكائن الوحيد الذى فى الوجود (وهنا سأستعمل بحرية، ان كان يرضيكم هذا، كلمات المدرسة)(٢) بل يجب بالضرورة أن يكون هناك كائن آخر أكثر كمالا ، أنا تابع له ، ومن لدنه حصلت على كل ما هو لى (٣) ، لأننى لو كنت وحيدا ومستقلا عن كل ما هو **(٣٥)** غيرى بحيث كان لى من نفسى كل هذا القليل الذى أشارك (٤) الذات الكاملة فيه ، لكنت اذن أستطيع أن أحصل من نفسى للسبب عينه على كل ماهو فوق ذلك مما أعرفه ينقصني (٥)، وبذلك أكون

= الوجود في الذهن) بقدر ماله من الكمال . ويجب وصل هذين المبدأين بقانون العلية الذى يعبر عنه بقوله «ان علة الوجود لأى لاشيء موجود بالفعل أو لأى كمال لشيء موجود بالفعل لايمكن أن تكون لاشيء أو تكون شيئا غير موجود» البديهية الثالثة من ردوده على الاعتراضات الثانية ١٢

(١) في النص اللاتينى « بواسطة كائن طبيعته كانت الخ » .

(٢) يقصد بقوله كلمات المدرسة اصطلاحات علماء العصور الوسطى التى لم تكن قد هضمتها اللغة الفرنسوية بعد (انظر جلسون التعليق ٤ ص ٣٣٢)

(٣) في النص اللاتينى « كل ماكان في » .

(٤) أى القليل من الكمال الذى ليس ذاتيا للانسان (أى ليس جزءا من ماهيته) ولكنه حاصل على جزء منه فهو يشارك الله في ذلك لان الله حاصل على كل الكمال .

(٥) يريد أن يقول انه ليس علة لما له من القليل من الكمال .

أنا نفسى غير متنـاه (١) ، وأزليـا أبديا (٢) ، وغير متغير (٣) ، وعالما بكل شيء ، وقادرا على كل شيء وقصارى القـول أن تكون لى كل الكمـالات التى أستطيع أن ألحظ أنهـا لله (٤) لأنه تبعـا للاستدلالات التى أوردتها (٥) ، فلكى أعرف طبيعة الله ، على قدر ما تستطيع طبيعتى ، فانه لم يكن على الا أن أتأمل فى كل الأشـياء التى وجدت لها فى نفسى صورة ذهنية هل فى امتلاكها كمال أم غير كمال وقد أيقنت أن شيئا مما يفيد النقص منها ليس لله ، ولكن كل ما عدا ذلك ثابت له • وكذلك رأيت أن الشك، والتقلب، والحزن، وما شابهها من الأمور ، لم تكن لتكون فيه ، اذ أننى أنا نفسى كنت

---

(١) يعتبر ديكارت هذا الاصطلاح موجبا أى أنه ليس سلبا متناة بل يقول ان «متناه» هى سلب «غير متناه» وفى ذلك يقول (لأستعمل البتة كلمة غير متناه للدلالة فقط على ماليس له نهاية ، وهذا مايكون سالبا وقد أطلقت عليه كلمة غير محدد Indéfini ، ولكن للدلالة على شيء حقيقى ، أعظم ، بدون موازنة. من كل الاشياء التى لها نهاية ما ، من كتاب له الى بعض أصدقائه مقتبس فى معجم الفلسفة ١١ للاستاذ لالاند فى مقـالة غـير متناه Infini وفى التأملات الثالثة ١٢ يقول انه لايستعمل كلمة غير متناه سلبا لكلمة متناه كما يستعمل كلمة السكون لنفى كلمة الحركة والظلام لنفى النور لانه يوجد فى الجوهر الغير المتناهى من الحقيقة أكثر مما يوجد فى الجوهر المتناهى ولان فكرة الغير المتناهى سابقة عنده لفكرة المتناهى اذ كيف يمكن أن يعرف أنه غير تامل مالم يكن قد فكر من قبل فى ذات أكمل من ذاته عرف بمقارنتها عيوب طبيعته •

(٢) أزلى أى لايقدر العقل على تصور بداية له وأبدى أى لايقدر على تصور نهاية له والكلمة الفرنسـية éternel تفيد معنى الكلمتين أى ليس له مبدأ فى أوله كالقدم ولا انتهاء له فى آخره كالبقاء وهذه صفة ينفرد بها الله لانه لايفتقر فى وجوده الى موجود آخر فوجوده ليس له ابتداء ولن يكون له انتهاء .

(٣) لان الحركة والتغير لايكونان للذات الحاصلة على كل الكمالات .

(٤) عرف ديكارت الله بقوله «أعنى بالله جوهرا غير متناه ، أزليا أبديا ، غير متغير ، مـستقلا ، عالما بكل شيء ، قادرا على كل شيء ، وهـو الذى خلقنى وخلق سائر الاشياء الاخرى (اذا كان يوجد منها حقيقة شيء ما)» •

(٥) أى الخاصة باثبات وجود الله

أرتاح لأن أكون خالصا منها • ثم انه عدا ذلك ، فلقد كانت لى أفكار عن أشياء كثيرة حسية وجسمية ، لأنه مهما فرضت أننى كنت فى حلم ، وآن كل ما شاهدت أو تخيلت كان باطلا فاننى لا أقدر على كل حال أن أنكر ان هـذه الأفكار كانت على الحقيقة فى ذهنى ، ولكن لما كنت عرفت بوضوح كثير فيما مضى فى نفسى أن الطبيعة العاقلة متمايزة عن الجسمية ، وذلك باعتبارى آن كل مركب يدل على تبعية (١) ، وان التبعية نقص بلا شك ، فاننى حكمت من هذا أنه لم يكن كمالا فى الله أن يكون مركبا من هاتين الطبيعتين (٢) ، وعلى ذلك فهو لم يكن مركبـا ، ولكن اذا كان فى العـالم بعض الأجسام ، أو بعض العقول (٣) ، أو طبـائع أخرى ، لم تكن تامة الكمال ، فان وجودها كان واجبا أن يعتمد على قدرته ، بحيث **(٣٦)** أنها جميعا لم تكن لتقدر على أن تقوم بدونه لحظة واحدة (٤) •

---

(١) «لان أجزاء المركب يعتمد بعضها على البعض الآخر وأن الكل نفسه يعتمد على الاجزاء التى تكونه» جلسون التعليق ٤ ص ٣٣٩ •

(٢) أى العاقلة والجسمية •

(٣) «أى ملائكة أو انسان» جلسون فى المكان المذكور •

(٤) يقول ديكارت بنظرية الخلق المستمر فهو يرى أن حفظ الله للكائنات هو خلق وهذا راجع الى أنه يرى أن لحظات الزمن مستقل بعضها عن البعض الآخر فليس ينتج بالضرورة عن وجودى الآن وجودى في اللحظة التالية مالم يشأ الله ذلك واذن فالحفظ والخلق عنده شيء واحد • أنظر هملان مذهب ديكارت٣ ص ١٩٣ و ٣٠٧ • وسنعود للكلام عن هـذه النظرية فى التعليق على القسم الخاص •

ولقد بسط ديكارت حتى الآن دليلين لاثبات وجود الله فالاول يمكن ايجازه فى القول بأنه استنبط من شكه أنه غير كامل اذ أن المعرفة أولى بالكمال من الشك ولكنه ماكان ليعرف أنه غير كامل لو لم تكن لديه فكرة الكمال واذا فلابد من سبب لحضور تلك الفكرة فى ذهنه اذ أنه لاينتج شيء من لاشيء ويجب أن يحتوى هـذا السبب على كمال وحقيقة أكثر مما فى المسبب عنه • وهذا السبب ليس هو نفسه لانه ليس كاملا كما أنه ليس العالم الخارجى لانه لم يثبت بعد حقيقة وجوده =

أردت بعد ذلك أن أبحث عن حقـائق أخـرى ، ولما كنت قد اخترت موضوع أصحاب الهندسـة ، الذى كنت أتصوره جسـما متصلا ، أو حيزا لا يتناهى امتداده فى الطول والعرض والارتفاع أو العمق ، قابلا للانقسام الى أجزاء مختلفة ، يمكن أن تتخذ أشكالا وأحجاما مختلفة ، وأن تحرك أو تنقل على جميـع الوجـوه ، لأن أصحاب الهندسـة يفرضون ذلك كله فى موضـوع علمهم ، فانى تصفحت بعض ما يستعينون به من أبسط براهينهم اذ لاحظت أن ما يعزوه اليها الناس من أنها جد يقينية، انما يقوم على أنها تتصور بجلاء ، تبعا للقاعدة التى ذكرتها غير بعيد (١) ، فاننى لاحظت أيضا أنه لاشىء فيها البتة يجعلنى على ثقة من وجود موضوعها(٢)، فاننى مثلا أرى أنه اذا فرضت مثلثا ، لزم أن تكون زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتين ، ولكن ليس فى هذا ما يجعلنى أستيقن أن فى العـالم مثلثا ، ذلك على حين أننى عندما عدت الى امتحان ما

= ولانه حادث ولايستطيع أن يقوم بنفسه. واذن فهو ليس بكامل واذن فليس السبب الا ذاتا لها كل الكمالات وهذه هى ذات الله . وأما الدليل الثانى وهو متصل بالاول فيتلخص فى القول بأنه عرف أنه موجود وأنه غير كامل ولكنه يمتلك فى ذهنه فكرة الكمال وقد عرف أيضا أنه ليس علة وجود نفسـه لانه اذا كان هو العلة لوجود نفسه كان ممكنا أن يكون أكثر كمالا مما هو لان الارادة تنزع دائما للخير الاعظم فيجب اذن أن تكون العلة لوجوده ذاتا لها كل الكمالات وهذه هى الله ، والاستاذ فيشر يسمى هذا الدليل بالدليل الانسانى Anthropologische Beweis ويراه أساسا للدليلين الآخرين أى الدليل الاول ويسميه بالدليـل التجـريبى Empirische والدليل الوجـودى الذى سيتكلم عنه ديكارت عن قريب ويرى كذلك أنه «هو الدليل الديكارتى الحق لاثبات وجود الله» . أنظر حياة ديكارت وعمله ومذهبه ص ٣١٥ ومابعدها .

(١) أى «ان الاشـياء التى نتصورها بجـلاء وتمايز كثيرين هى جميعا حقيقية» .

(٢) أى «الجسم المتصل المتحرك الذى هو موضوع البراهين الهندسية» جلسون التعليق ٤ ص ٣٢٧ .

عندى من الصورة الذهنية لموجود كامل ، ألفيت أن الوجود كان داخلا فيها على الوجه الذى يدخل به فى الصورة الذهنية لمثلث أن زواياه الثلاث مساوية لقائمتين ، أو كما يدخل فى الصورة الذهنية لدائرة أن كل أجزاء محيطها متساوية البعد عن مركزها بل وهو أكثر من هذين وضوحا ، وينتج عن ذلك أن كون الله ، الذى هو هذا الموجود الكامل ، موجودا هو على الأقل مساو فى اليقين لخير ما يمكن أن يكون برهانا هندسيا (١) ٠

---

(١) أطلق كانت على هذا الدليل أسم الدليل الوجودى Ontologische Beweis فأصبح بعد ذلك معروفا بهذا الاسم (أنظر نقد العقل الخالص Kritik der reinen Vernuntf الكلام فى استحالة دليل وجودى على وجود الله ص ٥٩٢ ومابعدها من الطبعة الاولى سنة ١٧٨١ وص ٦٢٠ ومابعدها من الطبعة الثانية سنة ١٧٨٧) وجملة هذا الدليل أن الله كامل اذن فهو موجود لان الكمال يتضمن الوجود كما يتضمن مفهوم المثلث أن زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتين ٠ واعترض جاسندى على ديكارت بأن الوجود ليس كمالا ٠ وأصل الاختلاف بينه وبين ديكارت أن ديكارت يبدأ كما نعرف من التفكير لاثبات الوجود أنا أفكر Cogito أى ان الوجود الخارجى عنده تابع للماهية أما عند جاسندى فالماهية منتزعة من الوجود العينى ، ويقول ديكارت أنه يستحيل أن نتصور شيئا له كل الكمالات وليس له وجود اذ أن التناقض ظاهر في ذلك ٠ **(راجع التأملات السادسة ١٢)** على ان نقد كانت أقوى من نقد جاسندى فهو يقول «من البين أن الوجود ليس محمولا حقيقيا ، أى ليس تصورا لشىء ما يمكن اضافته الى تصور لشىء Ein Begriff von irgend etwas, was zu dem Begriffe eines Dinges hinzokommen Konne **الكتاب المذكور** ص ٥٩٨ من الطبعة الأولى و ٦٢٦ من الطبعة الثانية ويفسر ذلك بأن الوجود هو مجرد الرابطة فى الحكم أى مايربط المحمول بالموضوع فقولك الله **هو** قادر على كل شىء قضية تشتمل على تصورين الاول الله والثانى قادر على كل شىء أما كلمة هو (وفى اللغات الاوربية يستعمل فعل الكينونة فهو فى هذا المثال ist أى يكون ولما لم يكن فى العربية هذا الاستعمال قلنا هو للدلالة على الحكم بدلا من الفعل يكون ist) فليست محمولا وانما هى تقيم العلاقة بين المحمول والموضوع ٠ وعلى ذلك فهو يقول ٠ ان القائلين باثبات وجود الله ، اعتمادا على تصورنا له ، هم بين أن يقعوا فى التناقض المنطقى=

(٣٧) ولكن السبب فى أن الكثيرين يعتقدون بالصعوبة فى معرفة ذلك ، بل فى معرفة ما هى نفسهم أيضا ، هو أنهم لا يرفعون عقولهم قط الى مافوق الأشياء المحسوسة، وأنهم تعودوا ألا يعتبروا شيئا من الأشياء الا اذا تخيلوه (١) وهذه طريقة فى التفكير خاصة بالأشياء المادية ، حتى ان كل مالا يمكن تخيله يبدو لهم غير قابل لأن يفهم • وهذا بين من أن الفلاسفة (٢) أنفسهم يتخذون شعارا

= أو الدور . ذلك بأن تصور الله ، الذى هو موضوع القضية ، ان كل متضمنا للوجود ، فالاستدلال به على الوجود استدلال على الشيء بنفسه وهو الدور ، وان كان تصور الله خلوا من الوجود ، فالوجود اذن فى المحمول فيكون أحد طرفى القضية المتساوية الطرفين متضمنا للوجود والطرف الآخر خلوا منه والحكم على هذا النحو تناقض فى المنطق .

ولكن هذا النقد انما يتوجه به على غير ديكارت (لان الدليل الوجودى كان معروفا قبل ديكارت) لان موضع هذا البرهان من مذهب ديكارت يحميه لان مبدأ تحقق الاشياء عند ديكارت هو فى العقل ، ولامعرفة يقينية عنده الا ماذهب من العقل الى الحس . ثم ان الوجود يصح أن يكون محمولا لانه ليس مستمدا من التجربة والحواس بل هو مستمد من العقل ، وهو يرى أنه «حينما نقول ان لازما تحتوى عليه طبيعة أى شيء أو تصوره ، فهذا كما لو نقول انه حقيقى لذلك الشيء أو ممكن اثباته له » **الردود على الاعتراضات الثانية ١٢** التعريف التاسع

ودفع تهمة وقوعه فى الدور بقوله « .. اننى لم أقع فى الخطأ الذى يسميه المناطقة بالمصادرة على المطلوب ، فان اعتبار الوجود من لوازم ماهية الله لايزيد على اعتبار مساواة زوايا المثلث الثلاث مساوية لقائمتين» . من كتاب له اقتبسه **هملان فى مذهب ديكارت** ص ٢١٣ . راجع للدفاع عن ديكارت ضد كانت وجاسندى **هملان الكتاب المذكور** ص ٢١٢ ومابعدها **وجلسون التعليق** ٤ ص ٣٤٧ مابعدها **وبرنشفيك الرياضة ومابعد الطبيعة عند ديكارت** ١٧ ٣٠٨ ومابعدها

(١) أنظر التعليق على كلمة الخيال فى القسم الخامس .

(٢) يقصد فلاسفة العصور الوسطى

لهم فى المدارس أنه لا شىء فى العقل لم يكن أولا فى الحس (١) ، ومع ذلك فانه ليقينى أن الصورتين الذهنيتين لله والنفس(الناطقة) لم تكونا قط فى الحس • ويبدو لى أن الذين يريدون أن يستعينوا على فهمها بخيالهم ، يفعلون كما لو أنهم أرادوا الاستعانة بعيونهم على سماع الأصوات ، أو شم الروائح • الا أن هناك هذا الاختلاف ، وهو أن حاسة البصر لاتؤكد لنا تحقق الأمور التى يختص بادراكها ، أقل مما تفعل حواس الشم والسمع، فى حين أنه لايستطيع خيالناولا حواسنا أن تجعلنا نتأكد من شيء ، اذا لم يتوسط عقلنا فى ذلك •

وأخيرا، اذا كان هناك بعض من الناس من لم يقتنعوا اقتناعا كافيا بوجود الله ووجود أنفسهم ، بالحجج التى أوردتها ، فانى أريد أن يعرفوا أن كل الأشياء الأخرى التى يرون أنهم أكثر وثوقا بها ، وذلك مثل أن يكون للمرء جسـم ، وأن توجـد الكواكب والأرض ، وما شابهها من الأمور ، هى أقل ثبوتا ، لأنه مع أن للمرء (ـ كما يقول الفلاسفة ـ) ثقة أخلاقية (٢) بهذه الأشياء ، التى يبدو معها أن المرء لا يقدر على الشك فيها الا اذا كان مسرفا **(٣٨)** ،

---

(١) اشارة الى الكلمة المشهورة فى العصور الوسطى «لاشىء فى العقل لم يكن أولا فى الحس Nihil est in intellectu quod prius non fuerit in sensu وكان هذا المذهب معروفا عند العرب ومن أنصاره **أبو حامد الغزالى** الذى يعبر عنه بقوله «لايحل في العقل الا مايحل في الحس» **تهافت الفلسفة** طبعة القاهرة ١٣٢١ ص ٧٨ ويقول الاستاذ فورلانى Furlani ان هذه الكلمة انتقلت الى أوربا عن طريق العرب • انظر مقالته المذكورة سابقا **ابن سينا ومبدأ ديكارت أنا أفكر أذن فأنا موجود في مجلة** islamica المجلد الثالث الكراسة الاولى ص ٦٨ •

(٢) يفسر ديكارت ذلك بقوله « •• سوف أميز هنا بين نوعين من اليقين الأول يسمى اخلاقيا ، اى كافيا لتدبير شئوننا الخلقية ، أو هو مثل يقيننا بالأشياء التى تمس السلوك فى الحياة التى لم نعتد قط أن نشك فيها ، مع أننا نعرف انه قد يجوز أن تكون باطلة على الاطلاق • وهكذا فان الذين لم =

ومع ذلك أيضا ، فعندما يكون المرء بصدد يقين ميتافيزيقى (١) ، فانه لا يقدر ، الا اذا كان محروما من العقل ، على انكار أنه يكفى علة لنفى كمال اليقين ، أن يلاحظ أنه من المستطاع على هذا الوجه أن يتخيل النائم ، أن له جسما آخر ، وأنه يبصر كواكب أخرى ، وأرضا أخرى ، دون أن يكون من ذلك شيء • لأنه من أين للمرء أن يعرف أن الفكر التى ترد اليه فى الحلم هى أقرب الى البطلان من الفكر الأخرى ، مع أنها فى أكثر الأحايين ليست أقل قوة ووضوحا ، ومع أن خيرة العقلاء يبحثون فيها ما شاءوا ثم لا يستطيعون ــ فيما أعتقد ــ أن يقيموا حجة واحدة كافية لنزع هــذا الشــك ، ما لم يفرضوا قبلا وجود الله • أولا : لأن هــذا الذى قررته ، هو الذى اتخذته غير بعيد قاعدة ، أى أن الأشياء التى نتصورها جد واضحة وجد متمايزة هى جميعا حقيقة ؛ هذا الذى جعلته أولا قاعدة ليس ثابتا الا لأن الله كائن أو موجود وأنه ذات كاملة ؛ وأن كل مافينا يصدر عنه (٢) •

ويتبع ذلك أن صورنا الذهنية ومعارفنا لما كانت موجودات

= يذهبوا البتة الى رومة لايشكون فى أنها مدينة فى ايطاليا ، مع أنه يجوز أن كل الذين عرفوهم بها ربما خدعوهم • وأما اليقين الثــانى فهو عندما نرى أنه يستحيل أن يكون الشيء غير ما نحكم به » من مبادىء الفلسفة اقتبسه جلسون فى تعليقه ٤ ص ٣٥٨

(١) هذا هو النوع الثانى من اليقين الذى تكلم عنه فى النص الذى اقتبسناه من مبادىء الفلسفة

(٢) هذا ما يسمى بالسند الالهى لصحة الحقائق التى نتصورها بتمايز وجلاء فان الله لما كان له كل الكمالات يستحيل عليه أن يخدعنا (انظر المقدمة)

خارجية (١) صادرة عن الله فهي بمـا هي به واضحة متمايزة ، لا يمكن أن تكون الا حقيقة بحيث أنه ، اذا كان كثيرا ما يكون فى تلك الصور الذهنية أو المعـارف مايحتوى على بطلان ، فذلك لا يمكن أن يكون الا في ماكان منها محتويا على شيءذى غموض وابهام، فانها في هذا تشارك العدم، أعنى أنها ليست فينا بهذه المثابة من الغموض الا لأن كمالنا ليس تاما من كل وجه. وظاهر أن التناقض فى أن البطلان أو النقص يصدر عن الله ، بهذا الاعتبار ، ليس أقل (٣٩) من التنـاقض فى أن الحقيقـة أو الـكمال يصدر عن العدم . ولكن اذا لم نعرف أن كل ما فينا من واقعي وحقيقى ، يأتى من ذات كاملة وغير متناهية ، فمهما كانت صـورنا الذهنية من الوضوح

---

(١) ترجمنا فى هذا القسم كلمة idée بكلمة صورة ذهنية لتميز معناها عند ديكارت عن معنى كلمة صورة لأن الصورة من ادراكات الخيال وهى مالابد لوجوده من مادة او جسم بينما يقصد ديكارت بالصورة الذهنية ما يتضح من قوله « أعنى بكلمة الصورة الذهنية مثال الشيىء الذى بحضوره في نفس المدرك يعرف الشيء ، بحيث لا أستطيع أن أعبر عن أمر من الأمور بألفاظ ، عندما أفهم ما أقول ، الا كنت بنفس التعبير مثبتا أن الأمر الذى تعبر عنه الألفاظ متمثل في نفسي . وهكذا فأنا لا أدعو الصور الحسية المنقوشة في الخيال باسـم الصور الذهنية ، بل بالعكس فأنا لا أدعوها قط بهذا الاسم مادامت فى الخيال أى مادامت منطبعة في بعض أجزاء المخ ، ولكننى أدعوها بذلك حينما تحصـل علما للجانب العقلى الذى يعنى بهذا الجزء من المخ » الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ التعريف الثانى

ومما يجب الانتباه اليه أن للصورة الذهنية عند ديكارت وجودا حقيقيا ويسميها أحيانا موجودات ذهنية res cogitata . والصـورة الذهنية حقيقية الوجود من وجهين الأول باعتبارها كيفية للجوهر المفكر ، والثانى لأنها مثال لحقيقة خارجية (انظر التعريف الثالث الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ وانظر جلسون في التعليق ٤ ص ٣١٨ — ٣٢١)

والتمايز ، فلن يكون لنا أى دليل يجعلنا نستيقن أنه كان لها كمال كونها حقيقية (١) •

ولكن بعد أن جعلتنـــا معرفـــة الله والنفس على ثقة من تلك القاعدة (٢) ، فمن السهل أن نعرف أن الاحلام التى نتخيلها أثناء النوم ، لا ينبغي فى شيء أن تجعلنا نشـــك فى صحة الفكر التى تحصل لنا ونحن في اليقظة • لأنه اذا حدث ، حتى أثناء النوم • أن وردت على المرء صورة ذهنية متمايزة جدا ، كان يهتدى أحد أصحاب علم الهندسة الى برهان جديد ، فلا يمنع نومه أن يكون برهانه صحيحا • أما فيما يختص بالخطأ الأكثر وقوعا فى أحلامنا، وهو ينحصر فى أن الأحـــلام تصـــور لنا أمورا مختلفة كما تفعل حواســـنا الظاهرة ، فليس مهما أن يكون ذلك الخطأ ســـببا فى الارتياب فى صحة مثل هذه الصور(٣) (التى نتلقاها أو نستطيع تلقيها من الحواس) ، وذلك لأنها تقدر أيضا على خداعنا فى أحايين كثيرة ؛ دون أن نكون فى النوم : ومثال ذلك أن الذين يصابون بمرض اليرقان ، يبصرون كل شيء أصـــفر اللـــون ، وكذلك فان الكواكب والأجرام الأخرى النائية جدا تظهر لنا أصغر بكثير مما هى • ثم انه سواء كنا فىيقظة أو كنا فى نوم، لا يلزمنا أن نقتنع بأمر ما الا بيقين عقلنا• ويجدر بالملاحظة أننى أقول عقلنا، ولا(٤٠)

---

(١) يعتمد في ذلك على القول بأن الحقيقة تنحصر في الوجود والبطلان ينحصر في عدم الوجود ، واذن فاذا كانت هنـــاك فكرة باطلة فذلك لانها غير موجودة

(٢) أى « ان كل ما نتصوره بوضوح وتميز هو حقيقى »

(٣) في النص الفرنسي كلمة idées ونرى أنها تترجم هنا بالصور لانه يتحدث عن الحواس كما أنه حددها بالجملة التى وردت في النص اللاتينى زائدة على النص الفرنسي

أقول قط خيالنا أو حواسنا (١) • وكذلك فمع اننا نرى الشمس واضحة جدا ، فانه لا يلزمنا من أجل هذا أن نحكم بأنها ليست من الحجم الا كما نراها ، ونحن نستطيع أن نتخيل فى تمايز رأس أسد مركبا على جسم عنزدون أن يلزمنا أن نستنتج من هذا ، أن فى العالم هذا الحيوان الخرافى : لأن العقل لا يملى علينا أن ماتراه أو نتخيله كذلك هو حقيقى • ولكنه يملى علينا أن كل ما يحصل عندنا من صور ذهنية ومعارف يجب أن يكون لها أساس من الحقيقة ، لأن الله الذى هو تام فى كماله وفى ثبوته لم يكن ليضعها فينا لولا ذلك • ولأن استدلالاتنا أثناء النوم لاتكون قط من اليقين والكمال بمثل حالتها فى اليقظة ، وان كانت خيالاتنا تكون أحيانا اذ ذاك فى نفس القوة والوضوح ، أو أشد فان العقل يملى علينا أيضا أن فكرنا لما لم يكن ممكنا أن تكون جميعا حقيقية، لأننا لسنا على كمال مطلق ، فان ما فيها من حقيقة أولى أن يكون حتما فى الفكر التى تحصل عندنا ، ونحن فى اليقظة لا فى أحلامنا •

---

(١) انظر التعليق على كلمة الخيال في القسم الخامس

القسم الخامس

قد أرتاح لأن أستمر هنا في تبيين سلسلة الحقائق الأخرى التي استنبطتها من هذه الأولى . ولكن لما كان تحقيق هذا الغرض ، يحتاج الى أن أتكلم الآن في مسائل كثيرة هي موضع اختلاف بين العلماء (١) الذين لا أريد أن أحشر نفسي في جمعهم . فاني أعتقد أن الأفضل أن أكف عن ذلك الكلام ، وان أقتصر على القول على العموم ماهي تلك الحقائق ، كي أفسح المجال لمن هم أكثر حكمة حتى يقرروا ان كان من المفيد أن يعرف عنها الجمهور(٢) شيئا (٤١) أكثر تفصيلا ظللت دائما مصمما على العزم الذي اعتزمته ، ألا أفرض مبدءا آخر غير الذي أخذت به غير بعيد في الاستدلال على وجود الله والنفس ، وألا أقبل شيئا على أنه حق ، ما لم يظهر لي أنه أكثر وضوحا وتوكدا من براهين أصحاب الهندسة من قبل . وعلى كل حال فانني أجرؤ على القول ، بأنه ليس الذي وجدته هو مجرد سبيل يسد حاجتي في قليل من الزمن ، في كل أصول المعضلات التي تعالج عادة في الفلسفة (٣) ، ولكنني لاحظت أيضا

---

(١) يقصد بالعلماء علماء العصور الوسطى . أما المسائل التي لا يريد أن يحشر نفسه في زمرة العلماء الذين يتجادلون فيها فهي تختص بالطبيعة وخصوصا مسألة حركة الارض (راجع هملان مذهب ديكارت ٣ ص ٢٦)

(٢) في النص اللاتيني « جمهور المتأدبين »

(٣) أي في الطبيعيات المعروفة في العصور الوسطى جلسون التعليق ٤ ص ٣٧٢ .

بعض القوانين ، التى أقامها الله فى الطبيعة ، والتى طبع فى نفوسنا معارفها (١) ، بحيث انه بعد التفكير فيها تفكيرا كافيــــا ، لا نقدر على الشك فى أنها روعيت بدقة فى كل ما هو موجود ، أو كل ما يحــدث فى العالم • وبعــد ذلك فبالتفــكير فى تسلسل تلك القوانين بدا لى أننى استكشفت حقائق كثيرة أنفع وأهم من كل ما تعلمته من قبل ، بل ومن كل ما أملت أن أتعلمه •

ولما كنت قد اجتهدت فى شرح أصول تلك الحقائق فى رسالة منعتنى بعض الاعتبــارات عن اذاعتهــا (٢) ، فاننى لا أقدر على التعريف بها أكثر من أن أذكر هنا بايجاز ما تحويه هذه الرسالة • وكان غرضى أن أضمنها كل ما كنت أرى أننى أعرفه قبل كتابتها ، مما يتصل بطبيعة الأشياء المادية • ولكن كما أن المصــورين لمــا كانوا لا يقدرون على أن يمثلوا بالتساوى على لوح ذى سطح واحد كل الوجــوه المختلفة لجسم صلب ، فانهم يختارون أحــد الوجوه الرئيسية يضعونه وحده نحو الضوء ، ويظللون الوجوه الأخرى ، (٤٢) بحيث لا تظهر الا على مقدار ما يمكن رؤيتها عند النظر الى هذا الوجه ، كذلك لما كنت أخشى ألا أقدر على أن أضع فى مقالتى (٣) كل ما فى ذهنى ، فاننى عملت على أن أعرض فى هذه الرسالة عرضا جد مفصل ما كنت أتصوره من معنى الضوء ، ثم أزيد بهذه المناسبة شيئا عن الشمس ، وعن الكواكب الثابتة ، لان الضــوء كله يكاد يصدر عنها ، وعن السموات لانها هى التى تنقله ، وعن السيارات وذوات الأذناب وعن الأرض ، لانها هى التى تعمل فى

---

(١) أى انها موجودة في نفوسنا بدون كسب أو تحصيل

(٢) يقصد كتابه العالم الذى سيتحدث عنه كثيرا في هذا الفصل وكان قد بدأ الكتابة فيه في أواخر عام ١٦٢٩ (انظر كتابه الى مرسن Mersenne في ١٨ ديسمبر سنة ١٦٢٩ في الأعمال الكاملة ج ١ ص ٨٤)

(٣) يقصد أيضا كتابه العالم

انعكاسه ، وخصوصا عن كل الاجرام التى فوق الأرض ، لانها اما ملونة ، أو مشفة ، أو مضيئة ، وأنتهى بالانسان لانه الناظر الى كل تلك الأشياء • بل ، ولكى أظلل كل هذه الأشياء قليلا ، ولكى أستطيع فى حرية أن أقول حكمى فيها دون أن أكون مرغما على اتباع الآراء المتداولة بين العلماء (١) أو نقضها ، فاننى اعتزمت أن أترك كل هذا العالم ، لمجادلات هؤلاء العلماء ، وألا أتحدث الا عما يحصل فى عالم جديد ، لو أن الله خلق الآن فى جهة ما ، فى الامكنة الخيالية ، مادة كافية لتكوينه ، ولو أنه حرك حركة مختلفة ، وعلى غير نظام الأجزاء المختلفة لهذه المادة ، بحيث انه يكون منهـــا خليطا (٢) هو من الاضطراب كما يستطيع أن يتوهم الشعراء ، ولا يفعل بعد ذلك شيئا الا أن يعير الطبيعة مدده العادى(٣) • وأن يدعها تعمل تبعا للقوانين التى أقامها • وكذلك ، فانى أولا ، وصفت هذه المادة واجتهدت أن أمثلها على وجه الا يكون شىء فى العالم فيما أرى أكثر منها وضوحا ولا قبولا للفهم منه ، حاشا الذى ذكر آنفا عن الله وعن النفس: ذلك بأننى فرضت أيضا عن قصد(٤٣) أنه ليس فى هـــذه المادة شىء من هـــذه الصـــور أو الصفات التى يتجادلون فيهـــا فى مدارس العصور الوسطى ، وليس فيهـــا على العموم شىء ليست معرفته طبيعية بالنسبة لعقولنا ، الى حد أنه لا يستطاع حتى ادعاء الجهل بها • وفضلا عن ذلك ، بينت قوانين الطبيعة ، وبدون أن أؤسس استدلالاتى الا على مبدأ كمالات الله

---

(١) أى فلاسفة العصور الوسطى وعلماء اللاهوت فيها

(٢) الكلمة الفرنسية هى Chaos والمقصود بها المادة التى لا صورة لها

(٣) « معنى هذا فى لغة علم أصول الدين فى العصور الوسطى ، العمل الذى لا يفعل به الله غير حفظه للعالم بقوانينه ، حفظا مستقلا عن التدخلات الخارقة للعادة التى يغير بها المجرى العـــادى للطبيعة » جلسون التعليق ؛ ص ٣٨٤

غير المتناهية ، فانني حاولت أن أثبت بالبرهان كل القوانين التى أمكن أن يشك فيها بعض الشك ، وأن أبين أنها بحيث لو أن الله خلق عوالم كثيرة ، فلا يكون فيها واحد لا تراعى فيه تلك القوانين. وبعد ذلك ، بينت كيف أن أكبر جزء من مادة هذا الخليط ، كان ينبغى تبعا لتلك القوانين أن ينتظم ويترتب على هيئة معينة تجعله مشابها لسماواتنا ، وبينت أيضا كيف أن بعض أجزائه كان ينبغى مع ذلك أن يؤلف أرضا ، وأن البعض الآخر كان ينبغى أن يؤلف سيارات وكواكب من ذوات الأذناب ، والبعض الآخر شمسا وكواكب ثابتة . وهنا توسعت فى موضوع الضوء ، ففسرت باطناب كثير ما هو ذلك الضوء الذى ينبغى أن يوجد فى الشمس وفى الكواكب ، وكيف اذا بدأ من هناك يخترق فى لحظة واحدة(١) ما للسموات من أمكنة شاسعة ، وكيف ينعكس من السيارات وذوات الأذناب على الأرض . وزدت على ذلك أشياء كثيرة ، تختص بالجوهر ، وبالأين (٢) وبالحركات ، وبكل الصفات المختلفة لهذه السموات وهذه الكواكب ، بحيث رأيت ان فيما ذكرته كفاية للتعريف بأنه لا يشاهد فى سماوات هذا العالم وكواكبه شىء لا يلزمه ، أو لا يمكنه على الأقل أن يظهر مشابها كل المشابهة **(٤٤)** لسماوات العالم الذى وصفته وكواكبه ، ثم انتقلت من ذلك الى قول مفصل عن الأرض : كيف أن كل أجزاء الأرض مع أننى فرضت فرضا صريحا أن الله لم يضع أى ثقل (٣) فى المادة التى تتركب منها ، تميل نحو المركز ميلا متعادلا ، وكيف أنه لما كانت المياه والهواء فوق سطحها ، فان وضع السماوات والكواكب ، لا سيما

---

(١) هنا يغفل ديكارت أن انتقال الضوء هو حركة تستغرق من الزمان بحسب المسافة التى يقطعها من المصدر الى نقطة الوصول

(٢) أى حلول الجسم في المكان

(٣) يقصد أى جاذبية (انظر جلسون التعليق ٤ ص ٣٨٨)

وضع القمر ، كان ينبغى أن يسبب على سطح الأرض مدا وجزرا ، شبيهين فى كل أحوالهما بالمد والجزر اللذين يلاحظان فى بحارنا ، وعدا ذلك فانه يسبب مجرى معينا من الماء ومن الهواء من الشرق الى الغرب على حد ما يلاحظ بين المدارين ، وكيف استطاعت الجبال والبحار ، وعيون الماء والانهار أن تتكون فيها بالطبيعة ، وأن تحصل فيها المعادن داخل المناجم ، وأن تنمو النباتات فى المزارع ، وأن تتولد فيها على العموم كل الأجسام التى نسميها مخلوطة أو مركبة . ومن بين أشياء أخرى ، لما كنت لا أعرف بعد الكواكب شيئا فى العالم ينتج الضوء الا النار ، اجتهدت أن أوضح تمام الوضوح كل ما يتصل بطبيعتها ، وكيف تحدث وكيف تتغذى ، وكيف لا يكون لها بعض الأحايين الا حرارة بدون ضوء ، وفى أحايين أخرى لا يكون لها الا ضوء بدون حرارة ، وكيف تقدر على أن تحدث ألوانا مختلفة فى أجسام متباينة ، وتحدث صفات أخرى مختلفة ، وكيف تصهر بعض الأجسام ، وتجعل الأخرى صلبة ، وكيف تكاد تستهلك جميعها أو تحيلها الى رماد ودخان ، وأخيرا كيف تكون من هذا الرماد زجاجا بمجرد تأثيرها القوى . لأنه لما ظهرت لى أن احالة الرماد الى زجاج تستحق من الاعجاب فوق ما تستحقه استحالة أخرى تحدث فى الطبيعة ، فقد كان لى ارتياح خاص الى وصفها .

ومع ذلك فانى لم أرد أن أستنبط من كل هذه الأشياء ، أن هذا العالم قد خلق على الوجه الذى فرضته ، فان الأرجح أن يكون الله قد صنعه منذ المبدأ على ما ينبغى أن يكون ولكنه من اليقينى ، وهذا رأى متداول بين علماء الدين على العموم ، أن العمل

الذى يحفظه به الآن هو نفس العمل الذى صنعه به(١) ، بحيث أنه لو لم يصوره فى المبدأ بغير صورة الخليط ، ما دام أنه حين أقام قوانين الطبيعة ، أولاها مدده لتعمل على مقتضى عادتها ، فان المرء يستطيع أن يعتقد ، دون جحود بمعجزة الخلق (٢) انه بذلك فقط تستطيع كل الأشياء التى هى مادية محضة ، مع الزمن ، أن تصير الى ما نراها عليه الآن • وتصور طبيعتها ، حينما يشاهد تولدها شيئا فشيئا على هذا الوجه ، أيسر كثيرا من ألا تعتبر الا وهى كاملة الصنع •

وانتقلت ، من وصف الأجسام غير الحية والنباتات ، الى وصف الحيوانات وخصوصا الى وصف الانسان ولكن لما لم أكن حصلت علما عن الانسان كافيا للكلام عنه بنفس الأسلوب الذى تكلمت به عن غيره ، أى أن أثبت المعلولات بالعلل ، وأن أبين من أى العناصر ، وعلى أى هيئة ، وجب أن تحدثها الطبيعة فاننى

---

(١) هذا ما يسمى بنظرية الخلق المستمر ونحن نورد هنا ما يقوله في الفقرة الواحدة والعشرين من الجزء الأول من المبادىء ٦ ليتبين كيف يبرهن ديكارت على هذه النظرية » قال في الكلام على أن مدة حياتنا تكفى وحدها لاثبات أن الله موجود « أنا لا أعتقد أنه يمكن للمرء أن يشك في صحة هذا البرهان ، اذا انتبه الى طبيعة الزمان أو الى طبيعة مدة حياتنا ، لأنها بحيث أن أجزاءها لا يعتمد بعضها على البعض الآخر ولا توجدها قط ، ولا يلزم من أننا موجودون الآن أن نكون موجودين في لحظة تالية ، اذا لم تستمر بعض العلل، أى نفس العلة التى أحدثتنا ، في احداثنا ، أى اذا لم تستمر في حفظنا • ونحن نعرف بسهولة أنه ليس فينا قط قوة نستطيع أن نقوم بها أو نحافظ بها على البقاء لحظه واحدة .. » انظر أيضا قوله في ص ٦٣ والتعليقة رقم ٢ فى نفس الصفحة

(٢) « يعتبر الخلق معجزة باعتباره يحدث من العدم وجودا ، فهو اذن يفوق قوى كل مخلوق • واذن فهو عمل يختص به الله » جلسون التعليق ٤ ص ٣٩٢

قنعت بأن أفرض أن الله قد خلق جسم انسان مشابها كل المشابهة (٤٦) لجسم من أجسامنا سواء كان في السحنة الخارجية لجوارحه أو في التناسق الداخلي لأعضائه ، وبدون أن يركبه من مادة غير التي وصفتها ، وبدون أن يضع فيه ، في المبدأ ، أي نفس ناطقة ، ولا أي شيء آخر يكون فيه نفسا نباتية(١) أو حاسة، الا اذا هاج في قلبه بعض هذه النيران التي ليس لها نور والتي وصفتها من قبل والتي لم أتصورها من طبيعة مغايرة للتي تسبب الحرارة في الكلأ الذي يخزن قبل أن يصبح يابسا أو تلك التي تخمر الأنبذة الجديدة حينما نتركها للاختمار عصيرا كدرا بدون بذور ، لانني لما درست الوظائف التي يمكن تبعا لتلك الفروض أن توجد في هذا الجسم ، وجدت فيها تماما كل الوظائف التي يمكن أن تكون فينا دون أن نفكر فيها ، وتبعا لذلك دون أن تشترك في ذلك نفسنا ، أعني الجزء المتميز عن الجسم وهي التي قيل عنها من قبل ان طبيعتها ليست الا أن تفكر ، وهذه الوظائف هي كل ما يمكن أن يقال ان

---

(١) «هي مبدأ استبقاء الشخص بالغذاء وتنميته به واستبقاء النوع بتوليد مثل الشخص ولتلك النفس قوة غاذية من شأنها أن تحيل جسما شبيها بجسم ما هي فيه بالقوة الى أن تكون شبيهة بالفعل لرد بدل ما يتحلل ، وقوة نامية وهي التي من شأنها أن تستعمل الغذاء في أقطار المتغذى تزيدها عرضا وعمقا وطولا الى أن تبلغ به تمام النشوء على نسبة طبيعية ، وقوة مولدة تولد جزءا من الجسم الذى هى فيه يصلح أن يتكون عنه جسم آخر بالعدد مثله بالنوع » ابن سينا في ذوات الأشياء الثابتة وذوات الأشياء غير الثابتة وهي في الرسالة الأولى التى عنوانها عيون الحكمة من تسع رسائل في الحكمة وكذلك يقول في الرسالة الثالثة التى عنوانها في القوى الانسانية وادراكاتها «أن قوى روح الانسان تنقسم الى قسمين : قسم موكل بالعمل ، وقسم موكل بالادراك، والعمل ثلاثة أقسام : نشيء وانساني وحيواني .. العمل النشيء حفظ الشخص وتنميته بالغذاء وحفظ النوع بالتوليد وقد سلط عليهما أحدى قوى روح الانسان وقوم يسمونها القوة النباتية الخ » وراجع له أيضا النجاة القسم الثاني مطلع المقالة السادسة

الحيوان عديم النطق يشابهنا فيه • ولم أستطع من أجل هذا أن أجد بينها وظيفة من تلك التى باستقلالها عن الفكر تكون وحدها هى التى تخصنا باعتبارنا أناسى ، بينما وجدتها جميعا فيها بعد ذلك ، لما فرضت أن الله قد خلق نفسا ناطقة ، وأنه أضافها الى ذلك الجسم فى هيئة معينة وصفتها •

ولكن لكى يستطيع المرء أن يتبين كيف بحثت فى هـــذا الموضوع ، فانى أريد أن أورد هنا تفسير حركة القلب والشرايين ، التى لما كانت الأولى والأكثر عموما بين ما يشاهد المرء فى الحيوان ، **(٤٧)** فانه بذلك يحــكم بســهولة بما ينبغى أن يراه فى الحركات الأخرى •

ولكى تقل الصعوبة فى فهم ما سأقوله فى هذا الموضوع ، فانى أريد من الذين لم يتعمقوا فى علم التشريح ، أن يجتهدوا قبل قراءة ذلك ، فى أن يشرح أمامهم قلب حيوان كبير له رئتان ، لانه يشبه من كل الوجوه قلب الانسان مشابهة كافية ، وأن يبين لهم التجويفان الموجودان فيه : أولا التجويف الموجود فى جهتــه اليمنى ، والذى تتصل به أنبوبتان واسعتان جدا وهما الوريد الأجوف وهو المجتمع الرئيسى للدم ، وهو مثل ساق الشجرة وكل الأوردة الأخرى كأنها فروعها • ثم الوريد الشريانى (١) الذى سمى كذلك تسمية غير جيدة ، لانه فى الحقيقة شريان ، يبدأ من القلب ، ثم ينقسم بعد خروجه منه الى فروع كثيرة تنتشر فى كل مكان من الرئتين ، ثم التجويف الموجود فى جهة القلب اليسرى ، وتتصل به على ذلك الوجه أنبوبتان فى حجم السابقتين أو أكبر ، وهما الشريان

---

(١) أى الشريان الرئوى الذى ينقل دم الأوردة من التجويف الأيمن الى الرئة (جلسون : التعليق على المقال ص ٣٩٨)

الوريدى (١) وقد سمى كذلك تسمية غير جيدة أيضا ، لأنه ليس لا وريدا ، يأتى من الرئتين ، حيث ينقسم الى فروع كثيرة ، تشتبك مع فروع الوريد الشريانى ، ومع فروع تلك الأنبوبة التى تسمى قصبة الرئة ، والتى يدخل خلالها هواء التنفس ، ثم الشريان الكبير (٢) ، الذى يخرج من القلب فيبعث بفروعه فى الجسم كله ٠
وأريد أيضا أن يبين لهؤلاء بعناية الصمامات الصغيرة الاحدى عشرة ، التى كأنهـا أبواب صغيرة كثيرة ، تفتح وتغلق الثغرات الأربع ، الموجـودة فى هذين التجويفين : ثلاثة منهـا فى مدخل **(٤٨)** الوريدالأجوف، موضوعة وضعا خاصابحيث لاتقدر البتة على أن تمنع الدم الذى يحويه من أن ينسـكب فى التجـويف الأيمن للقلب ، ومع ذلك فهى تمنعه تماما من أن ينفذ الى الخارج ، وثلاثة فى مدخل الوريد الشريانى ، وهى موضوعة بعكس الأولى بحيث تسمح للدم الذى هو فى داخل هذا التجويف ، أن يمر الى الرئتين، ولكنها لا تسمح للذى هو فى داخل الرئتين أن يعود الى التجويف، وكذلك اثنان آخران فى مدخل الشريان الوريدى ، وهما يسمحان للدم أن يسيل من الرئتين الى تجـويف القلب الأيسر ، ولكنهما يمنعان رجوعه ، وثلاثة فى مدخل الشريان الكبير ، وهى التى تبيح للدم أن يخـرج من القلب ، ولكنها تمنعـه من أن يعـود اليه ٠ ولا حاجة الى البحث عن علة أخرى لعدد هذه الصمامات ، غير أن فتحة الشريان الوريدى ، لما كانت على شكل اهليلجى (٣) بسبب

---

(١) قال حنين بن اسـحاق العبادى « ٠٠ وهذا العرق هو المعروف بالشريان الوريدى سـمى بهذا الاسم لأن هيئته هيئة وريد وفعله فعل شريان » رسالة الفرق بين الروح والنفس نشرها الآباء اليسـوعيون في مجموعة مقالات فلسفية قديمة لبعض مشاهير فلاسفة العرب ٠ ص ١٢٢

(٢) وتسميه العرب الأبهر

(٣) أى بيضوى

المكان الذى هى فيه ، فيمكن أن يحكم أغلاقها بصمامتين ، على حين أن الفتحات الأخرى لما كانت مستديرة أمكن اغلاقها بثلاثة على وجه أفضل • ثم اننى أريد أن ينبه هؤلاء الى ملاحظة أن نسيج الشريان الكبير والوريد الشريانى أصلب وأمتن بكثير من نسيج الشريان الوريدى ، والوريد الأجوف ، وأن هذين الأخيرين يتسعان قبل أن يدخلا القلب ، وفيه يكونان شبه كيسين ، يسميان باذينتى القلب ، وهما مكونتان من لحم يشبه لحم القلب ، وأن يلاحظوا أن الحرارة فى القلب أكثر منها فى أى مكان آخر من الجسم ، وأخيرا فانه اذا دخلت قطرة من الدم فى تجاويفه فان هذه الحرارة قادرة على أن تجعلها تتمدد بسرعة وتنبسط كما هو شأن السوائل كلها (٤٩) غالبا ، عندما ندعها تسقط قطرة قطرة فى وعاء شديد الحرارة •

لأننى بعد هذا ، غير محتاج الى أن أقول شيئا آخر لتفسير حركة القلب ، غير أنه عندما لا تكون تجاويفه ملأى بالدم ، فانه يسيل اليها بالضرورة من الوريد الأجوف فى التجويف الأيمن ، ومن الشريان الوريدى فى التجويف الأيسر ، مادام هذان الوعاءان مملوءين بالدم دائما وفتحاتهما التى تطل على القلب ، لا يمكنها اذ ذاك أن تكون مغلقة ، ولكن عندما تدخل كذلك قطرتان من الدم، كل واحدة فى أحد تجويفى القلب فان هذه القطرات ، التى لايمكن الا أن تكون كبيرة ، لان الثغرات التى تلج منها الى التجاويف واسعة جدا ، ولأن الأوعية التى ترد منها ملأى بالدم جدا ، تتخلخل(١) وتتمدد بسبب الحرارة التى تقابلها هناك ، والتى بواسطتها يتمدد

---

(١) التخلخل هو حركة الجسم من مقدار الى مقدار اكبر يلزمه أن يصير قوامه أرق مع وجود اتصاله راجع ابن سينا في الحدود وهى الرابعة من تسع رسائل فى الحكمة وابن سـينا يورد حدودا اخرى للتخلخل ولكن ديكارت يقصد الحد الذى اقتبسناه وهو مايتفق مع التعريف الحديث لتلك الظاهرة الطبيعية

القلب فتدفعان وتغلقان الأبواب الخمسة الصغيرة التى هى فى مدخل الوعاءين ، والتى جاءتا منها ، وبذلك يمنعان ان يصعد الى القلب أى مزيد من الدم ، وباستمرارهما فى التخلخل شيئا فشيئا، تدفعان وتفتحان الأبواب السته الاخرى التى هى فى مدخل الوعاءين الاخرين والتى تخرجان منها ، وبهذه الطريقة تمددان كل فروع الوريد الشريانى والشريان الكبير مصاحبة للقلب فى نفس اللحظة تقريبا . الذى سرعان ما ينقبض بعد ذلك ، كما تفعل كذلك أيضا هذه الشرايين ، وذلك لان الدم الذى دخل فيها يبرد فى داخلها وتغلق أبوابها الستة ، وتنفتح أبواب الوريد الأجوف والشريان الوريدى الخمسة وتفسح الطريق لقطرتين أخريين من الدم ، تمددان (٥٠)القلب والشرايين من جديد كما فعلت السابقتان. ولما كان الدم الذى يدخل هذا القلب كما وصفت ، يمر بهذين الكيسين الذين يسميان بأذينتيه ، نشأ عن ذلك أن حركتهما تكون مخالفة لحركة القلب وانهما ينقبضان عندما ينبسط . ثم لكى لا يغامر هؤلاء الذين لا يعرفون قوة البراهين الرياضية ، ولم يتعودوا التمييز بين الحجج الحقيقية والشبيهة بها(١) نكران ماقلت دون امتحانه ، أريد أن أنبههم الى أن الحركة التى وصفتها تتبع حتما نفس وضع الأعضاء التى يستطيع المرء رؤيتها فى القلب بالعين والحرارة التى يقدر على الاحساس بها فيه بالأصابع ، وعن طبيعة الدم الذى يمكنه أن يعرفه بالتجربة ، كما تتبع حركة الساعة بالضرورة ، القوة ، والوضع ، والشكل التى هى لما فيها من لولب وعجل .

ولكن اذا سأل سائل كيف لا ينضب دم الأوردة ، وهو يصب دائما على هذا الوجه فى القلب ، وكيف لا تمتلىء به الشرايين امتلاء مفرطا ما دام كل الذى يمر بالقلب يصير اليه ، فاننى غير محتاج

(١) أى المحتملة أو الراجحة

الى أن أرد عليه بأكثر مما كتبه من قبل طبيب من انكلترا (١) ، يجب أن يثنى عليه لحله تلك المعضلة ، ولكونه أول من قال بوجود مسارب صغيرة كثيرة فى نهايات الشرايين ، منها يدخل الدم الذى يصلها من القلب فى الفروع الصغيرة للأوردة ، ومنها يصير من جديد الى القلب، بحيث لايكون جريانه الا دورة مستمرة • والذى (٥١) يثبت هذا أفضل اثبات هو التجربة العادية للجراحين الذين اذا ربطوا الذراع برفق فوق المكان الذى يفتحون منه الوريد يجعلون الدم يخرج منه بأكثر غزارة مما لو لم يربطوه ويحصل العكس اذا ربطوه من أسفل ، بين اليد والفتحة ، أو اذا ربطوه من أعلى ربطة قوية جدا • لانه من الواضح أن الرباط المشدود برفق ، يمكنه أن يمنع الدم الموجود من قبل فى الذراع من أن يعود الى القلب بواسطة الأوردة ولا يمنعه من أجل هذا من أن يأتى منه من جديد بواسطة الشرايين ، لان وضعها تحت الأوردة ولان جلودها لما كانت أصلب ، فضغطها أقل سهولة ، وكذلك فان الدم الذى يرد من القلب ينزع الى أن يمر بها نحو اليد ، بقوة أكثر منها عند عودته من اليد الى القلب بطريق الأوردة • ولما كان هذا الدم يخرج من الذراع بواسطة الفتحة التى هى فى أحد الأوردة ، فيجب حتما أن تكون له بعض مسارب تحت الرباط ، أى فى اتجاه نهايات الذراع وبها يستطيع الدم أن يأتى من الشرايين • ويثبت هذا الطبيب أيضا اثباتا قويا ما يقوله عن جريان الدم ، بوجود صمامات صغيرة ، وهى موضوعة فى أماكن مختلفة على طول الأوردة ، بحيث لا تسمح للدم أن يمر بها من وسط الجسم الى النهايات ولكنها تسمح له بالعودة من النهايات الى القلب فقط • وأكثر من ذلك فهو

---

(١) كتب في هامش النص الفرنساوى هارفي حركة القلب باللغة اللاتينية وهارفي المذكور هو طبيب انجليزى مشهور باستكشافه لدورة الدم وقد عاش من سنة ١٥٧٨ الى سنة ١٦٥٨

يثبت دعواه بالتجربة التى تبين أن كل الدم الموجود فى الجسم يستطيع أن يخرج منه فى قليل من الزمن بواسطة شريان واحد عندما يكون مقطوعا حتى ولو كان مربوطا باحكام قريبا جدا من القلب ، وأن يكون مقطوعا فيما بين القلب والرباط على وجه لا يجعل محلا لتخيل أن الدم الذى يخرج منه يأتى من جهة أخرى **(٥٢)** غير القلب ٠

ولكن هناك أشياء أخرى كثيرة تشهد بأن السبب الحقيقى فى حركة الدم هو ما قلته ٠ مثلا ، أولا ، الفرق الذى نلاحظه بين الدم الذى يخرج من الأوردة والدم الذى يخرج من الشرايين ، لايمكن أن ينتج الا من أن الدم يتخلخل ، وكأنه يصفى ، وهو مار بالقلب ، فهو ألطف وأكثر حياة وأقوى حرارة ، بعد خروجه منه مباشرة ، أى عند وجوده فى الشرايين ، منه قبيل أن يدخل القلب. أى عند وجوده فى الأوردة ، واذا انتبه المرء الى ذلك ، فانه يجد أن هذا الفرق لا يظهر جيدا الا بالقرب من القلب ، ولا يظهر كذلك فى أبعد الأماكن عنه ٠ ثم ان صلابة الجلد ، الذى يتركب منه الوريد الشريانى والشريان الكبير ، كافية فى اثبات أن الدم يدفعها بقوة أكثر مما يفعل مع الأوردة ٠ ولماذا يكون تجويف القلب الأيسر والشريان الكبير أوسع وأكبر من التجويف الأيمن والوريد الشريانى؟ الا أن يكون السبب هو أنه لما لم يكن دم الشريان الوريدى ، موجودا فى غير الرئتين منذ مروره بالقلب ، فهو ألطف وأقوى تخلخلا وأسهل من ذلك الذى يأتى مباشرة من الوريد الأجوف ٠ وماذا يستطيع الأطباء أن يستنبطوه ، عندما يجسون النبض ، اذا لم يعرفوا أنه ، تبعا لتغير طبيعة الدم ، فانه يستطيع أن يتخلخل بواسطة حرارة القلب بقوة أقل أو أكثر ، وبسرعة أشد أو أضعف من ذى قبل ؟ واذا بحث المرء عن كيفية سريان تلك الحرارة الى **(٥٣)**الأعضاء الأخرى، فهلا يجب الاعتراف بأن ذلك يكون بواسطة الدم الذى يمر بالقلب فتزداد حرارته فيه ، ومنه ينتشر الى كل أنحاء

الجسم ، ومن ثم فان المرء اذا نزع الدم من بعض الأجزاء فانه بذلك ينزع منه الحرارة ، ولو كان القلب حارا كنار مستعرة لما كان كافيا فى تدفئة الأقدام والأيدى هذه التدفئة مادام لا يبعث اليها بالدم من جديد باستمرار • ثم ان المرء يعرف من هذا أيضا أن الوظيفة الحقيقية للتنفس هى استحضار الكفاية من الهواء النقى فى الرئة كى يمكن للدم الذى يأتى اليها من تجويف القلب الأيمن حيث تخلخل واستحال الى شبه بخار ، أن يختثر ويستحيل ثانية الى دم قبل أن يسقط فى التجويف الأيسر ، وبدون هذا فهو لا يقدر على أن يكون صالحا لأن يكون غذاء للنار الموجودة فيه • ويؤيد هذا أن المرء يرى أن الحيوانات التى ليس لها رئات ليس لها أيضا الا تجويف واحد فى القلب ، وأن الأطفال الذين لا يستطيعون استعمالها وهم أجنة فى بطون أمهاتهم لهم فتحة منها يسيل الدم من الوريد الأجوف الى تجويف القلب الأيسر ، ومجرى فيه يأتى من الوريد الشريانى الى الشريان الكبير بدون أن يمر بالرئة • ثم انه كيف يحصل الهضم فى المعدة ، اذا لم يرسل القلب اليها حرارة بواسطة الشرايين ومعها بعض من أشد أجزاء الدم سيلانا تعين على اذابة اللحوم التى وضعت فيها ؟ وكذلك أليس العمل الذى يحيل عصير تلك اللحوم الى دم سهل المعرفة ، اذا راعينا أنه يصفى عند مروره وتكرار مروره بالقلب مرات ربما كانت أزيد من مائة مرة أو مائتين فى كل يوم؟ وهل للمرء حاجة الى شىء آخر لتفسير تغذية السوائل (١) الموجودة فى الجسم وتوليدها ،غير القول بأن القوة (٥٤) التى بها يمر الدم عند تخلخله من القلب الى نهايات الشرايين تجعل بعض أجزائه تقف فى الأجزاء التى توجد فيها من الأعضاء وفيها تحل محل أخرى تطردها منها ، وأنه تبعا للوضع أو الشكل أو صغر المسام التى تصادفها فان بعض أجزاء الدم تسير الى بعض

---

(١) أى الريق والعرق والبول

الأماكن مختارة لها على البعض الآخر كما أن كل انسان يستطيع رؤية غرابيل مختلفة متفاوتة الخروق يستخدمها فى فصل حبوب مختلفة بعضها عن بعض؟ وأخيرا فان أكثر ما فى كل ذلك استحقاقا للذكر هو تكوين الأرواح الحيوانيه التى تشبه ريحا لطيفا جدا ، أو هى أشبه ما تكون بلهب جد نقي وجد مضيء ، يصعد باستمرار وبغزارة من القلب الى المخ فينتقل منــه بواسـطة الأعصاب الى العضلات ، ويعطي الحركة لكل الأعضاء ، دون أن يلزم المرء أن يتخيل علة أخرى تجعل أجزاء الدم التى لما كانت هى الأكثر حركة ونفوذا ، فهى الأصلح لتكوين هذه الأرواح ، أن تتجه نحو المخ بدلا من أى اتجاه آخر ، الا أن تكون تلك العلة هى أن الشرايين التى تحملها هناك هى التى تأتى من القلب فى خطوط أكثر ماتكون استقامة وأنه تبعا لقواعد الميكانيكا التى هى نفس قواعد الطبيعة ، فانه عندما تميل أشياء كثيرة مجتمعة الى التحرك نحو جهة واحدة مثل أجزاء الدم التى تخرج من تجويف القلب الأيسر مائلة الى جهة (٥٥) المخ ، فبما أنه لا يكون لتلك الجهة سعة للجميع ، فان ما كان منها أضعف وأقل حركة ، ينبغى أن يدفع بواسطةالأقوى ، وبذلك تذهب هذه وحدها اليها ٠

شرحت كل هــذه الأشياء بتفصيل واف فى الرسالة التى أشرت آنفا الى عزمى على نشرها ٠ وبينت فيها بعد ذلك ما ينبغى أن يكون عليه تكوين أعصاب الجسم الانسانى وعضلاته، حتى تجعل الأرواح الحيوانية(١) التى هى داخل الجسم ذات قوة تحرك أعضاءه: كما ترى الرءوس على أثر قطعها لاتزال تتحرك وتعض الأرض مع

---

(١) « الروح الحيوانية هى للحيوان الناطق وغير الناطق وهى في القلب وتنبعث منه في الشرايين وهى العروق الضوارب ، الى اعضاء البدن » الخوارزمى مفاتيح العلوم ص ٨٣ من طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢

أنها لم تعد حية ، وبينت أيضا أى التغييرات تحصل فى المخ لتسبب اليقظة ، والنوم ، والأحلام ، وكيف يستطيع الضوء ، والأصوات ، والروائح ، والمطاعم ، والحرارة ، وسائر صفات الأشياء الخارجية ، أن تطبع فيه صورا مختلفة بتوسط الحواس وكيف يستطيع الجوع والظمأ وسائر الانفعالات الباطنة أن تبعث اليه أيضا بصورها ووضحت ما الذى ينبغى اعتباره الحس المشترك(١) الذى يقبل كل تلك الصور ٠ وما المراد بالخيال (٢)

---

(١) في العصور الوسطى كانت تقسم الحواس تبعا لتقسيم أرسطو الى ظاهرة وباطنة : أما الظاهرة فهى الحواس الخمس ، وأما الباطنة فقد قصرها أرسطو على ثلاث وهى الحس المشترك والخيال والحافظة على أن علماء العرب توسعوا في فهم الخيال والحافظة فنتج عن ذلك تقسيم آخر للحواس الباطنة وهذا ما سنعرض له عن قريب . أما الحس المشترك فلقد كانوا يقولون وكذلك يقول ديكارت انها قوة مرتبة في تجويف معين فى الدماغ وهى التى تجتمع فيها كل الصور المدركة بالحواس الخمس . وقد كتب عنها ابن سينا في الشفاء ص ٣٣٢ من طبعة طهران « أما الحس الذى هو المشترك فهو بالحقيقة غير ماذهب اليه من ظن أن للمحسوسات المشتركة حسا مشتركا بل الحس المشترك هو القوة التى تتأدى اليها المحسوسات كلها فانه لو لم تكن قوة واحدة تدرك الملون والملموس لما كان لنا أن نميز بينهما » وقال في صفحة ٣٣٣ « فهذه القوة هى التى تسمى الحس المشترك وهى ركن الحواس ومنها تتشعب الشعب واليها تؤدى الحواس » ويسمى الحس المشترك أيضا الحس العام .

(٢) استعمل ديكارت هنا كلمة Mémoire وهى في هذا الموضع ترادف كلمة Imagination أى الخيال وهو القوة التى تحفظ ما يقبله الحس المشترك من الصور وتستبقيه بعد غيبة المحسوسات فالخيال اذن خزانة الحس المشترك ، وهذا مايتفق فيه ديكارت مع فلاسفة الاسلام ٠

الذى يحفظ هذه الصور وبالمتصرفة(١) التى تستطيع تغييرها بطرق

---

(١) استعمل ديكارت كلمة Fantaisie وقد رأيناها معربة عند ابن سينا في كتاب النجاة ص ٢٦٥ طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ في قوله « فمن القوى المدركة الباطنة الحيوانية قوة فنطاسيا أى الحس المشترك » وهذا غير صحيح وربما نشأ الخطأ من أن محلهما فى الدماغ واحد فهو عند ديكارت الغدة الصنوبرية ولكنهما مختلفان في الوظيفة (راجع جلسون التعليق ٤ ص ٤٢٠) والحس المشترك فى اليونانية هو (كوينى آيستيسس) وليس فنطاسيا كما أننا رأينا الكلمة معربة أيضا عند محمد بن أحمد الخوارزمى ويعرفها بقوله « فنطاسيا هى القوة المخيلة من قوة النفس وهى التى يتصور بها المحسوسات في الوهم وان كانت غائبة عن الحس وتسمى القوة المتصورة والمصورة » مفاتيح العلوم ص ٨٣ من طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ وهذا كلام ظاهر فيه الخلط . وعلى العموم فالمقصود بالمتصرفة القوة التى بها « تركب المحسوسات بعضها الى بعض ونفصل بعضها من بعض لا على الثبوت الذى وجدناها عليه من خارج ولا مع تصديق بوجود شيء منها أو لاوجوده ... وهذه هى التى اذا استعملها العقل تسمى متفكرة واذا استعملتها قوة حيوانية تسمى متخيلة » ابن سينا الشفاء ص ٣٣٣ طبعة طهران . وهذا ما يتفق مع مراد ديكارت وهو أقرب الى تعريف أرسطو لفنطاسيا في كتابه عن النفس بقوله : « هى حركة للعقل منشؤها الاحساس »

ثم ان ابن سينا قد أضاف الى تلك القوى قوة أخرى يسميها بالوهمية (راجع تهافت الفلاسفة لابن رشد حيث يقول « ... ابن سينا وهو يخالف الفلاسفة في أنه يضع في الحيوان قوة غير القوة المتخيلة يسميها وهمية الخ » ص ١٢٧ طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ ويقصد بها ابن سينا القوة التى تدرك المعانى غير المحسوسة في المحسوسات الجزئية وبتعبير آخر ادراك المعنى الجزئى المتعلق بالمعنى المحسوس مثل ادراك الشاة العداوة في الذئب : واذن فقوى النفس الحيوانية التى يعبر عنها بالحواس الباطنة هى خمس : الحس المشترك وهو الذى يقبل صور المحسوسات كلها والخيال وهو خزانته أى القوة التى تحفظ تلك الصور والوهم وهو ادراك المعانى غير المحسوسة فىالمحسوسات مثل ادراك الشاة للعداوة في الذئب ثم الحافظة أو الذاكرة وهى خزانة الوهم ثم المتصرفة وهى التى تتصرف في المحسوسات فتؤلف بعضها مع بعض وتفصل بعضها من بعض غير متبعة فى ذلك نظام وجودها فى الخارج كما تفعل فىالمعانى وهذه القوة اذا استعملها العقل تسمى مفكرة واذا استعملها الوهم تسمى متخيلة

مختلفة ، وان تؤلف منها صورا جديدة ، وهى بتوزيعها الارواح الحيوانية على هذا الوجه فى العضلات تحرك أعضاء هذا الجسم فى هيئات متباينة كثيرة . وبحسب مناسبات الامور التى تعرض لحواسه والانفعالات الباطنة التى هى فيه على مقدار ما تستطيع أعضاؤنا أن تتحرك دون أن تقودها الارادة (١) ولن يبدو ذلك غريبا قط للذين هم بسبب معرفتهم أن كثيرا من المتحركات بذاتها والآلاتالمتحركة تستطيع صناعة الناس عملها دون أن يستعمل (٥٦) فى انشائها الا قطع قليلة اذا قورنت بالكثرة العظيمة من العظام والعضلات والأعصاب والشرايين والاوردة ، ومن كل الأجزاء الأخرى الموجودة فى جسم كل حيوان ، سيعتبرون هذا الجسم كآلة لما كانت مصنوعة بأيدى الله ، فهى الى حد يجل عن المشابهة خير نظاما ، ولها من ذاتها حركات أدعى للاعجاب من أى آلة يقدر الناس على اختراعها .

وقفت هنا خاصة لكى أبين أنه اذا وجدت آلات لها أعضاء وصورة قرد أو صورة أى حيوان آخر غير ناطق فانه لن تكون لنا أية وسيلة لنعرف أنها ليست من نفس طبيعة هذه الحيوانات فى كل شىء فى حين أنه لو أن منها ماله شبه بأجسامنا وكان يقلد من أعمالنا مايمكن تقليده امكانا خلقيا (٢) ، لكان لنا دائما طريقتان جد وثيقتين لمعرفة أنها ليست من أجل هذا ناسا على الحقيقة . أولى هاتين الوسيلتين هى أن هذه الآلات لن تقدر مطلقا على أن تستعمل الكلمات أو أى اشارات أخرى تؤلفها كما نفعل نحن لنصرح للآخرين بأفكارنا فقد يستطاع أن يتصور خير تصور أن آلة تصنع على هيئة مخصوصة بحيث تنطق بكلمات بل وان تنطق ببعضها

---

(١) لأن الوظائف التى سبق ذكرها كلها حيوانية وهى ليست في حاجة الى تدخل العقل بواسطة الارادة

(٢) أى كافيا لسد حاجات الحياة العملية (انظر ص ٦٩) وهذا بالنسبة للانسان هو الامكان العادى

بمناسبة أعمال بدنية تسبب تغييرا فى أعضائها : كأن تلمس فى بعض المواضع فتسأل عما يراد أن يقال لها ، وتلمس فى موضع آخر فتصيح بأن ذلك يوجعها وما شابه ذلك ، ولكن لا يستطاع أن يتصور أنهـا تنوع تأليف الألفاظ لتجيب أجوبة مطابقة لـكل ما يقال فى حضرتها كما يستطيع أن يفعل أغبى الناس . وأما (٥٧) الثانية فهى أنه مع أنها تعمل أشياء كثيرة مثلما يعمل أى واحد منا بل قد تعمل خيرا مما يعمل فانها لا بد تفشل فى أعمال أخرى منها يتبين أنها لا تعمل عن علم ، ولكن بواسطة وضع أعضائها فانه على حين أن العقـل هو آلة عـامة يمكن استخدامها فى كل أنواع الطوارىء فان هذه الاعضاء فى حاجة الى وضع خاص لكل عمل على حدة ، ومن ثم ينتج أنه من المستحيل أخلاقيا (١) ان يكون فى آلة من تنوع الاعضاء ما يكفى لجعلها تعمل فى كل ظروف الحياة على نحو ما يبعثنا عقلنا للعمل .

وبنفس هاتين الوسيلتين يستطيع المرء ان يعرف الفرق بين الانسان والحيوان . لانه مما يستحق الذكر أنه ليس من الناس الاغبياء والبلداء ، حتى دون استثناء البلهاء منهم ، من لا يقدرون على تأليف كلمـات مختلفـة ، وان يركبوا منها كلاما به يجعلون أفكارهم مفهومة وبالعكس فليس من حيوان آخر مهما كان كاملا ومهما نشأ نشأة سعيدة يستطيع أن يفعل ذلك . وهذا لا ينشـأ عن نقص فى الاعضاء ، لان المرء يرى العقعق والببغاء تستطيع ان تنطق ببعض الكلمات مثلنا ، ولكنها مع ذلك لا تستطيع أن تنطق مثلنا ، أى نطقا يشهد بأنها تعى ما تقول ، فى حين أن النـاس الذين ولدوا صما وبكما ، فحرموا الاعضاء التى يستخدمها غيرهم (٥٨) للكلام مثل حرمان الحيوان أو أشد اعتادوا أن يستنبطوا من تلقاء أنفسهم بعض اشارات يتفاهمون بها مع من يجدون فرصة لتعلم

---

(١) أى عادة وغرضه لحاجة الحياة العملية (انظر ص ٦٩)

لغتهم لانهم يعيشون معهم • وهذا لا يشهد بأن للحيوانات من العقل أقل مما للانسان ، بل يشهد بأنه ليس للحيوانات عقل مطلقا • فاننا نشهد أن معرفة الكلام لا تحتاج الا الى شيء من العقل جد قليل ، ولما كان من الملاحظ التباين بين أفراد النوع الواحد من الحيوان ، كما فى أفراد الانسان ، وأن البعض أيسر أن يراض من البعض الآخر فانه لا يصدق ان قردا أو ببغاء من أكمل نوعه ، يكافىء فى ذلك طفلا من أغبى الاطفال ، أو على الاقل طفلا ذا مخ مضطرب ، ولا يكون هذا الا اذا كانت روح الحيوانات من طبيعة مخالفة لطبيعة روحنا كل المخالفة • ولا ينبغى أن يخلط بين الكلام والحركات الطبيعية التى تعبر عن الانفعالات ويمكن أن تجيد تقليدها الآلات كما تقلدها الحيوانات ، ولا ينبغى أيضا الذهاب مع بعض المتقدمين الى أن الحيوانات تتكلم ، ولو أننا لا نفهم لغتها ، لانه لو كان ذلك حقا لكان فى استطاعتها أيضا ما دامت لها أعضاء كثيرة تشابه أعضاءنا ، ان تتفاهم معنا كما تتفاهم مع أمثالها • وكذلك مما يستحق الملاحظة، أنه مع وجود حيوانات كثيرة تظهر من الصنعة فى بعض أعمالها أكثر مما نظهر ، فانه يرى مع ذلك أن نفس تلك الحيوانات لا تظهر شيئا من الصنعة فى أعمال كثيرة أخرى ! بحيث لا يدل ما تعمله أحسن منا على أن لها نفسا ، فانه على هذا الاعتبار (٥٩) كان ينبغى أن يكون لها منها أكثر مما يكون لأى واحد منا فتعمل فى كل الأمور أحسن مما نعمل ولكن هذا يدل على أنه ليس لها نفس وأن الطبيعة هى التى تعمل فيها تبعا لوضع أعضائها كما يرى فى الساعة التى لا تتركب الا من عجل ولولب فانها تستطيع أن تحصى الساعات وتقيس الزمان بأكثر منا دقة مع كل ما لنا من تيقظ وفطنة •

وصفت النفس الناطقة بعد ذلك وبينت أنها لا يمكن البتة ان تكون منتزعة من قوة المادة كما تنتزع الاشياء الاخرى التى تكلمت عنها ولكن يجب حتما ان تكون مخلوقة • وبينت كيف انه

لا يكفى أن تكون ساكنة فى الجسم الانسانى كما يسكن البحار فى سفينته (١) . لا يكفى هذا الا فى ان يمثل تحريكها لاعضائه بل ان هناك حاجة الى ان تكون متصلة بالبدن ومتحـدة معه على وجه أوثق حتى يكون لها عدا ذلك عواطف وشهوات مماثلة لما عندنا منها بذلك يتألف انسان حقيقى . ثم اننى أطنبت هنا قليلا فى الكلام على مسـألة الروح لانها من أهم المسـائل ؛ اذ ليس خطأ بعد خطأ الجاحدين لله ، وهو خطأ أعتقد أننى دحضته دحضا كافيا فيما سبق، ليس خطأ يبعد النفوس الضعيفة عن طريق الفضيلة المسـتقيم ، كتوهم أن روح الحيوانات هى من نفس طبيعة روحنا ، ويتبع هذا التوهم ، أنه ليس يوجد ما نخشاه أو نأمله ، بعد هذه الحيـاة ، كشأن الذباب والنمل فى حين أنه من علم مبلغ اختلافهما ، كان أحسن فهما للحجج التى تثبت أن روحنا هى من طبيعة مستقلة كل الاستقلال عن الجسم،وأنها تبعا لهذا ليست عرضة للموت معه، (٦٠) ثم انه على مقدار كوننا لا نرى غير الموت علة لفنائها ، فانه يحملنا ذلك بالطبع على أن نحكم من هذا بأنها خالدة .

---

(١) هذا التشبيه من أرسطو هملان مذهب ديكارت ٣ ص ٢٧٧ ويقول ديكارت ما يوضح ذلك في التأملات السادسة ١٢ « اننى لست مقيما في جسمى كما يقيم البحار فى سفينته ، ولكننى فوق ذلك متصل به اتصالا وثيقا ومختلط معه بحيث أؤلف معه وحدة منفردة . لانه اذا لم يكن ذلك ، فما كنت لأشعر بألم اذا أصيب بدنى بجرح ، وأنا الذى ليس الا شيئا مفكرا ، ولكنى أدرك ذلك الجرح بالعقل وحده ، كما يدرك البحار بنظرة أى عطب فى السفينة »



القسم السادس

مضت الآن ثلاثة أعوام منذ انتهيت من الرسالة التى تحتوى على كل هذه الاشياء ، وأخذت فى مراجعتها ، كى أضعها بين يدى طابع ، عندما علمت أن أشخاصا أجلهم ، ولهم من السلطة على أعمالى ما لا يقل عما لعقلى من السلطة على أفكارى ، لم يقروا رأيا فى علم الطبيعة ، أذاعه البعض (١) قبل الآن بقليل ، ولا أريد ان أقول اننى كنت على هذا الرأى ، ولكنى أريد ان أقول اننى لم ألاحظ فيه قبل استنكارهم ، ما أستطيع ان أتوهمه مضرا بالدين أو بالدولة ، وبالتالى ، ما كان يمنعنى ان أكتبه لو أن العقل أقنعنى به ، وأن هذا جعلنى أخشى ان يكون بين آرائى ما أخطأت فيه ، رغم ما كان لى من عظيم العناية فى ألا أدخل فى اعتقادى شيئا جديدا ، ما لم تقم له عندى البراهين الوثيقة جدا ، وألا أكتب عنه شيئا يمكن ان ينال أى انسان بأذى : وهذا كان كافيا ليضطرنى الى تغيير ما كنت صممت عليه من نشر هذه البحوث . فانه وان كانت الحجج التى صممت من أجلها العزم أولا قوية جدا ، فان ميلى الذى جعلنى دائما أكره صناعة عمل الكتب ، سرعان ما جعلنى أجد

---

(١) يقصد بالبعض غاليليه وبالاشخاص الذين يجلهم رجال الدين الذين كانوا يختصون بمراقبة الحركة الفكرية . ولقد أذاع غاليليه فى سنة ١٦٣٢ كتابه الذى يقول فيه بدورة الارض فدانته محكمة التفتيش برومة . ولقد أتم ديكارت كتابه العالم Le Monde سنة ١٦٣٣ ولكن علمه بنصيب غاليليه ورغبته فى عدم اثارة رجال الدين عليه جعلاه يعدل عن نشر كتابه (أنظر المقدمة)

الكفاية من الحجج الأخرى لاعفائى من ذلك العمل. وكلا النوعين (٦١) من هذه الحجج ذو شأن يجعل لى غرضا بذكرها هنا ، بل وقد يكون للجمهور أيضا فائدة فى معرفتها .

ما كنت قط عظيم العناية بالاشياء التى كانت تصدر عن نفسى ، وحين كنت لا أجنى من ثمرات المنهج الذى أستخدمه ، غير اقتناعى فى معضلات من معضلات العلوم النظرية ، أو محاولتى ان أدبر أخلاقى على مقتضى الحجج التى علمنى اياها هذا المنهج (١). لم أكن لأعتقد أننى مضطر الى أن أكتب عنه شيئا ، ذلك بأنه فيما يتعلق بالأخلاق ، فان كل انسان يكتفى بعقله ، بحيث كان يمكن أن يكون مصلحون على عدد الرءوس ، لو ساغ لغير الذين نصبهم الله حكاما على أممه ، أو للذين أفاض عليهم من البركة والهمة ما يكفى لان يكونوا أنبياء ، أن يتناولوا بالتغيير شيئا من الاخلاق ؛ ومع أن أنظارى كانت ترضينى كثيرا ؛ فاننى كنت أعتقد أن لغيرى أنظارا أيضا قد يكونون بها أشد اعجابا . ولكنى على أثر تحصيلى لبعض المعارف العامة فى علم الطبيعة واختبارى لها فى معضلات مختلفة خاصة ، لاحظت مدى ما تستطيع ان تقود اليه ، ومبلغ اختلافها عن المبادىء التى يستعان بها حتى الآن ، على أثر ذلك اعتقدت أننى لا أقدر على ابقائها مختبئة ، دون ان أخل اخلالا كبيرا بالقانون الذى يلزمنا أن نوفر الخير العام لكل الناس على قدر ما فى استطاعتنا لان هذه الانظار فى علم الطبيعة بينت لى امكان الوصول الى معارف مفيدة للحياة فائدة كبيرة ، وبدلا من هذه الفلسفة النظرية ، التى تعلم فى المدارس ، فانه يمكن ان نجد عوضا عنها فلسفة عملية ، (٦٢) بها اذا عرفنا ما للنار، والماء ، والهواء ، والكواكب ، والسماوات،

---

(١) تعرضنا لهذه المسألة أى هل الاخلاق المؤقتة التى بسطها ديكارت في القسم الثالث من المقال هى مستمدة من منهجه أم لا وذلك في التعليق على القسم الثالث وقد أشرنا أيضا الى تلك العبارة (انظر ص ٣٧ و ٣٨)

وكل الاجرام الاخرى التى تحيط بنـــا من قوة وأعمـــال ، معـــرفة متمايزة كما نعرف مهن صناعنا المختلفة، فاننا نستطيع استعمالها بنفس الطريقة فى كل المنافع التى تصلح لها ، وبذلك نستطيع ان نجعل أنفسنا ســـادة ومسخرين للطبيعـــة (١) • وهذا جدير بأن يرغب فيه لابتداع ما لا يحصى من المصنوعات ، التى تجعل المرء ينعم بدون جهد بثمرات الارض وبكل ما فيها من أسباب الرفه ، بل ولأجل حفظ الصحة أيضا ، التى هى بلا ريب الخير الاول وهى الاصل لما عداها من خيرات هذه الحياة ؛ فان الروح نفسها تتصل اتصالا قويا بالمزاج، وببنية أعضاء البدن، بحيث أنه اذا كان ممكنا وجود بعض الوسائل التى تجعل الناس عامة أكثر حكمة وحذقا مما هم عليـــه حتى الآن ، فانى أعتقـــد أنه يجب البحث عن هذه الوسيلة فى الطب • حقا ان الطب المستعمل الآن يشتمل على قليل من الاشياء التى لها منفعة تذكر ؛ ولكن دون ان أقصد الى تحقيره، فاننى واثق أنه لا يوجد انسان ، حتى ممن يحترفونه ، لا يعترف بأن كل ما يعرف منه يكاد لا يكون شيئا ، اذا قورن بما يبقى غير معروف وأن من المستطاع التخلص مما لا يحصى من الامراض ، بدنية كانت أو نفسية بل وقد يتخلص أيضا من ضعف الهرم ، **(٦٣)** اذا عرفت أسبابها معرفة كافية؛وعرفت كل الادوية التى زودتنا

---

(١) يرى الاستاذ لالاند أن ديكارت يقتبس مثله الأعلى للعلم ، الذى يعبر عنه هنا ، من باكون Bacon ولقد أورد فى مقالته المشهورة بعض نصوص من باكون ومن ديكارت الحجج التى يراها كافية للتدليل على هذا الرأى (أنظر جلسون التعليق ص ٤٤٦)

بها الطبيعة (١) • ولما كان من غرضى ان أنفق كل حياتى فى البحث عن علم ضرورى جدا ، ولما ألفيت طريقا يظهر لى أنه باتباعه يجب حتما ان يوجد هذا العلم ، ما لم يعق دونه اما قصر الحياة ، أو نقص فى التجارب ، حكمت أنه ليس من دواء لهذين العائقين ، خير من ان أبلغ الجمهور بأمانة كل القدر القليل الذى أتيح لى الاهتداء اليه ، وأن أدعو أهل العقول الجيدة لمحاولة التقدم ، باشتراكهم فى التجارب التى ينبغى القيام بها كل وفق ميله وعلى قدر استطاعته ، وان يبلغوا الجمهور أيضا كل الاشياء التى تعلموها حتى يبدأ اللاحقون من حيث انتهى السابقون ، وبذلك نصل أعمار الكثيرين وأعمالهم ، فنتقدم جميعا أكثر مما يستطيع كل فرد مستقلا •

بل قد لاحظت ، فيما يختص بالتجارب أنها كلما تقدمنا فى المعرفة كانت ألزم اذ أنه يحسن فى المبدأ ألا نستخدم الا ما يقع منها من تلقاء نفسه تحت حواسنا ، وما لانستطيع الجهل به ، مادمنا نفكر فيه تفكيرا مهما كان قليلا، بدلا من أن نشغل أنفسنا بالأندر منها والأصعب • والسبب فى ذلك أن هذه التجارب النادرة تضلل كثيرا ، عندما لا نكون بعد على علم بعلل أكثرها شيوعا وكذلك فان الظروف التى تتصل بها تكاد تكون دائما من الخصوصية وهى من الدقة بحيث تشق ملاحظتها • ولكن الترتيب الذى اتبعته فى هذا

---

(١) كان ديكارت يعتقد أن العلم يستطيع أن يحمى الانسان من الأمراض ومن ضعف الشيخوخة ولما مات أعلنت صحيفة أنفرس خبر وفاته بهذا التعبير :

« مات في السويد أحمق كان يقول ان في استطاعته أن يعمر في الحياة ما شاء » الاعمال الكاملة طبعة أدام وتانرى ج ١٠ ص ٦٣٠ وروى مؤرخ حياته باييه عن بعض أصدقاء ديكارت أنه دهش عندما بلغه نعيه اذ أنه كان واثقا أنه سيعيش على الاقل خمسة قرون ، ما لم يمت موتا غير طبيعى • راجع الاعمال الكاملة ج ١١ ص ٦٧٠ ـ ٦٧٢

كان كما يلي : أولا ، حاولت أن أجد على العموم المبادىء ، او العلل الاولى ، لكل ما هو موجود ، أو يمكن ان يوجد في العالم ، من غير (٦٤) أن أعتبر في سبيل هذا الغرض غير الله وحده الذي خلقه ، وبدون أن أستنتجها الا من بعض بذور الحقيقة التي هي في نفوسنا بالطبع (١) • وبعد ذلك ، بحثت في ما هي المعلولات الاولى التي هي الاكثر جريانا في العادة والتي يمكن استنتاجها من هذه العلل : ويبدو لي أنني بهذا ، وجدت سماوات ، وكواكب ، وأرضا ، بل ووجدت فوق الارض ، ماء ، وهواء ، ونارا ، ومعادن ، وبعض اشياء أخرى مشابهة لهذه ، وهي أكثر الأشياء شيوعا وأبسطها ، وعلى ذلك فهي أسهلها أن تعرف • ثم انني لما أردت أن أنحدر الى الاشياء التي هي أخص ، عرض لي منها كثير متباين ، بحيث لم اعتقد أن في استطاعة العقل الانساني أن يميز بين صور أو أنواع الاجرام التي هي فوق الأرض وما لا يحصى غيرها مما يمكن أن يوجد ، اذا أراد الله ايجادها ووضعها فوق الأرض، ولا اعتقدت، كما ينتج عن هذا أننا نستطيع تصريفها في منفعتنا الا أن يكون بأن نتوصل الى العلل عن طريق المعلولات ، وأن نستخدم كثيرا من التجارب الخاصة • وبعد ذلك فانني لما مررت بعقلي على كل الاشياء التي عرضت لحواسي، فانني أجرؤ على القول بأنني لم ألاحظ شيئا منها لم يسهل علي تفسيره بالمبادىء التي اهتديت اليها • ولكن يجب أن أعترف أيضا بأن قوة الطبيعة رحبة وواسعة جدا، وأن هذه المبادىء بسيطة وعامة جدا ، بحيث أكاد لا ألاحظ أي أثر خاص لا أعرف أولا أنه ممكن (٦٥) استنباطه من هذه المبادىء بكيفيات كثيرة مختلفة ، وأن أكبر معضلة لدي هي في العادة أن أجد من بين هذه الكيفيات الكيفية التي يتصل بها هذا الأثر بهذه المبادىء • لأنني لا أعرف لهذا حلا الا أن أبحث

---

(١) أي المبادىء الاولى الموجودة بالفطرة في النفس •

من جديد عن بعض تجارب ، لا تكون نتيجتها ، اذا كان يجب تفسيرها على كيفية من هذه الكيفيات ، كنتيجتها اذا كان يجب تفسيرها على كيفية أخرى •

على أننى الآن بحيث أرى ، كما يبدو لى، أى طريق يجب علينا سلوكه كى نقوم بأكثر التجارب التى تنفعنا فى هذه الغاية، ولكننى أرى أيضا أنها من العظمة ومن كثرة العدد ، بحيث لا تبلغ كفايتها كلها يداى ولا رزقى ، ولو أن لى ضعفه ألف مرة ، فعلى قدر ما سيكون لى منذ الآن من اليسر لكى أحقق منها كثيرا أو قليلا، سأتقدم كذلك كثيرا أو قليلا فى معرفة الطبيعة • وهذا ما كنت آمل أن أوضحه بالرسالة التى كتبتها ، وأن أبين فيها بيانا جليا كثير الفائدة التى يستطيع الجمهور أن ينالها من ذلك ، وأن أطلب الى كل الذين يرغبون على العموم فى خير الناس ، أى كل الذين هم أهل الفضيلة فى الحقيقة ، لا بالمظهر الخادع ، ولا بمجرد القول ، أن يبلغونى التجارب التى عملوها ، وأن يعينونى فى التجارب التى بقى استيفاؤها •

ولكن عرض لى منذ ذلك الحين ، حجج أخرى جعلتنى أغير رأيى، وأن أفكر فى أنه يلزمنى فى الحقيقة أن أستمر فى كتابة كل الاشياء التى أحكم بأن لها بعض الأهمية، على مقدار ماتكشف لى عن الحقيقة، وأن أعنى بها كعنايتى لو أننى أريد طبعها • وذلك لكى تكون لى (٦٦) فرصة أكبر لا جادة تمحيصها ، كما أننا ندقق بلا شك فيما نعتقد أنه معروض لانظار الكثيرين أكثر مما نفعل فيما لانعمله الا لأنفسنا، وكثيرا ما كانت الاشياء التى بدت لى حقيقية عندما بدأت فى تصورها ، تبدو لى باطلة عندما كنت أريد وضعها على الورق، ولكيلا أضيع أى فرصة لافادة الجمهور ، اذا كنت قادرا على ذلك، واذا كان لكتاباتى شيء من القيمة، فان الذين سوف يحصلون عليها بعد مماتى يقدرون أن يستخدموها استخداما مناسبا ، ولكن لم يكن واجبا على

أن أقر نشرها في حياتي ، حتى لا تكون المعارضات والمجادلات التى ربما تكون كتاباتي عرضة لها ، أو الشهرة مهما تكن، التى تكسبنى اياها ، لتهيىء لى أى فرصة لتضييع الوقت الذى أنا عازم على انفاقه في تعليم نفسي لأنه وان كان حقا أن كل انسان مضطر أن يزيد فى خير الآخرين على قدر ما يستطيع ، وأن كون المرء غير مفيد لأحد هو نفس كونه لا يساوي شيئا ، ومع ذلك فانه حق أيضا أن عناياتنا يجب أن تتجاوز حدود الوقت الحاضر، وأنه من الخير أن نهمل الأشياء التى ربما جاءت ببعض الفائدة للأحياء ، اذا كان هذا على نية أن نعمل أشياء أخرى تأتى بفائدة أكبر لأحفادنا . كما أنى فى الحقيقة أريد أن يكون معلوما أن المقدار القليل الذى عرفته حتى الآن يكاد لا يكون شيئا بموازنته مع الذى أجهله ، وانى لا أيأس من القدرة على معرفته. لأنه يكاد يكون سواء مثل الذين يكشفون قليلا فقليلا (٦٧) عن الحقيقة فى العلوم ، كمثل الذين عندما يبدأون فى أن يصيروا أغنياء ، يكون عناؤهم فى تحصيل المقادير الكبيرة أقل من عنائهم من قبل وهم فقراء فى تحصيل ما هو أقل بكثير . وقد يستطاع مقارنتهم برؤساء الجيش تزداد قواهم على قدر انتصاراتهم ، والذين يحتاجون الى السياسة لكى يحفظوا أنفسهم بعد خسارة معركة أكثر من حاجتهم اليها بعد كسبها ليستولوا على المدن والأقاليم . لأنه فى الحقيقة أن يخوض المرء غمار معركة مثل أن يحاول التغلب على كل المعضلات والاخطاء التى تعوقنا عن الوصول الى معرفة الحقيقة ، وأن خسران معركة مثل قبول رأى فاسد يختص بمسألة عامة ومهمة الى حد ما ، ويجب بعد ذلك من الحذق للعودة الى نفس الحالة التى كان المرء فيها من قبل ، أكثر مما يجب لتحصيل تقدم عظيم ، اذا كان للمرء مبادىء وثيقة . أما أنا ، فاذا كنت قد وجدت فيما سبق بعض الحقائق فى العلوم (وآمل أن الأشياء التى يحتوى عليها هذا المجلد تدعو الى الحكم باننى وجدت بعضا منها) فاننى أقدر على أن أقول

انهـا ليست الا توابع ولواحق خمس أو ســت معضلات رئيســية تخطيتها ، وهي ما أعتبرها كمعارك كان الحظ فيها الى جانبى • بل لن أخشى أن أقول ، انى أرى أننى لم أعد فى حاجة الى تحصيل غير اثنتــين أو ثلاث أخرى مثلهـا للوصول الى كل غايتى ، ولست من التقدم فى السن بحيث لايكون لى وفقا لسير الطبيعة العادى، متسع من الوقت لتحقيق هذه الغاية•ولكننى أعتقد أنى مضطر الى أن (٦٨) أقتصد فيما بقى لى من الوقتعلى مقدار قوة أملى فىالقدرة على حسن استخدامه ، وستكون لى بغير شك فرص كثيرة لتضييعه ، اذا نشرت أصول مذهبى فى الطبيعيات (١) • لانها وان كانت كلها تقريبا من الوضـوح بحيث لا يلزم لتصديقها الا الاصغاء اليها ، وبحيث انه ليس منها ما أعتقد أنه يعجزنى أن أقيم عليه البراهين ، وعلى كل حال فلأنه من المستحيل أن تتفق مع كل الآراء المختلفـة التى يقول بهـا غيرى فاننى أتوقع أنى ســأحيد عنهـا كثيرا لمـا ستولده من معارضات •

ومن المستطاع أن يقال ان هذه المعارضات تكون نافعة لانهـا تعرفنى اخطائى ، ولانهـــا تزيد فى فهم الآخرين لما قد يكون فى مبادىء من صواب وكما أن الكثيرين يستطيعون أن يبصروا أكثر مما يبصر انسان واحد، فان الذين بدءوا منذ الآن فىالاستعانة بأصول طبيعياتى ، سيعينوننى أيضا باستكشافاتهم • ولـكن مع اقرارى بأننى جد معرض للخطأ ، واننى أكاد أتمسك دائما بالافكار الاولى التى ترد على ، فان التجربة التى أحصل عليها من الاعتراضات التى يمكن أن توجه الى تمنعنى ان آمل فى منفعة منهـــا • لاننى كثيرا ما جربت من قبل الاحكام : سواء كانت صادرة عمن كنت أعتبرهم

---

(١) أى بالاشتغال فى الردود على اعتراضات العلماء والانتباه الى أعمال رجال الدين وكيدهم ، لانهم كانوا يقاومون كل مايعارض طبيعيات أرسطو .

أصدقاء لى ، أو صادرة عن آخرين كنت أعتقد أننى لست لهم لا بالصديق ولا بالعدو ، بل ومن بعض الذين عرفت أن خبثهم وحسدهم يجعلانهم يكشفون ما يستر الحب عن أصدقائى ، ولكنه ندر أن اعترض على بشىء لم أتوقعه البتة مالم يكن هذا الشىء بعيدا (٦٩) جدا عن موضوعى ، بحيث اننى لم أكد قط أجد منتقدا لآرائى ، ولم يبد لى أنه اما أقل تدقيقا أو أقل نصفة منى • وكذلك لم ألاحظ أبدا أنه بواسطة المجادلات التى تثار فى المدارس ، قد استكشفت حقيقة كانت مجهولة من قبل ، لأنه بينما يحاول كل أن ينتصر ، يجتهد فى تعزيز المحتمل أكثر من اجتهاده فى وزن الحجج من كل الجهات ، وان الذين ظلوا زمنا طويلا محامين بارعين لا يكونون بعد هذا لذلك السبب ، خير القضاة •

أما المنفعة التى سينالها الآخرون من نشر أفكارى فانها لن تكون كبيرة جدا مادمت لم أتقدم بها تقدما كبيرا يجعلها غير محتاجة الى اضافة كثير من الاشياء اليها قبل تطبيقها على العمل • وأعتقد أننى أقدر على ان أقول دون غرور انه اذا كان يوجد شخص يقدر على ذلك ، فاننى أكون حتما أولى بذلك من كل أحد غيرى ، وليس هذا لأنه لايمكن أن يكون فى العالم عقول كثيرة أفضل من عقلى الى الحد الذى لايجارى ، ولكن لانه ليس من المستطاع أن يجيد المرء تصور شىء وأن يجعله ملكا له، اذا تعلمه من غيره كما لو استكشفه بنفسه وذلك حقيقى جدا فى هذا الموضوع ، بحيث انى كثيرا ماشرحت بعض آرائى لأشخاص أولى عقول جيدة ، وبينما كنت أتحدث اليهم كان يظهر لى أنهم يفهمونها فهما متميزا ، ومع هذا فانهم عندما كانوا يعيدونها ، كنت ألاحظ أنهم كانوا يكادون دائما يغيرونها بحيث لم أكن لأستطيع أن أعترف بأنها آرائى • وبهذه المناسبة فانه يسرنى كثيرا ان أرجو أحفادنا ألا يصدقوا ما سيقال لهم انه صادر عنى ، اذا لم أكن أنا قد أذعته بنفسى • وما كنت لأعجب البتة من

هذا الشطط الذى يعزى الى كل هؤلاء الفلاسفة المتقدمين ، الذين ليست لدينا كتاباتهم (١) ، ولست أحكم من أجل هذا أن أفكارهم كانت مجانبة للعقل ، مع العلم بأنهم كانوا من خيرة العقـــلاء فى أزمنتهم ، ولكننى أحكم فقط بأن أفكارهم ساءت روايتها • كما أننا نرى أيضا أنه لم يكد يحصل أن أحد أتباعهم قد فاقهم ، وانى لواثق أن أكثر متابعى أرسطو حماسه الآن ، يرون أنفسهم سعداء لو أن لهم من العلم بالطبيعة ما كان له حتى بشرط ألا يتجاوزوا قدر ما علمه • انهم مثل اللبلاب الذى ليس مستعدا لأن يرتفع الى مافوق الاشجار التى تسنده ، بل وكثيرا ما يهبط بعد ان يبلغ ذروتها ، لانه يبدو لى أيضا أن هؤلاء يهبطون ، أى انهم يردون أنفسهم ، على وجه ما ، أقل علما مما لو كفوا عن التحصيل ، هم لعدم اقتناعهم بمعرفة كل ما هو مشروح بطريقة مفهومة عند المؤلف الذى يقرءونه يريدون فوق ذلك أن يجدوا لديه حلا لمعضلات كثيرة لايقول فيهـــا شيئا ، وربما لم يفكر قط فيهـــــا • ومع ذلك فان طريقتهم فى التفلسف موافقة جدا لأولى العقول الضعيفة ، لان غموض التمييزات والمبادىء التى يستعينون بها سبب فى أنهم يستطيعون الكلام فى كل الأشياء بجرأة كأنهم يعرفونها ،وان يؤيدوا كل ما يقولون فيها **(٧١)** ضد أشد الناس تدقيقا وأكثرهم حذقا دون ان تكون للمرء وسيلة لاقناعهم • وهم فى هذا يظهرون لى كمثل أعمى ، يريد ان يشاجر بصيرا دون أن يكون مغبونا ، فيصل به الى قاع كهف شديد الظلمة وأستطيع أن أقول ان لهؤلاء مصلحة في ان أكف عن نشر مبـــادىء الفلسفة التى آخذ بها ، لانهـــا لما كانت على ما هى عليه من قوة

---

(١) يقصد بعض الفلاسفة السابقين كسقراط لاسيما ديموقريطس (انظر جلسون التعليق ص ٤٦٢) .

البساطة والوضوح فانني أكاد أكون لو أني نشرتها كما لو أنني فتحت بعض المنافذ وجعلت النور يدخل الى هذا الكهف حيث هبطوا للتشاجر • لكن خير الناس عقولا أنفسهم ليست لهم فرصة ليتمنوا معرفة هذه المبادىء ، لأنهم اذا كانوا يريدون معرفة الكلام فى كل شىء وأن يشتهروا بأنهم علماء ، فأيسر لهم أن يدركوا هذا بأن يرضوا بالمحتمل الذى يمكن ان يوجد بدون عناء فى كل أنواع المسائل من ان يبحثوا عن الحقيقة التى لاتظهر الا قليلا قليلا فى بعض المسائل ، واذا عرض القول فى مسائل أخرى فهى تجبر المرء على ان يعترف صراحة أنه يجهلها • أما اذا كانوا يؤثرون معرفة قليل من الحقائق على غرور التظاهر بعدم جهل شىء ما ، لان هذه المعرفة أفضل كثيرا بلا ريب ، واذا كانوا يريدون السعى وراء مطلب شبيه بمطلبى ، فانهم ليسوا فى حاجة لاجل هذا الى ان أقول لهم أكثر مما قلت فى هذا المقال • لانه اذا كانوا أهلا لان يتقدموا أكثر مما تقدمت فانهم يكونون بالأولى أهلا لان يستكشفوا بأنفسهم كل ما أعتقد أننى استكشفته • ولما كنت لم أدرس شيئا قط الا بترتيب فانه من المؤكد أن ما بقى على استكشافه هو فى نفسه أصعب وأخفى (٧٢) من الذى استطعت قبل الآن ان أصل اليه ، ويكون سرورهم بتعلمه منى أقل بكثير من سرورهم بتعلمه بأنفسهم ، وعدا هذا فان ما سيعتادونه ببحثهم أولا عن الامور السهلة ثم تجاوزهم اياها قليلا قليلا على قدر الى أمور غيرها أصعب منها ، سيكون لهم أنفع من كل ما تستطيعه تعليماتى • كذلك ما يختص بى ، فاننى مقتنع بأننى لو كنت علمت منذ صباى كل الحقائق التى بحثت عن براهينها منذ ذلك الحين ، ولو كنت لم أكابد أى عناء فى تعلمها لكنت ربما لم أعلم قط شيئا غيرها • وعلى الاقل ما كان يكون لى ما أعتقد من الاعتياد والسهولة اللتين أعتقد أنهما لى فى استكشاف الجديد من الحقائق دائما على قدر اجتهادى فى البحث عنها • وفى كلمة واحدة

اذا كان فى العالم صنيع لا يمكن ان يحسن انجازه الا الذى بدأ بنفسه ، فذلك هو الصنيع الذى أعالجه ٠

وحقيقة ، فانه فيما يختص بالتجارب التى تنفع فى ذلك ، فان رجلا واحدا لا يمكن أن يكفى للقيام بها جميعا ، ولكنه لا يستطيع أيضا أن يستخدم فى ذلك غير يديه استخداما مفيدا ، اللهم الا أن تكون أيدى الصناع ، أو مثلهم من الناس ممن يستطيع أن يدفع لهم أجرا ، والذين يبعثهم الأمل فى الكسب ، وهو وسيلة فعالة جدا ، الى أن يحكموا صنع كل ما يأمرهم بصنعه من الأشـــياء ٠ فان المتطوعين ، الذين ربما ندبوا أنفسهم لمعاونته ، تطلعا ، أو رغبة فى المعرفة ، فعدا أن لهم فى العادة من المواعيد أكثر مما لهم من الاعمال وانهم لايعملون الا خططا جميلة لاينجح واحد منها قط،فانهم يرغبون حتما فى أن يكافأوا بأن توضح لهم بعض المعضلات أو على (٧٣) الأقل بثناء ومسامرات غير مجدية ، وكل وقت يصرفه فى هذا ، وان قل ، فهو مضيع ٠ وأما التجارب التى قام بها آخرون من قبل حتى لو أنهم أرادوا ابلاغهـــا اليه ، وهم لايبلغونه قط ما يدعونه أسرارا ، فأكثر هذه التجارب ، يتألف من ظروف كثيرة ، أو من أجزاء نافلة ، بحيث يتعسر عليه أن يستخلص منها الحقيقة ، وفوق ذلك فانه يكاد يجدها كلها سيئة الشرح جدا ، بل قد تكون فاسدة جدا ، لأن الذين قاموا بها تعلموا أن يجعلوا لها مظهر اتفـــاق مع مبادئهم ، فلو أن فيها بعض ما ينفعه ، ما كافأ الوقت الذى ينبغى انفاقه فى اختياره ٠ وعلى ذلك فانه اذا كان فى العالم شخص ، نعلم يقينا أنه قادر على استكشاف أعظم الاشياء ، وأكثر ما يمكن أن يكون نافعا للناس ، وأنه ، من أجل هذا ، يحاول كل النـــاس ، بكل الوسائل ، أن يعينوه لكى يبلغ بمطالبه غاية النجاح ، فاننى لا أرى أنهم يقدرون على شىء ينفعه ، اللهم الا أن يمدوه بنفقات التجارب التى يحتاج اليها ، ثم بعد ذلك ، أن يحولوا دون وقته أن يذهب

به تدخل فضولى ، ولكنى عدا أننى لا أزهى بنفسى الى حد أن أرغب فى أن أعد بأمر يتجاوز المألوف ، ولا أن أتشبع بأفكار خادعة ، الى حد ان أتخيل أن الجمهور يجب أن يهتم بخططى كثيرا ، فان نفسى (٧٤) ليست أيضا من الضعة بحيث أرضى بأن أقبل من أى انسان مهما كان أى نعمة ، يمكن أن يظن أننى لم أكن أهلا لها ٠

كل هذه الاعتبارات معا ، كانت سببا منذ ثلاث سنين فى أننى لم أرد أن أذيع الرسالة التى كانت بين يدى ، بل وأن أصمم على ألا أظهر طول حياتى ، غيرها مما يكون عاما أو يمكن أن تفهم منه أصول طبيعياتى ولكن عرض منذ هذا الحين سببان آخران،اضطرانى الى أن أورد هنا بعض المحاولات الخاصة (١) ، وأن أذيع بين الناس بعض بيان لما عملته وما أنويه ٠ أما السبب الاول فهو أننى اذا أغفلت هذا ، فان الكثيرين الذين علموا بعزمى من قبل على نشر بعض الكتابات ، ربما تخيلوا أن الأسباب التى بعثتنى الى أن أعدل عن عزمى ترجع الى عيب فى أكثر مما فى الواقع لأنه ولو أنى لا أغلو فى حب المجد ، بل واذا جاز لى القول ، فاننى أكرهه مادام حكمى أنه يجافى الراحة التى أقدرها فوق كل الاشياء ، فاننى لم أحاول مع ذلك أن أخفى أعمالى كما تخفى الجرائم ، ولم أستعن بكثير من الحيطة كى أكون غير معروف ، وذلك لاننى كنت أعتقد أننى بهذا أسىء الى نفسى كما أن ذلك يسبب لى نوعا من الاضطراب يجافى أيضا ما أنشده من الراحة الكاملة للنفس ٠ ولانه ، لما كنت كذلك غير مهتم بأن أكون مشهورا أو غير مشهور ، ولم أقدر على أن أتحامى حصولى على بعض ضروب الشهرة ، رأيت أنه يجب على أن أعمل مافى وسعى لأتحامى على الأقل أن تكون لى شهرة سيئة ٠ والسبب

(١) يقصد رسائله الثلاث انكسار الاشعة وعلم الانواء والهندسة التى ظهرت جميعا مع المقال عن المنهج سنة ١٦٣٧ ٠

الثانى الذى حملنى على كتابة هذا ، هو أننى لما رأيت فى كل يوم تزايد التعويق الذى يصيب خطتى فى تعليم نفسى ، وذلك بسبب حاجتى الى تجارب لاتحصى، يستحيل أن أنجزها دون معاونة الغير، ومع اننى لا أغتر بنفسى الى حد أن آمل أن تأخذ الدولة بقسط وافر فى مشاغلى ، فاننى على كل حال لاأرغب فى أن أقصر فى حق نفسى الى حد أن أبرر لمن يعيشون بعدى أن يعيبونى يوما ما بأننى كنت أستطيع أن أترك لهم أشياء كثيرة خيرا مما فعلت ، هذا اذا لم أكن قد أفرطت فى اهمال تفهيمهم ما الذى يستطيعون به أن يشاركوا فى تحقيق خططى .

وقد رأيت أنه كان هينا على أن أختار بعض المواد ، التى وان كانت ليست موضوع مجادلات كثيرة ، ولا تجبرنى على أن أفشى من مبادئى فوق ما أريد ، فانها لا تضعف عن أن تبين بوضوح كاف ما أقدر عليه أو ما لا أقدر عليه فى العلوم . ولا أستطيع أن أقول اننى نجحت فى ذلك ، وما أريد أن أتنبأ بأحكام أى انسان ، عندما أتحدث بنفسى عن كتاباتى ، ولكن يسرنى كثيرا أن تمتحن ، ولكى يتيسر لذلك أكثر ما يمكن من الفرص أبتهل الى من قد يكون لهم عليها اعتراض أن يكلفوا أنفسهم مشقة ارسال اعتراضاتهم الى وراقى(١) ، وعندما يعلننى بذلك ، فانى أجتهد فى أن أقرن الاعتراض بردى عليه فى الوقت عينه ، وبهذه الطريقة يرى القراء هذا وذاك معا ، فيكون أسهل لهم أن يحكموا بما هو أحق . فاننى لا أعد بأن أكتب قط ردودا مطولة ، ولكننى أقتصر على أن أقر **(٧٦)** بأخطائى بصراحة كثيرة، اذا عرفتها، أو أن أقول فى بساطة اذا لم أقدر على ادراكها ، ما أعتقد أن الدفاع عما كتبته يحتاج اليه ،

---

(١) الوراق هو صاحب المكتبة وناشر الكتب .

دون أن أضيف الى ذلك تفسير أي مسألة جديدة ، حتى لا أنتقل الى غير نهاية من واحدة الى أخرى ٠

واذا كانت بعض المسائل ، التي تكلمت عنها في بدء **علم انكسار الأشعة(١) وعلم الانواء** تصـــدم في بادىء الامر ، وذلك لانني أسميها فروضا ، ولانه يبدو أنني لا أعنى باثباتها ، فليكن للقارىء صبر على استيفاء ما كتبتـه بانتباه ، وآمل أنه يجـد فيه رضاه ، لانه يبدو لى أن الحجج تتوالى فيها كأن الاواخر تبرهن عليها الاوائل ، التي هي عللها ، وكأن هذه الاوائل أيضا تبرهن عليها الأواخر ، التي هي معلولاتها (٢) ٠ ولا ينبغي أن يتوهم أنني أقع

---

(١) يعرفه مرسن فى كتابه الحقيقة فى العلوم بأنه العلم «الذى يعرفنا كيف نبصر بواسطة الشعاع المنكسر كما هو الحال عندما نرى جزءا منها فى الماء والآخر فى الهواء » أدام حياة ديكارت ١٨ (١٨٥) ٠

ويدخل فيما يسميه العرب بعلم المناظر وهو مايسميه الاربيون Optique ويترجمه المحدثون بكلمة علم الضوء ويعرفه ابن خلدون فى مقدمته بقوله «هو علم تتبين به أسباب الغلط فى الادراك البصرى بمعرفة كيفية وقوعها بناء على أن ادراك البصر يكون بمخروط شعاعى رأسه يقطعه الباصر وقاعدته المرئى ، ثم يقع الغلط كثيرا فى رؤية القريب كبيرا والبعيد صغيرا وكذا رؤية الاشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الاجسام لشفافة كبيرة ، ورؤية النقطة النازلة من المطر خطا مستقيما والشلعة دائرة وأمثال ذلك الخ» وابن خلدون يعتبره من العلوم الهندسية ولكن ديكارت يراه من العلوم الطبيعية المزوجة بالرياضة ٠

(٢) قال هملان : ان كون الله مصدرا للخير هو وجه للتعبير عن عقلية الوجود ، واذا كنا نقدر أن نقيم فوق مبدأ وضوح المعانى وتميزها * نظرية للوجود ، أى اذا كان المذهب العقلى يؤدى الى نظرية للوجود كافية ، فنحن اذا عدنا من الوجود كما هو محدد ، نستنبط اذن من طبيعته أن الحقيقة تتمثل للعقل بواسطة وضوح المعانى وتميزها ٠ وبعبارة أخرى من المستطاع أن يقال ان الله يكشف لنا الحقائق بواسطة المعـانى الواضـحة المتميزة ، ثم يقول =

---

* أى قول ديكارت بأن كل مانتصوره بوضـوح وتميز حقيقى ومعنى حقيقى عنده هو معنى واقعى ٠

هنا في الخطأ الذى يسميه المناطقة بالدور (١) . لانه لما كانت التجربه تجعل أكثر هذه المعلولات مؤكدة جدا . فان العلل التى استنبطت منها هذه المعلولات لا تصلح لأن تثبت وجودها بمقدار ما تصلح لأن تفسرها ، ولكن الامر على العكس فان العلل تثبتها المعلولات . وأنا لم أدعها فروضا ، الا لكى يعلم أنى أعتقد بالقدرة على استنباطها من هذه الحقائق الاولى التى شرحتها من قبل ولكنى أردت عن قصد الا أفعل هذا كى أمنع بعض العقول التى تتوهم أنها سرعان ما تعرف في يوم واحد كل ما فكر فيه الغير فى عشرين عاما اذا قال لهم عنه كلمتين أو ثلاثا والذين يكونون أكثر تعرضا للخطأ ، وأقل قدرة على ادراك الحقيقة كلما كانوا أكثر تدقيقا وأكثر نشاطا من أن يتخذوا من ذلك فرصة ليقيموا فلسفة متطرفة فوق ما يعتقدونه مبادىء ، وأن ينسب الى ما فيها من خطأ (٢) . لأنه فيما يختص بالآراء التى هى كلها آرائى فانني لا أدافع عنها

«العلاقة بين مبدأ المعانى الواضحة المتميزة والقول فى الله ، أو فى الوجود العقلى كما يبدو لنا ، تكاد تكون كما يظهر ، نفس العلاقة التى يسلم بها ديكارت بين الوقائع والفروض فى الطبيعيات ، الاوائل هى برهان الاواخر والاواخر هى برهان الاوائل ، دون أن يكون فى هذا أقل دور » مذهب ديكارت ٣ ص ١٤٢ وقارن هذا بما كتبناه فى المقدمة عن نظرية المعرفة عند ديكارت ولاسيما ص (مط) و (ن) .

(١) الدور خطأ فى المنطق ينحصر فى البرهان على شىء بشىء آخر يتوقف على الاول .

(٢) صح حدس ديكارت ومعهذا ، فان الاستاذليفى برول L.Lévy-Bruhl يقول عند كمه عن تطرف بعض الفلاسفة في القرن الثامن عشر وعدائهم للدين والنظم الاجتماعية القائمة «ان مبادىء ديكارت مسئولة ، الى حد كبير ، عن تكوين فلسفة شديدة الاختلاف مع فلسفة ديكارت » النزعات العامة لبيل وفنتنل Les tendances générales de Bayle et de Fontenelle فى مجلة تاريخ الفلسفة Rev. d'histoire de la philosophie السنة الاولى (١٩٢٧) ص ٥٠ .

باعتبارها جديدة مادام اذا قدر المرء حججها فاننى واثق أنه يجدها بسيطة جدا ومطابقة للعقل العادى بحيث تظهر أقل شذوذا وغرابة من كل ما سواها مما يمكن أن يكون فى نفس الموضوعات ، وأنا لا أزهى أيضا لاننى المبتدع الاول لأى رأى منها ولكن لاننى لم أقبلها قط لان آخرين قالوا بها ، ولا لانهم لم يقولوا بها ، ولكننى لم أقبلها الا لأن العقل أقنعنى بها ٠

واذا كان الصناع لا يستطيعون أن يحققوا عاجلا الاختراع الذى شرحته فى **علم انكسار الاشعة** ، فاننى لا أعتقد أنه يمكن القول من أجل هذا بأنه ردىء : لانه مادام الحذق والمران لازمين لصنع الآلات التى وصفتها وضبطها دون أن ينقص هذا أى شرط ، فان دهشتى اذا نجحوا لأول وهلة لن تكون أقل من دهشتى لو استطاع انسان فى يوم واحد أن يتعلم العزف بالعود ببراعة وذلك لانه أعطى لوحا جيدا للرموز الموسيقية ٠ واذا كنت أكتب باللغة الفرنسية التى هى لغة بلادى بدلا من أن أكتب باللغة اللاتينية التى هى لغة أساتذتى فذلك لاننى آمل أن هؤلاء الذين لا يستعينون الا عقلهم الفطرى الخالص سوف يكونون أحسن حكما فى آرائى من أولئك الذين لا يؤمنون الا بالكتب القديمة ٠ وأما من يجمعون بين **(٧٨)** العقل والتحصيل وهم وحدهم من أتمنى أن يكونوا قضاتى فاننى على ثقة من أنهم لن يكونوا من التحزب للغة اللاتينية بحيث يأبون الاصغاء لحججى لانى أشرحها بلسان عامى ٠

بقى أننى لا أريد أن أتحدث هنا حديثا خاصا عن التقدم الذى آمل ان أتقدمه فى العلوم فى المستقبل ، ولا أريد أن آخذ على نفسى أمام الناس عهدا لا أثق من انجازه ، ولكننى أقتصر على القول باننى صممت على ألا أنفق بقية حياتى فى غير الاجتهاد فى تحصيل شىء من العلم بالطبيعة يكون بحيث يمكن أن تستخلص منه للطب قواعد أوثق مما وجد حتى الآن ، وان ميلى ليبعدنى بعدا كبيرا عن كل

أنواع المقاصد الاخرى لا سيما تلك التى لا تكون مفيدة للبعض الا اذا أضرت بآخرين(١) . فلو اضطرتنى بعض الظروف الى أن أعالجها فما كنت لأعتقد أننى أكون أهلا للنجاح فيها . وانى لأعلن هذا وأعلم خير العلم أن هذا الاعلان لا يستطيع أن يجعلنى مبجلا فى العالم . ولكن ليست لى أى رغبة فى هذا أيضـا ، وسأكون دائما معترفا بالجميل للذين بفضلهم أستمتع بوقتى من غير عائق أكثر من اعترافى بالجميل لمن قد يهـدون الى أكبر ما فى الارض من مناصب التشريف .

انتهى

---

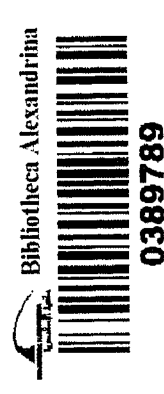
(١) ربما يريد ديكارت أن يقول هنا انه لايقبل أن يجيب دعوة أحـد الامراء كى يطبق فى مصلحته علومه فى حيل الحروب . وهـذا تفسير لاستاذنا مسيو لالاند شافهنا به سنة ١٩٢٧ عند قراءته للمقال فى الجامعة المصرية ووافق على اثباته هنا أثناء طبع هذا الكتاب .

الفهرس

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
فرع الساحل



دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
١٩٦٨



الثمن ٢٥ قرشا